ويلتون واين



عبد الناصر..
قصة البحث عن الكرامة

مكتبة مدبولي

عبد الناصر ..

قصة البحث عن الكرامة

الكتاب : عبد الناصر .. قصة البحث عن الكرامة

تأليف : ويلتون واين

الطبعة : الأولى ٢٠١٠

رقم الإيداع : ٢٢٢١٥/ ٢٠٠٩

الترقيم الدولي : 6 - 826 - 208 - 977

الناشر : مكتبة مدبولي ٦ ميدان طلعت حرب – القاهرة

تليفون : ٢٥٧٥٦٤٢١ – فاكس : ٢٥٧٥٢٨٥٤

الموقع الإلكتروني : www.madboulybooks.com

البريد الإلكتروني : info@madboulybooks.com

جمع تصويري : سالي حسانين

تصميم الغلاف : أسماء إبراهيم

ويلتون واين

عبد الناصر..
قصة البحث عن الكرامة

الناشر
مكتبة مدبولي
2010



(١)

أرض الناصرية الخصبة



"إن أهلها مستضعفون، وأرضها ذهب، وهي ملك لأولئك الذين يملكون القوة الكافية على أخذها".

هكذا وُصفت مصر في رسالة بعث بها عمرو بن العاص، القائد المسلم الذي افتتح وادي النيل في سنة ٦٤٠ بعد الميلاد، إلى الخليفة عمر بن الخطاب. ولكن موقف عمرو هذا إنما شاركه فيه، منذ ذلك الحين وقبله، سلسلة طويلة من السلالات والفاتحين الأجانب، بدأت بالفتح الفارسي سنة ٣٤٣ قبل الميلاد وانتهت بالملك فاروق في عصرنا هذا. هذه القافلة من الغزاة الأجانب أحدثت تبدلات متواصلة في الطبقة المصرية العليا. ففي زمن كليوباترا كانت الطبقة العليا في المدن يونانية الثقافة كان أفرادها يتكلمون اليونانية، يتزون بالزي اليوناني ويعيشون في بيوت مبنية على الطراز اليوناني، ويعتنقون الديانات اليونانية. وما إن أطل القرن التاسع عشر حتى كانت هذه الطبقة قد أصبحت تركية، وانقلبت في القرن العشرين إلى طبقة أوروبية.

وسواء كانت هذه الطبقة الأجنبية الاتجاه يونانية قديمة أو أوروبية حديثة فإنها قد عاشت دائماً في رخاء وبحبوحة في أرض مصر، وإنها استمدت رخاءها وبحبوحتها من عنصرين ذكرهما عمرو في رسالته: الأرض الذهب والأهالي المستضعفين.

يعتبر سكان مصر أن أرض مصر الذهبية هبة من الله، ذلك لأن الطبيعة قد جلبت أخصب تربة في العالم من بلد آخر، ووضعتها في وادي النيل الأسفل. ولن تحتاج لكي تفهم هذه الحقيقة إلا إلى أن تسير بالسيارة مسافة عشرين دقيقة من القاهرة إلى الأهرام على طرف سهل الصحراء الغربية المطل على الوادي. فإذا وصلت إلى الأهرام فانظر إلى الغرب. إن عينيك لن تقع على غير الرمال... رمال... رمال تنفخ عبر قاعدة من الأحجار الكلسية حيث لا يمكن حتى لعشبة واحدة أن تنمو. إن مصر كلها، إلى الغرب من وادي النيل، إذا استثنينا بضع واحات، هي أقحل صحراء يمكن أن يتصورها العقل. استدر

الآن وانظر إلى الشرق. في الجانب الآخر من الوادي ترى الصحراء ترتفع مرة أخرى، وإلى سهل أغبر آخر يمتد نحو البحر الأحمر. ثم اخفض بصرك إلى وادي النيل، وسترى هنالك غُرة من الخضار، قطعة من أخصب الأراضي وأغناها في العالم أجمع.

هذه الرقعة الضيقة من الأرض الخصبة هي التي تحتم أن يعيش عليها سكان مصر. ولولا النيل لكانت هذه البلاد، التي لا تهطل فيها الأمطار، صحراء بكليتها شأن السهلين الشرقي والغربي، بدلاً من أن تكون الأرض الأكثر غنى وخصباً في الشرق الأوسط. إن النيل هو الذي جلب تربة مصر الذهبية من جبال الحبشة، حيث يفيض النهر سنوياً بفعل الأمطار الصيفية ويرسب طبقة جديدة من الطين تجعل الوادي أكثر غنى وخصباً.

هذا النهر السحري لا يجلب التربة إلى مصر فحسب، بل يروي الأرض ويصرف مياهها. ففي المناطق التي تروى بالأحواض يرتفع النيل ويروي الأرض بصورة أوتوماتيكية تماماً في الوقت الذي يحتاج فيه الزرع إلى المياه أكثر ما يكون، ثم إن انخفاض النهر يجفف الأرض ويستنزف مياهها في الوقت المناسب. وبالروح نفسها يعامل النهر رجال المراكب الذين يسيرون في فلايكهم الظريفة على صدره.

هذا الاعتماد الذي استمر قروناً بطولها على النيل الخيِّر قد كان وما يزال السبب الرئيسي في أن جمهرة المصريين الكبرى لم تتبدل تبدلاً كبيراً طيلة تاريخهم الطويل الذي استمر ستة آلاف من السنين. لقد جاء الغزاة الأجانب وذهبوا، وبدلت الطبقة العليا من لباسها مرات عديدة، ولكن الفلاح المصري إنما بقي هو نفسه... إنه يعيش في بيت من النوع نفسه، ويعمل في أرضه بالأدوات نفسها، ويروي مزروعاته بالطريقة نفسها التي كان يتبعها أسلافه.

والطين الذي يجلبه النيل معه من الحبشة مادةٌ جاهزةٌ للبناء، وهكذا فإن الفلاح المصري يعيش في بيت من الطين والقش، كتلك البيوت التي ابتناها بنو إسرائيل عندما كانوا في مصر التي ورد ذكرها في التوراة. إن الطين شائع الاستعمال في بناء البيوت

بحيث أن كل قرية مصرية بجانبها حوضٌ اصطناعي قذر احتُفر منه الطين لصنع أحجار الطوب.

في مجموعة من مثل هذه الأكواخ على فرع من فروع النيل يعيش حمودة محمد مع زوجته عائشة وأولاده الأربعة الباقين على قيد الحياة. إن أكواخ قرية حمودة المبنية من الطين، لتزدحم معاً بالقرب من النهر. وفي ثلاث جهات وراء القرية تمتد حقول خضراء تزرع بالتناوب قطناً وقمحاً وفولاً وبرسيماً، وتخترقها قنوات الري. أما القرية نفسها فجرداء خالية إلا من مجموعة رشيقة من أشجار النخيل. وأما "الشوارع" بين الأكواخ فغارقة في الغبار والروث، وتعج بالبراغيث والقمل والبق والذباب والبعوض.

لقد استعمل حمودة الخشب لصنع باب البيت وإطاره، ولكن البيت بأكمله ما عدا ذلك مبني من الطين والقش. هناك سلم خارجي يؤدي إلى السطح، حيث تجلس عائشة القرفصاء لتصنع من روث الجمال أقراصاً أسطوانية الشكل تجففها في الشمس وتستخدمها من بعد كوقود للطبخ.

وإذا ما دخلت البيت نفسه فإنك تجد نفسك في ما يشبه غرفة استقبال كبيرة بعرض البناء الذي يستعمله حمودة وعائلته بالاشتراك مع حيواناتهم. وفي أحد الأطراف ترى عائشة تخبز فوق موقد من الطين، وفي موضع ما قريب من الوسط ترى حمودة وضيوفه من الرجال جالسين على حصير من القش يحتسون الشاي الثقيل. وفي الطرف الآخر من الغرفة تجد مجموعة من الدجاج المرقش، وقطة مستضعفة عوراء، وبطتين وعنزة واحدة. أما ملكة الحيوانات في البيت فهي الجاموسة التي يعتمد عليها الفلاح في عمله وتقدم له لبنه وجبنته البيضاء، ويحصل حمودة على مبلغ زهيد جداً من بيع العجل الذي تلده الجاموسة سنوياً. إن الاحتفاظ بهذه الحيوانات في داخل البيت يعني دون شك أن أرضه القذرة ملوثة بروث الحيوان من كل نوع، لكن حمودة لا يستطيع أن يعرض نفسه لخطر سرقتها، وهو لا يعتبر إطلاقاً أن حيواناته في مأمن من السطو إلا إذا أقفل باب بيته عليها

وعلى نفسه معاً. إن هذا لأمرٌ يصر عليه جميع الفلاحين بعناد: فالحيوانات يجب أن تعيش داخل البيت.

هذه الأسرة الفلاحة ترتدي البسيط من الثياب، فحمودة يلبس قفطاناً طويلاً من القطن يدعى الجلابية، ويضع في العادة طاقية على رأسه، ويلف أحياناً عمامة بيضاء حول طاقيته. أما أولاده الأربعة (مات خمسة آخرون في طفولتهم) فيرتدون لباس حمودة نفسه على شكل مصغر، ويمشون، شأن أبيهم، حفاة الأقدام. وأما عائشة فتلف نفسها بملاءة سوداء يمكن أن تسحبها على وجهها بحيث تشكل حجاباً عند قدوم الغرباء. إنها متغضنة، نحيلة، مقوسة الساقين، إما بسبب من نقص التغذية أيام الطفولة، أو بسبب من عبء العمل الذي تقوم به زوجة الفلاح في بيته.

وإذ يحتسي حمودة الشاي ويتطلع إلى هذه العجوز فإنه كثيراً ما يفكر في اتخاذ زوجة ثانية. إن دينه، الإسلام – وبالتالي القانون المصري – يبيح له الزواج مثنى وثلاث ورباع، وكثرة الزوجات تعني كثرة الأيدي العاملة، وبصورة أخص، زيادة في الأولاد. إن الفلاح، في النهاية، يحسب ثروته بقدر ما عنده من أولاد، وما من إحصاءات في العالم تستطيع أن تقنع المصري بأنه يجب أن يكون هناك حدٌ لذريته. ولكن الذي ينقذ عائشة من أن تشاركها في زوجها امرأةٌ أخرى هو الضيق الاقتصادي وحقائق الحياة الصعبة التي تواجه حمودة. إنه مستأجرٌ ثلاثة فدادين من الأرض من مالك قريته، وهذه القطعة الصغيرة من الأرض لا تكاد تبقى على رمق عائلته.. فضلاً عن أن حمودة، إذا أراد أن يتزوج من امرأة أخرى، عليه أن يدفع صداقاً، مع العلم بأنه طيلة حياته لم يستطع أن يجمع من المال ما يكفيه للزواج مرة أخرى.

وفي الليل يترك حمودة وأفراد عائلته الحيوانات في الغرفة الكبيرة وينسحبون إلى غرفة النوم الصغرى في مؤخرة البيت. وفي لحظة من لحظات اليُسر النادرة ابتاع حمودة سريراً حديدياً ينام عليه، بينما تتقاسم عائشة مع أولادها حصائر القش فوق أرصفة من الطين ملاصقة للجدران.

وتشرب العائلة من مياه النيل الموحلة، كما تستخدم هذه المياه نفسها في الغسل والطبخ. ومع أن هذه المياه القاتمة تعج فعلاً بالحياة البحرية الدقيقة فإن حمودة – شأن أسلافه في العصور الفرعونية – يُقسم على أن هذه المياه شراب مغذ. وعندما يحج الفلاحون إلى مكة فإنهم يحملون معهم كريات مجففة من وحل النيل ويذيبونها في مياه الأرض الغريبة قبل أن يشربوها.

وهم يقولون: "إذا كانت هذه المياه صالحة للمزروعات، فإنها لا شك صالحة للإنسان".

ويخلع حمودة ثيابه ويستحم في قناة الري القذرة، بينما تجلس عائشة القرفصاء في الوحل على الضفة وتغسل ثياب العائلة. أما لتأمين الطبخ والشرب فإن عائشة المعذبة منذ زمان طويل تحمل المياه إلى القرية في جرة أو صفيحة كاز قديمة تضعها على رأسها بتوازن عجيب، ومع كل نقلةٍ من المياه تجلب حفنة جديدة من المرض لأفراد عائلتها كلهم.

إن حمودة، وعشرين مليوناً من الفلاحين أمثاله، يعرفون قدراً قليلاً جداً من الأمور الصحية بحيث إنهم يعتبرون من أكثر الشعوب مرضاً على وجه الأرض. إن الحقيقة التي لا تقبل الشك أن الفلاح يكون صحيحاً نسبياً إذا كان يشكو من مرضٍ واحد فحسب! فالأكثرية الساحقة تشكو على الأقل من مرض واحد من أمراض العيون، ومن واحد من الأمراض المعوية بصورة مزمنة. إن القواقع في القنوات تحمل جرثومة البلهارسيا، وهو مرض معويٌ يقال إنه ينقص الطاقة الإنتاجية المصرية إلى الثلث على الأقل. إن من خمسة وستين إلى خمسة وثمانين بالمئة من سكان مصر مصابون بالبلهارسيا، والأمل قليل بالخلاص من المرض طالما أن الفلاحين يشربون ويستحمون ويعملون في القنوات الملوثة بجراثيمه. أما الدوسنطاريا الأميبية في درجات متفاوتة فتكاد تكون عامة في القرى، في حين أن التراخوما والأوبتالميا مرضان شائعان منتشران. هذا فضلاً عن أن الفلاحين

المصريين الناقصي التغذية هم فريسة سهلة لأمراض التيفود، والملاريا، والسل، وليس من عجب إذن أن نرى نصف أطفالهم يموتون قبل أن يبلغوا السادسة من أعمارهم.

وإذا كان الفلاح المصري منهوك القوى ضعيفاً بفعل المرض، فإنه يقوم بعمله بصورة أوتوماتيكية رتيبة على النمط الذي وضعه أجداده من قبله. لقد كانت مشكلة الفلاح الكبرى، وما تزال منذ ستة آلاف عام، هي الحصول على المياه لحقوله العطشى، وما يزال عبر الأجيال يستخدم الطرق القديمة نفسها في عملية الري.

هناك بالنسبة إلى الفلاح العادي ثلاث طرق رئيسية لرفع المياه من الأقنية: الأولى هي الساقية، أو دولاب المياه، الذي تديره جاموسة معصوبة العينين، تدور، وتدور. والثانية هي اللولب الأرخميديسي، الذي يقال إن قدماء اليونان هم الذين جاءوا به إلى مصر، والذي يتألف من عمود خشبي طويل يرتكز أحد طرفيه في المستوى الأسفل من المياه، فإذا أدار رجلٌ العمود بيده ارتفعت المياه عبر اللولب من الداخل. أما الطريقة الثالثة والأكثر قدماً فتسمى الشادوف، وهي عبارة عن عمود طويل يثقل على أحد طرفيه بكرة من الطين ويدورُ على عصا مسننة، فإذا ما أدلى الفلاح بدلوٍ من طرف العمود ارتفعت المياه إلى المستوى الأعلى، وباستطاعته إذا ما عمل طول النهار بهذا الشادوف أن يروي ربع فدان من الأرض. ولقد وجدت رسوم لهذا الشادوف على جدران قبور يعود تاريخها إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة، وأنت إذا ما نظرت إلى الفلاح، عارياً إلا من عمامة ومئزر، يدير شادوفه على ضفة النهر في مصر العليا، تكونُ كمن ينظر إلى نقش على أحد قبور مصر في ماضيها البعيد.

والفلاح – شأن أسلافه – يعمل في مزرعة صغيرة كثيراً ما لا تتعدى فدانين أو ثلاثة أفدنة، وقد تبلغ خمسة أفدنة إذا كان سعيد الحظ بصورة خاصة. وواضحٌ أن الآلات الحديثة ليس لها مكانٌ في هذه القطع الصغيرة من الأرض، وهكذا فإن الفلاح ما يزال يسير وراء جاموسته أو جمله ويحرث الأرض بمحراثه الخشبي القديم نفسه. إننا نرى

لمحات من مصر التوراة عندما يرمي الفلاح بذوره في الهواء بعكس اتجاه الريح، فيتطاير القش ويبقى القمح، أو عندما تدور الجاموسة المعصوبة العينين وتدور دون ملل أو كلل كي تدرس الحب فوق البيدر.

هذه العادات القديمة كانت تكفي ساكن مصر في العصور القديمة، ولكنها لا تكاد تكفي الفلاح وتمكنه من مواجهة مشاكلات القرن العشرين. إن سكان مصر يتزايدون بمعدل خطر، في حين أن الإنتاج متخلف أشواط بعيدة. قم بزيارة واحدة لمزرعة مصرية، وستفهم حتماً مقدار تدني الإنتاج للشخص الواحد. ستجد فلاحاً واحداً يسحق أيامه عند الشادوف أو يتبع جاموسته حالما حول الساقية، بينما ترى فلاحين آخرين جالسين تحت شجرة قريبة. إن الفلاح يكوم أكياس قطنه على ظهر حماره ويقوم برحلات متمهلة إلى القرية حيث يبيعه فيها، في حين أن سيارة واحدة تستطيع أن تقوم بهذه المهمة في جزء من الوقت، وتجتمع زوجات الفلاحين وبناتهم لالتقاط البذور من القطن بأيديهن. ليس من العجيب أن سكان مصر يقدرون بأنهم زائدون بمعدل خمسين بالمائة، ذلك أن قليلاً من الطاقة الكهربائية، وبضع سيارات وتراكتورات وآلات دراسة يمكنها أن تنجز العمل نفسه بعشر سكان المزارع الحاليين.

وإذن فإن إنتاجية الفلاح المصري لم تتبدل، وأعداده آخذه في الازدياد بصورة مطردة، ولذلك فإننا نراه يغرق في بحر أعمق من الفقر على مر السنين، وكلما ازداد عدد أولاده قل ما يستطيع أن يأكله كل منهم. وإذا كان غارقاً في الفقر والجهل والمرض، فإن فلاح مصر قد انحدر إلى أدنى مستوى من المعيشة معروف في العالم المتمدن، ذلك أن إنتاج الفلاح المصري قد ذهب، على قتله، إلى أيدي الآخرين. إنه نادراً ما عمل في أرضه الخاصة، بل شارك، أو استأجر، أو عمل لقاء أجر يومي في أرض أصحاب الأملاك المصريين الفاحشي الثراء، والذين كان الفلاحون واقعين تحت رحمتهم. والفلاح لم يكن يتمتع إلا بقليل جداً من الحماية السياسية أو القانونية بحيث إنه مهما كانت الاتفاقات التي يعقدها مع مالك أرضه فإن مصيره كان واحداً... على شفر البقاء.

هؤلاء هم المستضعفون الذين وجدهم قائد الخليقة يفلحون أرض مصر الذهبية. هذا الفلاح، عبر القرون، قد تقبل نصيبه بصبر عجيب: "إنه ينحني فوق محراثه ويحدق في الأرض، وفراغ العصور على وجهه، وعلى ظهره عبء العالم".

هذا الإنسان البدائي مع محراثه كان يعمل كي يوفر حياة ذات رخاء وبحبوحة لا يمكن تصورها "لأولئك الذين يملكون القوة الكافية على أخذ أرضه"، سواء كان المحتلون الأقوياء يونانيين أو فرساً، أو أتراكاً أو بريطانيين.

في الوقت الذي ولد فيه جمال عبد الناصر، كانت مصر قد "أخذت" من قبل احتلال أجنبي مثلث.. كان الاحتلال الأول، والأكثر وضوحاً، الاحتلال البريطاني السياسي – العسكري. وكان الثاني احتلال جماعة صغيرة من الأجانب استقروا في مصر قروناً عديدة. وكان الاحتلال الثالث احتلال طبقة تحمل جوازات سفر مصرية ولكنها غريبة في أساسها، وثقافتها، وعواطفها، وكان رأسها الملك نفسه.

احتل البريطانيون مصراً في عام ١٨٨٢ عندما تحركت قواتهم إلى منطقة قناة السويس وسحقت الثورة المصرية في التل الكبير. ولقد أظهر الاحتلال البريطاني، الذي كان المفروض فيه أن يكون مؤقتاً، ومع ذلك استمر فعلاً أربعاً وسبعين سنة، أظهر هذا الاحتلال أن مصر كانت ما تزال ألعوبة وأن أهلها ما يزالون مستضعفين. لقد جاء البريطانيون، لا لأنهم كانوا مهتمين بمصر بوصفها مصر، بل ليحموا طريق تجارتهم إلى الهند. في بادئ الأمر كانت هذه الطريق طريقاً برية عبر سوريا والعراق إلى الخليج الفارسي، فللإبقاء على هذه الطريق مفتوحة آمنة، سند البريطانيون الأتراك حق الترانزيت للبريطانيين. ولم يكن للبريطانيين مصلحة في مصر طالما دام هذا الاتفاق، ولكن حدثاً وقع عندئذ وكان من شأنه أن انغمس البريطانيون في السياسة المصرية طيلة ثلاثة أرباع القرن.. كان ذلك الحدث حفر قناة السويس.

لقد عارض البريطانيون في بادئ الأمر حفر القناة لصالح الخط الحديدي عبر سوريا والعراق، ولكن ما إن حفرت القناة حتى اعتبرها البريطانيون وريدهم الودجي وطريقهم الحيوي إلى الهند الذي يجب أن يظل مفتوحاً بأي ثمن، وأصبحت الحكومة البريطانية

المساهم الأكبر في شركة القنال عندما اشترى دزرائيلي الأربعة والأربعين بالمئة من أسهم الشركة التي كان يملكها حاكم مصر المبذر الخديوي إسماعيل.

في هذا الوقت تقريباً تدهور الوضع الداخلي في مصر، وكانت مجموعة من رجال الجيش المصري بقيادة عرابي باشا تهدد بخلع الخديوي؛ فخشي البريطانيون أن يؤدي ذلك إلى اجتذاب دولة أوروبية أخرى إلى مصر، فتهدد بذلك حرية الحركة عبر القناة. وبسبيل المحافظة على القنال شعر البريطانيون بأن عليهم أن يحتلوا مصر ويعيدوا الهدوء إلى ربوعها، ولكي يعيدوا الهدوء إلى ربوعها كان عليهم أن يحتلوا السودان. وعند نهاية القرن كان البريطانيون يحكمون امبراطورية إفريقية تمتد من البحر الأبيض المتوسط إلى جبال أوغاندا، وعلى طول النيل كله، وكل ذلك لحماية قناة السويس.

ومن سنة ١٨٨٢ إلى ١٩١٨ لم يكن للاحتلال البريطاني أي أساس قانوني. كان أكبر موظف بريطاني في مصر قنصلاً عاماً حتى عام ١٩١٤، عندما أعلن البريطانيون أن مصر أصبحت محمية لهم. وفي عام ١٩٣٦ عقدت معاهدة تعلن مصراً بلداً مستقلاً، ولكن سواء في ظل الاحتلال غير الشرعي، أو الحماية، أو شبه الاستقلال، لم يكن هناك شك في من الذي كان يملك فعلاً السيادة على مصر. كان البريطانيون قادرين على إجبار حاكمين مصريين على التنازل – الخديوي إسماعيل والخديوي عباس الثاني – وحتى في عام ١٩٤٢ استطاع سفير بريطاني أن يصدر الأوامر إلى ملك مصر. عندما كانت جيوش رومل تهدد مصر اختلف الملك فاروق مع بريطانيا على من اختارته لمنصب رئيس الوزراء، فلم يكن من الدبابات البريطانية إلا أن أحاطت فوراً بقصر عابدين، ولم يكن من لورد كيلرن، سفير بريطانيا آنئذ، إلا أن اندفع إلى الداخل حاملاً معه إنذاراً إلى فاروق لم يستطع الملك الشاب إلا أن يقبله.

إن هذه الطريقة التي كان يتبعها هؤلاء الحكام البريطانيون كانت من نواح عبثاً أكثر إيلاماً من الرقابة السياسية أو العسكرية. لقد جلب الاحتلال البريطاني إلى مصر مجموعة من الموظفين البريطانيين المتفانين المتحرقين إلى أداء رسالة "المجيء بالنور" إلى أرض مصر.

كان لورد كرومر النموذج الأصلي لهؤلاء الموظفين البريطانيين المتفانين. كان إدارياً متديناً قديراً إلى درجة لا تقارن، وقد حكم مصر بوصفه قنصلاً بريطانياً عاماً من عام ١٨٨٣ حتى عام ١٩٠٧، وكان يعتبر، بصراحة، دولة الاحتلال البريطانية "مخلصة المجتمع المصري"... وفي وصف له لوضع الرجل الإنكليزي في مصر أوضح إنه "لا يضم مصراً، بل يفعل خيراً مماثلاً للبلاد كما لو أنه ضمها". لقد أصلح كرومر مالية مصر، ومحاكمها، ووسائلها الصحية، وحمى الفلاحين من أعمال السخرة والضرائب الباهظة، وقضى بلاشرعية الرق وأعاد النظام، ومع ذلك فإن اسم لورد كرومر في مصر اليوم مرادف للاضطهاد والاستعمار.

أيمكن أن يبلغ نكران الجميل بالمصريين إلى هذا الحد؟ إن قليلين من البريطانيين قد وجدوا الجواب على هذا السؤال، ولو أنهم على العموم أظهروا براعة مدهشة في اكتساب ذخائر واسعة من المعرفة بمصر. إن البريطانيين يتعلمون اللغة العربية الصعبة، وينقبون عن عادات البلاد، ويعاينون إمكانياتها المائية ومواردها المعدنية. إنهم يضعون قوانينها وينظمون ماليتها، ويتعرفون شخصياً إلى جميع المصريين من ذوي المقام العالي، ومع ذلك فإنهم يقصرون عن أن يفهموا المسألة الحيوية: لماذا كان المصريون يكرهون كرومر؟

ولعل الجواب بسيط بأكثر مما ينبغي. إنه يتلخص في أن كرومر في مصر اعتبر "أهلها مستضعفين"، أطفالاً تجب حمايتهم من أخطائهم هم بالذات، ولكن من دون أن تُعهد إليهم أية مسؤولية أو سلطة. وما من قدر من الحرمان الاقتصادي والفوضى الإدارية كان باستطاعته أن يسيء إلى المصريين إلى هذا الحد.

كان المفروض أن يكون الاحتلال البريطاني احتلالاً مؤقتاً، ولكن كان هناك نوع آخر من الاحتلال الأجنبي برهن على أنه أكثر إقامة واستقراراً. هذا الاحتلال كان يتألف من جاليات أجنبية سيطرت على حياة مصر الاقتصادية والثقافية قروناً عديدة. وبالرغم من أن هذه الجاليات كانت صغيرة العدد نسبياً، فإن تأثيرها على مصر كان من القوة بحيث

جعل البلاد تبدو وكأنها ملك لهم. فلو أنك سرت في القاهرة منذ بضع سنين لرأيت القليل مما يدلك على أنك في بلد عربي إسلامي، فلافتات الشوارع والإعلانات كانت باللغة الفرنسية أو اللغات الأوروبية الأخرى ولم تكن باللغة العربية – لغة البلاد – إلا نادراً، وعندما ترتاد السوق لشراء حاجياتك فإنك تتكلم الفرنسية أو الإيطالية أو الإنكليزية أو اليونانية، ولكنك لا تكاد تتكلم العربية إطلاقاً. كان طراز البناء أوروبياً، وكانت المتاجر تقفل يوم الأحد بدلاً من أن تقفل نهار الجمعة. وفي الجامعات كانت المحاضرات والكتب المدرسية باللغة الإنكليزية أو الفرنسية أو الألمانية، وكانت اللغة العربية لغة الخدم، والعوام، والمتعصبين.

هذه الجاليات الأجنبية استولت على حياة مصر المدنية عن طريق نظام من الامتيازات يدعى "الامتيازات الأجنبية" استغلوه إلى أقصى الحدود. في "الأيام الطيبة الماضية" كان بإمكانك فعلاً أن تتخلص من عقوبة القتل إذا كان لديك جواز أجنبي، من أية جنسية كانت، وكانت أسوأ الأمور الممكنة أن تكون من الرعايا المصريين. كانت الامتيازات تعني أن الأجانب لم يكونوا خاضعين للقوانين المصرية، وأنهم لم يكونوا يحاكمون إطلاقاً في محاكم مصرية، وأنهم نادراً ما كانوا يعرفون معنى لكلمة "الضرائب". وهذه الامتيازات الخاصة إنما منحها سلطان الامبراطورية العثمانية كوسيلة لاجتذاب رأس المال الأجنبي والخبراء الأجانب إلى بلاده. وفي ذلك الحين كان للامبراطورية العثمانية قوانين إسلامية صرف تشبه قوانين القرون الوسطى، إلى درجة أن قليلاً جداً من الأوروبيين كان يمكن أن يوافقوا على أن يضعوا أنفسهم تحت رحمة مثل هذه القوانين، ولذلك رضي السلطان بأن يعيش الأجانب في إمبراطوريته بموجب القوانين السائدة في بلادهم.

وفي مصر أدت الامتيازات إلى تشكيل نوعين من المحاكم غير المصرية: المحاكم القنصلية والمحاكم المختلطة. فأما المحاكم القنصلية فكانت تحاكم رعايا دولتها، في حين كانت المحاكم المختلطة تنظر في الدعاوى المدنية والتجارية بين المصريين والأوروبيين، أو

بين الأوروبيين من مختلف الجنسيات، وكان أغلبية القضاة من الأجانب. كذلك منعت الامتيازات تطبيق أية تشريعات جديدة على الأجانب من دون موافقة دول الامتيازات الأربع عشرة، وكان هذا يعني من الناحية العملية أن الأجانب في مصر كانوا يدفعون ضريبة جمركية بمعدل ثمانية بالمئة على جميع البضائع المستوردة، وضريبة ضئيلة على الويسكي، وإنهم خلاف ذلك لم يكونوا يدفعون أية ضريبة إطلاقاً.

هذه الحصانة التي كان الأجنبي يتمتع بها، وعدم انطباق القانون المصري عليه، مكنّاه من تهريب المخدرات تحت أنف خفراء الشواطئ المصريين، ومن بيع السم كدواء، وبالاختصار مكنّاه من تعاطي كل ما يمكن أن يخطر على البال من أنواع الأعمال الإجرامية في المشرق دون أن يتعرض لخطر الاعتقال. كان نظام المحاكم القنصلية نظاماً أخرق بحيث أن توقيف مجرم أجنبي كان مستحيلاً تقريباً، وهكذا فإن الجواز الأجنبي كان يضمن النجاح في مزاحمة الوطنيين في التجارة أو المهن. والحق أن كون الشخص غير مصري كان المفتاح الحقيقي للنجاح في مصر، وهذا ما يفسر قضاء عائلات كثيرة جداً قروناً متطاولة في مصر دون أن يُصبح أفرادها مواطنين مصريين. كان الأجانب هنا ينتظمون: إيطاليين لم يروا إيطاليا في حياتهم، وبريطانيين لم يكونوا يستطيعون التكلم بالإنجليزية، وفرنسيين ناطقين باليونانية، ويهوداً يحملون جوازات سفر من كل نوع، من بولونيا إلى أسبانيا.

كان الإيطاليون من بين الجماعات الأجنبية الأولى التي استقرت في مصر. وعندما بدأت جمهوريتا البندقية وجنوا تجارتهما الفعلية مع مصر الخاضعة للسلطان العثماني أصبحوا حماة المسيحية في البلاد. ولكي يعطوا رمزاً لهذه الحماية أصدروا جوازات سفر باسم البندقية وجنوا لأي مسيحي واقع تحت حمايتهم. وعندما تكونت الدولة الإيطالية الحديثة طالب سكان مصر ممن كانوا يحملون أوراق البندقية أو جنوا بالجنسية الإيطالية وحصلوا على جوازات سفر إيطالية، ومعظم هؤلاء لم يعرفوا من قبل وطناً غير مصر. كانت إيطاليا بلاداً بعيدة مجهولة، ومع ذلك فقد جعلتهم جوازات سفرهم في وقت واحد

أغنى جالية أجنبية في مصر والجالية الثانية من حيث العدد، وكان باستطاعة بنك إيطاليا في مصر أن يموِّل الغزو الإيطالي لليبيا في عام ١٩١٢. كانت اللغة الإيطالية لغة مصر المفضلة في القرن التاسع عشر، وحتى العائلة المالكة كانت تفضل الإيطالية على العربية. وقد تخلل حاملو الجوازات الإيطالية جميع مراتب الحياة الاقتصادية في مصر باستثناء أدناها، والكثير من الصناع وأصحاب الحرف في أسواق القاهرة يستعملون كلمات إيطالية تعلموها من الصُنّاع الإيطاليين الذين كانوا فيما مضى يسيطرون على تلك الحرف. وما يزال باستطاعتك أن تجد في القاهرة أعداداً من السائقين والحلاقين والميكانيكيين الإيطاليين، وفي "الأيام السعيدة الماضية" كان هناك أيضاً أطباء وأساتذة ورسامون وموسيقيون إيطاليون.

وكانت الجالية اليونانية أكبر حتى من الجالية الإيطالية، وكان أفرادها كلهم تقريباً تجاراً في المرتبة العليا وأصحاب حوانيت في المرتبة الدنيا. وباستطاعتك حتى الآن أن تجد بقالين يونانيين في أقصى القرى المصرية، ولكن مهما كانت القرية من الصغر والحانوت من الضعة، فإن الامتيازات كانت في صالح اليوناني ضد مزاحمه من المصريين. كان هناك في مصر آلاف من البريطانيين لم يحلموا قط برؤية الجزر البريطانية، ولكنهم حصلوا على جوازات سفر بريطانية – وعلى مفتاح النجاح – لأنهم عاشوا في يوم من الأيام في مالطة أو قبرص أو فلسطين. كذلك كان هناك عددٌ لا يحصى من المشرقيين حصلوا على جوازات سفر فرنسية لأن أجدادهم كانوا قد أمضوا جيلاً واحداً في كورسيكا أو تونس. والحق أن نوع الجواز الذي تحمله لم يكن يهمّ، طالما أنه لم يكن جوازاً مصرياً.

ولم تكن الامتيازات هي الجاذب الوحيد للأجانب في مصر، حيث جعل الطقس البديع المشرق، وانخفاض كلفة المعيشة، ووفرة الطعام والشراب، من وادي النيل جنة وارفة الظلال. كان يمكن تدريب المصريين الفقراء على أن يكونوا خداماً صالحين بأجور لا تكاد تكفي لإبعاد شبح الجوع. صحيح أن لورد كرومر ألغى الرق، ولكن حالة الخدام المصريين في حريتهم التي عثروا عليها من جديد لم تكن أفضل من العبودية، وكانت

أسوأ منها في بعض الأحايين. في هذه الفترة في مصر كان للأجنبي من الطبقة الوسطى ثلاثة خدام أو أربعة في منزله: طباخ ومساعد طباخ وسفرجي ينظف المنزل ويخدم على المائدة، وغسالة. وكان من الطبيعي أن يبدأ الخادم عمله في الساعة السادسة صباحاً، فيعد القهوة أو الشاي ليحمله إلى فراش سيده، وكان عمله ينتهي قرب منتصف الليل، بعد أن تكون الأسرة قد فرغت من تناول عشائها الطويل، المتعدد الألوان.

وكان النوبيون أفضل الخدم، وهم رجال ذوو بشرة سوداء يعيش معظمهم في أراض تمتد على النيل حيث يصل السهل الصحراوي إلى طرف الماء تماماً، مما لا يترك مساحة للزراعة إلا عند انخفاض النيل. إن قرى بأسرها في تلك المنطقة لا يعيش فيها إلا النساء والأطفال. أما الرجال فقد قطعوا قرابة ألف ميل إلى القاهرة والإسكندرية ليعملوا خداماً لقاء أجر ضئيل لا يتعدى عشرة دولارات في الشهر يرسلون من أصله مبلغاً يكفي لمعيشة عائلاتهم.

وكانت وفرة الخدام النوبيين مساعداً للأجانب في مصر على أن يحيوا حياةً فيها الكثير من المتعة واللهو. كانوا يقضون أوقات فراغهم في النوادي الرياضية، وميادين سباق الخيل، والكباريهات والمقاهي. أولئك الناس الذين لو كانوا في أمريكا أو أوروبا لعاشوا عيشة الطبقة الوسطى أو الدنيا، كانوا يعيشون في مصر في مستوى من اليسر والأناقة لم يكن يستطيع أن يعيش فيه من الغرب إلا أغنى الأغنياء. مثل هؤلاء الأجانب لم يكونوا يحترمون المصريين ولا الثقافة المصرية، وقليل منهم تعلم اللغة العربية. أما النساء فقد تعلمن منها ما يكفيهن لتوبيخ أحد الخدم، وأما الرجال فلكي يشتموا سائق سيارة، ولكن كان من النادر أن تجد مقيماً أجنبياً يتعلم قراءة اللغة العربية الصعبة أو التكلم بها إلى درجة التحدث على مستوى مقبول. كان مجتمعهم يعتبر اللغة العربية لساناً خاماً مبتذلاً لا يصلح إلا كلغة شارع وبين طبقة الخدم.

كان الأجنبي في مصر في صف واحد اجتماعياً مع نوع ثالث من محتلي مصر، ذلك النوع الذي كان يحمل فعلاً الجنسية المصرية ولكنه كان يعتبر غازياً أجنبياً في أعين جماهير

الشعب المصري. إن الكثيرين من هؤلاء كانوا في الأساس من أصل مختلف عن أصل المصريين، في حين أن آخرين منهم ظهروا بمظهر الأجنبي الكاذب يربط مصائرهم، ومصالحهم، وولاءهم بالأجانب. هذه الطبقة بدأت بالتكون في عام ١٨١١ عندما استولى ضابط ألباني في مصر يدعى محمد علي الكبير على الحكم وأسس آخر أسرة مالكة مصرية. وبالرغم من أنه ظل اسمياً خاضعاً للسلطان العثماني فقد كان حاكم مصر دون منازع، وكان يدعو نفسه الوالي، أو الحاكم. ولكن كلاً من خلفه كان يعرف الخديو، أو نائب الملك. وفي عام ١٩١٤، عندما فُصلت مصر نهائياً عن الأتراك، دعي الحاكم بالسلطان، واتخذ الثلاثة الأخيرون لقب الملك.

وكما فعل عمرو، والرومانيون، والإسكندر الكبير من قبلهما، كذلك اعتبر محمد على الكبير الشعب المصري شعباً مستضعفاً، ودمياً يلهو بها. لقد أعد بسرعة المسرح لإيجاد نظام مصر "الإقطاعي" الحديث، وذلك بمصادرة أفضل الأراضي وإعطائها لأقربائه وضباطه وسائر المرضى عنهم، مما أدى إلى تركيز شديد في ملكية الأراضي، إذ كان الأمراء والمحظيون الملكيون يملكون إقطاعات تبلغ مساحتها حتى الخمسة عشر أو العشرين ألف فدان من أخصب الأراضي في العالم. كذلك زادت هذه الطبقة من أصحاب الأراضي غنى فوق غنى بتطوير نظام جديد واسع للري يشتمل على سلسلة من السدود، وأخيراً على سد أسوان. وبدلاً من أن يحصلوا على موسمين أو ثلاثة مواسم سنوياً من أرض مصر الذهبية، وهذا الازدهار رفع من أثمان الأراضي إلى الذروة وأحدث موجة من المضاربات، وأخذت الإقطاعات الكبيرة تزداد كبراً كلما استغل الإقطاعيون أرباحهم الضخمة في شراء أراض جديدة.

ولكن طبقة من المصريين انضمت إلى طبقة كبار أصحاب الأراضي. كان أفراد هذه الطبقة في معظمهم من الأقباط في الإقليم المحيط بأسيوط في مصر العليا، وهؤلاء الأقباط يعيدون أصلهم إلى عصور الفراعنة رأساً، ولذلك ادعوا بأنهم كانوا المصريين الأقحاح. ولكن هذا الادعاء إنما لطخه ما اشتهر به بعضهم من التعاون مع الغزاة ضد

بني قومهم. فمنذ أيام العرب الأولى عمل الأقباط بصورة متواصلة في جمع الضرائب لحكام مصر، وهو منصب كان من مهامه جلد الفلاحين المتخلفين عن أداء آخر قرش عليهم وتعذيبهم. وفي أيام محمد علي تقدم جماعة من أقباط أسيوط فأصبحوا مترجمين وسكرتارية للقنصليات التي كانت دول كثيرة قد احتفظت بها في أسيوط. وعن طريق هذه الاتصالات استطاع بعض الأقباط الحصول على امتيازات قنصلية أو دبلوماسية، وسريعاً ما وصلوا إلى مناصب شبيهة بالمناصب التي كان يحتلها الجوازات الأجنبية. وعن طريق استغلال هذه الامتيازات حملوا ثروات طائلة اشتروا بها فوراً إقطاعات من الأراضي، ولم يطل فجر القرن العشرين حتى كان من أكبر أصحاب الأراضي في مصر مَن أقباط أسيوط.

ولقد خلق عهد محمد علي في مصر طبقة اعتادت حياة الترف والرخاء نادراً ما وُجدت في أي جزء آخر من العالم. ركبت مرةً حماراً في محطة من محطات السكك الحديدية في مصر العليا إلى عزبة صديق ثري لي، ومررت بقرية مليئة بالتراب والغبار وجراثيم الأمراض وغابةٍ من الأكواخ المبنية بالطين حيث يعيش الفلاحون، ولا تبعد عن الحديقة الملأى بالزهور والرياحين المحيطة بدار صاحب العزبة سوى مئتي ياردة. واجتزت ممر الحديقة تحت أقواس مغطاة بأوراق الكرمة، ثم دخلت إلى البيت حيث غرقت في كرسي وثير، وأرحت قدمي على سجادة عجمية لا تقدر بمال، وأجلت ناظري في رسوم زيتية فرنسية نادرة معلقة على الجدران. وأمر لي مضيفي بزجاجة من البيرة المستوردة من ألمانيا، باردة كالثلج من ثلاجته الأمريكية.

كان هناك أشياء قليلة يشتهيها هؤلاء الناس. كانت أرضهم تنتج قدراً وافراً من الأطعمة اللذيذة: الديوك الرومية والأوز والبط والبطيخ والرمان والعنب من كل جنس ولون والمانجو. أما الخمور الأوروبية الممتازة، والكافيار وسائر المآكل والمشروبات اللذيذة غير المصرية فقد كان من السهل استيرادها من أوروبا. وإلى جانب وفرة الطعام والشراب كانت حياة العزبة تساعد على ركوب الخيل والصيد والقيام بالنزهات، حتى

إذا ما أصبحت الحياة في الريف مملة كانت هناك الفيلا أو الشقة تنتظر في القاهرة أو الإسكندرية، وإذا ما استعر لهيب الصيف في شهر آيار (مايو) أو حزيران (يونيو) كانت جبال سويسرا أو موائد الروليت في مونت كارلو مستعدة لاستقبال أغنياء مصر الكسالى المترفين.

وفي قمة هذا الهرم المحب للترف كان هناك الحاكم نفسه – سواء كان الخديوي، أو السلطان، أو الملك – وكان الحاكمان الأولان من حكام الأسرة – أعنى محمد علي وابنه إبراهيم – جنديين قاسيين لم يعرفا إلا قليلاً من نعيم الحياة، غير أنه جاء بعد إبراهيم سلسلة من الطغاة المحبين للذة لم يكونوا يتورعون عن إنفاق مبالغ خيالية إرضاء شهوة أو نزوة عابرة. فالخديوي سعيد، رابع هؤلاء الحكام، سمع مرة ملاحظة فيها تعريض بشجاعته الشخصية، فلكى يعيد اعتباره أمر بنشر البارود على عمق قدم واحدة على طول ممر قصره، ثم أشعل غليونه وأمر حاشيته بأن تفعل الشيء نفسه ثم انطلق يسير على الممر وهو ينفث دُخان غليونه بحبور.

ولكن التبذير إنما بلغ ذروته في أيام الخديوي إسماعيل الذي حكم مصر من عام ١٨٦٣ حتى عام ١٨٧٩. هذا الحاكم المستبد المسرف أمر ببناء دار جديدة للأوبرا وكلف "فردى" بكتابة "عايدة" خصيصاً للاحتفاء بالامبراطورة الفرنسية أوجيني، ضيفة إسماعيل عند افتتاح قناة السويس. ولقد بنى الطريق من القاهرة إلى الأهرام بحيث تستطيع الامبراطورة أن تزور هذه الآثار القديمة براحة، وعندما اقتيدت الامبراطورة إلى جناحها في أحد القصور أبدت ملاحظة عابرة قالت فيها إن الأشجار في الحديقة كانت تعيق المنظر، وفي صباح اليوم التالي لم تبق شجرة واحدة، ذلك أن الخديوي أمر بها فقُطعت جميعها.

من إبراهيم إلى فاروق كانت أسرة محمد علي أوروبية، لا شرقية. هؤلاء الحكام لم يكونوا أسياداً شرقيين كالباب العالي في القسطنطينية أو شاهات فارس القدماء، ولم

يكونوا كذلك ملوكاً عرباً كالسعوديين والهاشميين، بل احتلوا أماكنهم بين "رؤوس أوروبا المتوجة". كان ملوك مصر يحسنون التكلم بالفرنسية، والإيطالية، والتركية، ولكنهم كانوا لا يعرفون العربية إلا قليلاً، العربية التي هي لغة البلاد التي كانوا يحكمونها. حتى في أيام فاروق كانت أميرات القصر يستأجرن معلمين يعلمونهن مبادئ اللغة العربية، وهي لغة كانت بالنسبة إليهن أجنبية كاللغة الصينية سواء بسواء. وكانت طبقة الملاك المصريين، شأن ملوكها، تتشبه بالأوروبيين وتحتقر كل شيء عربي أو مصري، وأصبحت اللغة الفرنسية لغة الصالونات، وكانت السيدات يفتخرن بجهلهن باللغة العربية. هؤلاء الناس كانوا يرسلون أولادهم إلى أحسن الجامعات الفرنسية أو الأمريكية حيث أصبحوا عالمين بموليير وراسين وفولتير، معجبين بعظمة لويس الرابع عشر، ولكنهم لم يسمعوا قط بصلاح الدين أو بابن سينا. لقد رأوا فرساي، و"الفوروم" الروماني، وتمثال الحرية، ولكنهم لم يحلموا قط بأن يشاهدوا "مساجد القاهرة القديمة"، والآثار المعمارية العظيمة التي خلفها ابن طولون والسلطان حسن.

وبالرغم من كل ذلك فلم يكن لدى هذه الطبقة المصرية من الملاك أيّ شعور بالإحساس مع الإنسان المنتصب وراء المحراث، الذي جعل كل هذا الترف ممكناً لهم، وأعنى به الفلاح المصري. ومهما كان قدر الازدهار الذي حصلت عليه مصر، فإنه لم يكن يعرف طريقه إلى الفلاح الذي لم يتبدل مستوى معيشته قط. كانت فلسفة صاحب الأرض تقوم على أن يعصر الفلاح ويعصره مرة أخرى، إلى أن يحصل منه على آخر نقطة من الربح. وعند حلول الوقت الذي يجب أن تدفع فيه الضرائب كان صاحب الأرض ينقل العبء إلى الفلاح الذي كان يعذبه جابي الضرائب أو يجلده كي يعتصر منه ما يسدد به الضريبة. ولقد أخذ الفلاح يتقبل مثل هذا الجلد كأمر لا مفر منه، وكان يتظاهر دائماً في بداية الأمر بأنه لم يكن يملك مالاً نقدياً، لأنه كان يعرف أنه سيعذب على أية حال، وأنه سيتهم بأنه يملك المزيد. صحيح أن الاحتلال البريطاني قضى على هذا العسف وإساءة استعمال القانون، ولكن البلاد مع ذلك كانت ملكاً لأصحاب الأراضي. وفي أيام

فاروق الأخيرة أذكر السرعة التي بها هتف برلمان أكثريته من أصحاب الأراضي بسقوط نائب تقدمى اقترح تخفيض إيجارات الأراضى.

* * *

في وسط أملاك أسيوط الكبيرة قرية متواضعة تدعى "بني مر"، وهو اسم لقبيلة عربية تخلت عن حياتها البدوية منذ قرون كي تستقر هناك. وقد استطاع رجل من القرية أن يرفع نفسه وعائلته قليلاً فوق مستوى الجوع السائد بين الفلاحين، وذلك بحصوله على وظيفة في مكتب البريد الحكومي. كان هو وعائلته مصريين أقحاحاً ينطقون باللغة العربية، ويعتبرون (أجلافاً) في أعين الطبقة العليا المتنعمة. كان هذا الرجل هو والد جمال عبد الناصر.

في مصر كلمة معبرة تصف جيداً مركز عائلة جمال عبد الناصر الاجتماعي في منطقة أسيوط.. كانوا "بلدي". هذه الكلمة يمكن أن تترجم حرفياً بـ "وطني"، أو "محلي"، ولكنها في مصر تحمل أسوأ مضامين كلمة "ريفي". ويمكن للمرء أن يأخذ فكرة عن أنواع الذل التي يحملها أفراد هذه العائلة من أصحاب الأملاك في أسيوط عندما يُسأل أعضاء تلك العائلات الكبيرة ما إذا كانوا يعرفون آل عبد الناصر في "بني مر"، ويكون الجواب الذي لابد منه:

"آه، كنا نعرفهم جميعاً، بالطبع، ولكننا لم نكن لنتكلم إطلاقاً مع أمثال هؤلاء الناس".

ولقد ظهر انعكاس هذا الذل بعد ذلك بسنين عديدة، عندما كان أولُ إصلاح قام به عبد الناصر قانون توزيع الأراضي الذي يجعل الحد الأقصى لملكية الأرض مئتي فدان، وكان من بين الإقطاعات الأولى التي وجب تقسيمها الأملاك الكبيرة حول أسيوط وبني مر.

ولد جمال عبد الناصر في الإسكندرية في شهر كانون الثاني من عام ١٩١٨، وكان والده قد نُقل إليها، ولكن "بلدة" عبد الناصر الحقيقية هي "بني مر"، وليست الإسكندرية. لم تقطع العائلة، حيثما انتقلت، صلاتها الحميمة ببني مر، وكان يبدو عليها بوضوح أنها من "الصعايدة"، أي من أقاليم مصر العليا. ولقد بقي جد جمال عبد الناصر وعمه هناك، وفي طفولته أنفق معظم أيامه قبل ذهابه إلى المدرسة في تلك القرية. وبعد أن دخل المدرسة كان جمال يمضي أيام عطلته الصيفية وأعياده في قرية آبائه، وكانت معرفته وصلته بها وثيقة جداً بحيث أن مصلحة الاستعلامات في الحكومة المصرية لا تزال حتى الآن تذكر "بني مر" بوصفها مسقط رأس الرئيس.

وبدأت أفكار عبد الناصر تتبلور وهو بعد تلميذ في الإسكندرية، ولكنه كان قد عانى ضروباً من الذل في بني مر نفسها، مما ذكره بحقيقة مثيرة إلى حد الجنون، وهي أن عائلته كانت محتقرة لا لشيء إلا أنها كانت مصرية، ولأنها كانت تتكلم العربية بدلاً من الفرنسية، ولأنها كانت "بلدي".

في "بني مر" وضع الأساس العاطفي الانفعالي لذلك الدافع النفساني الهائل في عبد الناصر، الدافع إلى أن يجعل نفسه وبني قومه فخورين بمصريتهم، لا خجلين منها. في تلك الأيام كان أصغر من أن يفكر أيما تفكير سياسي، ولكن ما من شك في أن عبد الناصر إنما بدأ بحثه الطويل عن الكرامة، والرفعة، والعزة، في "بني مر" نفسها.

(٢)

الثائرُ الفَتِى



كان خمسمئة طالب يحملون الأعلام والرايات وينادون بالموت للاستعمار البريطاني. وكانوا يخترقون شوارع الإسكندرية، حتى إذا وصلوا إلى أحد المنعطفات فرقهم رجال البوليس المعتمرون بخوذهم الفولاذية في قسوة وعنف. وتراجع الطلاب، ثم أعادوا تجمعهم، وهجموا. لقد تغلبوا على رجال الشرطة بكثرة العدد ليس غير، وما هي إلا لحظة حتى أصبحوا سادة الشارع.

واندفع المتظاهرون المستثارون اندفاعاً مجنوناً. لقد حطموا جميع واجهات المحال التجارية التي وجدوها في طريقهم، وهاجموا حافلة من حافلات القطار الكهربائي، فأخرجوا منها السائق وقاطع التذاكر والركاب، وقلبوها رأساً على عقب، وأضرموا فيها النار.

وسرعان ما أقلبت شاحنتان مليئتان بإمدادات من رجال الشرطة. ولم يكد الطلاب يرفعون أعينهم عن الحافلة المحترقة حتى شاهدوا موجة عارمة من رجال البوليس تجتاحهم. عندئذ أخذ أولئك الفتية يرشقون رجال الشرطة بالحجارة، ثم تفرقوا في ذعر، ولاذوا بالفرار. ورفع أحد رجال الشرطة هرواته وضرب بها فتى قوى الساعدين، جعد الشعر. وهنا تقدم شرطيان ورفعاه عن أرض الشارع في ضراوة، فيما انهال ثالثٌ عليه بالضرب كرة أخرى. وتدفق الدم من يافوخ جمال عبد الناصر، واقتيد إلى السجن.

وبعد ليلتين قضاهما جمال نائماً على الأرض في أحد سجون الإسكندرية، أُطلِق سراحه. كانت الضمادات التي يحملها على رأسه وشاح شرف له بين زملائه في المدرسة، ولا يزال عبد الناصر إلى اليوم فخوراً بآثار الجراح في رأسه، هذه الآثار التي كسبها في ذلك الاصطدام الأول مع السلطة. لقد كانت جراح الرأس تلك جزءاً من تربية عبد الناصر السياسية التي تلقاها بوصفه طالباً في إحدى مدارس الحكومة في

الإسكندرية. ومنذ اللحظة التي دخل فيها عبد الناصر المدرسة في الإسكندرية كان قد شرع في المشاركة في الحركات السياسية واحدةً بعد الأخرى، وليس له من هدف غير تحرير مصر من السيطرة الأجنبية.

إن الجو السائد في عهد دراسته يُظهر أن ثورة الشعب المصري بدأت قبل عبد الناصر. ولكن هذه الثورة كانت غير متماسكة وغير منظمة عندما برز عبد الناصر على المسرح الطلابي. ومع ذلك فقد كانت الحركة الرامية إلى إعادة مصر للمصريين قد بدأت. كان "دمى" وادي النيل – الذين اعتُبروا في وقت من الأوقات أكثر شعوب العالم انقياداً – قد أصبحوا أصعب شعوب العالم انقياداً تقريباً.

وكان اندلاع الثورة الأولى عام ١٨٨١ عندما ثارت جماعة من الضباط المصريين الوطنيين، يقودهم عرابي باشا، في وجه الخديوي توفيق. والواقع إن أهداف ثورة عرابي كانت غامضة، ولكن الثورة كانت في جوهرها عبارة عن انتفاضة العناصر المصرية الصميمة على الممثلين الأجانب وعلى رأسهم الخديوي. وبدلاً من أن تؤدى ثورة عرابي إلى إزالة السيطرة الأجنبية، أدت إلى احتلال بريطانيا لمصر احتلالاً عسكرياً. لقد زحف الجيش البريطاني إلى منطقة قناة السويس، وهزم القوى الثائرة في معركة التل الكبير، واعتقل عرابي ونفاه من مصر. ومنذ ذلك الحين كان على الضباط الوطنيين في الجيش أن ينتظروا حتى عام ١٩٥٢ لكي يخلعوا عن العرش تلك الأسرة المالكة التي حاربها عرابي.

وأدخل المحتلون البريطانيون المؤسسات الديمقراطية إلى مصر، فكان في ذلك ما شجع المصريين، لأول مرة، على التعبير عن أنفسهم سياسياً. وبعد الحرب العالمية الأولى طرأ الضعف على الحزب الوطني – حزب مصطفى كامل – وبرزت حركة الوفد الشعبية تقودها شخصية سعد زغلول البارعة، المنبثقة من بين الفلاحين أنفسهم.

وعندما طالب سعد زغلول بعد الحرب العالمية الأولى بأن تنال مصر استقلالها فوراً، سارع البريطانيون إلى اعتقاله ونفيه مع عدد من زعماء الوفد. وكانت هذه الاعتقالات

سبباً في نشوب الثورة على طول وادي النيل وعرضه. وفجأة أصبح المصريون الدمثو الأخلاق الرقيقو الحاشية مقاتلين مهووسين قساة القلوب يناجزون حكامهم البريطانيين ويقفون في وجههم وقفة الند للند. وعمت الفوضى دلتا النيل كلها. وقامت القلاقل وجرت الدماء في طول البلاد وعرضها، وفتح رجال الجيش والشرطة النار على أبناء الشعب، لا لصيانة الممتلكات العامة فحسب، بل حماية لأرواحهم هم أيضاً. وفي إحدى مدن مصر العليا رؤيت فلاحة ثائرة وهي تحمل قطعاً من اللحم الذي يقطر منه الدم وتصيح في السوق، بقولها: "لحم بريطاني للبيع!".

وأخيراً خمدت نار الثورة. ولكن البريطانيين اضطروا، تحت هذا الضغط العنيف، إلى السماح لسعد زغلول بالعودة إلى مصر. وبعد ذلك مُنحت مصر استقلالاً رسمياً، ولكن الجيش البريطاني ظل مرابطاً في أراضيها. والواقع أنه لم يطرأ على الوضع السياسي في البلاد غير تغير طفيف. ولكن النتيجة الهامة لثورة ١٩١٩ كانت أن المصريين ذاقوا طعم الدم، فلم ينسوا طعمه هذا بعد ذلك أبداً.

وبعد ثورة عام ١٩١٩ عرفت مصر كفاحاً أقل عنفاً، ولكنه أطول أمداً، من أجل إجلاء الجيوش البريطانية عن أراضيها. ويوم برز عبد الناصر على المسرح السياسي كان نضال مصر الوطني قد تبلور حول هدفين اثنين: "الجلاء التام ووحدة وادي النيل". ومعنى ذلك أن تخرج القوات البريطانية من مصر، ومن منطقة قناة السويس أيضاً، وأن يتحد السودان مع مصر في ظل الراية المصرية. وإنما كان هذا الهدف الثنائي قد أصبح شعار الوطنيين المصريين، لأنهم كانوا محتاجين إلى شيء راهن محدد يناضلون من أجله. والحق إن الثورة المصرية كانت لها أهداف أوسع من هذه... كانت قد استمرت على نحو غير منقطع من عرابي إلى عبد الناصر، ومع ذلك فإن عرابي لم يقل شيئاً عن جلاء البريطانيين عن الأراضي المصرية أو عن وحدة وادي النيل.

وفي الأيام الأولى للصراع الذي نشب بعد الحرب كانت "الوفدية" حركة وطنية غامرة، وكان الوفد هو عملياً الحزب السياسي الوحيد في البلاد. ومع الأيام نشأ عن الوفد

"الدويلاج" التي تجعلها ناطقة بالعربية. ولقد حطموا واجهات المحال التجارية التي كُتبت لافتاتها بالفرنسية أو الإنكليزية. وهددوا بنسف مكتب مجلة "المختار" (وهى النسخة العربية من ريدرز دايجست) إذا لم تستعض إدارتها عن رئيس تحريرها غير المسلم برئيس تحرير مسلم، وإذا لم تدعُ تلك المجلة إلى الإسلام وتعمل على نشره. وبينما كان الإخوان المسلمون يعبرون عن رغبتهم في تحقيق أهدافهم بوسائل سلمية راحوا يجمعون من ناحية ثانية أكداساً هائلة من القنابل، والرشاشات، والبنادق، والمدى..

لقد كان أولئك الإخوان ذوو اللحى يمثلون الفئة الرجعية المتعصبة من المصريين، ولكنهم كثيراً ما كانوا يجدون أنفسهم على تحالف مع بعض الأحزاب العصرية، أعنى حزب "مصر الفتاة". ولما كانت القوى الفاشستية تمثل أعظم تهديد للديمقراطيات الغربية فقد اتبع حزب "مصر الفتاة" سياسة فاشستية. كان أعضاؤه يرتدون قمصاناً خضراً، يقال إنها أرسلت إلى الحزب هدية من مسوليني، وكانوا يقومون باستعراضات عسكرية على الطريقة الفاشستية. حتى إذا هزمت دول المحور وأصبح الاتحاد السوفيتي هو العدو الأكبر للديمقراطيات الغربية، انتقل حزب " مصر الفتاة" من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار.

وتعرفتُ شخصياً إلى أصحاب القمصان الخضر عام ١٩٤٧، عن طريق واحد من تلامذتي في الجامعة الأميركية بالقاهرة. لقد كان فؤاد - كما سأدعوه - لا يبالي بدروسه، ولكنه كان ينفعل أعظم الانفعال في المناقشات السياسية. كان يعتمر بالطربوش في ساعات الدرس كلها. وكان قد فقد اثنتين من أسنانه الأمامية، وذلك في معركة خاضها ضد رجال البوليس. كان اسم "فؤاد" موضوعاً على لائحة تلك الأسماء التي كان رجال الشرطة يسارعون إلى إلقاء القبض على أصحابها كتدبير احتياطي كلما تعرضت البلاد لاضطراب سياسي، وهكذا قضى فؤاد أيامه في السجن بدلاً من أن يقضيها في الجامعة.

كان فؤاد طالباً في صف الفرشمن بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، عام ١٩٤٦، ولكنه كان قد قضى ثلاث سنوات كطالب في الجامعة المصرية، ولقد لقيته بعد ذلك بعدة

سنوات فوجدته لا يزال "يتابع دراسته". كان واحداً من أولئك الطلاب الذين لا يطأون أرض المعاهد التعليمية إلا للدعوة إلى أيديولوجية حزبهم والترويج لها. وما كان يحب شيئاً أكثر من حبه للوقوف على منبر وإلقاء خطبة في زملائه الطلبة. وفي عام ١٩٥١ أعلن فؤاد الصيام مهدداً بأنه لن يذوق طعاماً أو شراباً إلا بعد أن تجلى القوات البريطانية عن مصر. وفي عام ١٩٥٣ انضم إلى جماعة من الخائضين حرب العصابات ضد القوات البريطانية في منطقة قناة السويس، وخلق حادثة دولية باختطافه جندياً بريطانياً برتبة عريف (كابورال).

وذات يوم من أيام عام ١٩٤٧، بعد انتهاء الدرس، جاءني فؤاد وسألني إن كنت أحب أن أجتمع بزعيم حزبه أحمد حسين. كان حزب "مصر الفتاة" حزباً غير قانوني خلال الحرب بسبب تعاليمه الفاشستية، أما في عام ١٩٤٧ فكان قد أجيز له أن يستأنف نشاطه. وفي ذلك اليوم قال لي فؤاد إن المجلس التنفيذي في الحزب سوف يعقد أول اجتماعاته منذ الحرب. وعُقد الاجتماع في دارة مكسوة بالجص الأصفر في أحد أحياء القاهرة العتيقة. وكان يطوّف حول الحديقة والأروقة شباب يعتمرون بالطرابيش ولكن ثيابهم أوروبية خالصة. كانت أمارات الصرامة تبدو على وجوههم جميعاً، ولكنهم صاحوا صيحة رجل واحد عندما برز زعيمهم أحمد حسين. وكان أحمد حسين شاباً وسيم الطلعة مربع الوجه، ذا مقدرة خطابية بارزة، وكان قد أقام عمله السياسي منذ البدء على مقاومة السيطرة الأجنبية على مصر، سواء في الحقل الثقافي أو في الحقل الاقتصادي، أو في الحقل السياسي.

وفي شبابه ثارت ثائرة أحمد حسين حين أدرك أن المصريين يستوردون طرابيشهم من أوروبا، فأعلن ضرورة استقلال مصر في موضوع الطرابيش، ومن ذلك راح يطلب قرشاً واحداً من كل شخص يجتمع به، ومن هذه القروش أنشأ أول مصنع مصري للطرابيش. وهكذا اتخذت البلاد سبيلها نحو الاستقلال في مسألة لباس الرأس.

وعندما ارتقى أحمد حسين المنبر جلست في غرفة محاذية، ورحت ارتشف القهوة التركية مع واحد من زعماء الحزب أخذ يشرح لي عقيدة "مصر الفتاة". لقد قال لي إن حزبه، باختصار، ينادي بالسياسة التالية: في حقل السياسة الخارجية ينادي باستقلال مصر، وفي حقل السياسة الداخلية ينادي برفع مستوى معيشة السكان. وإلى هذا كان حزب "مصر الفتاة" يناضل، طبعاً، من أجل تحقيق الجلاء ووحدة وادي النيل. وبينما كان محدثي يشرح لي تفاصيل هذه العقيدة راح يشير إلى بعض الأفراد اللامعين من شباب الحزب:

"انظر إلى هذا الفتى الواقف هناك قرب النافذة. إنه فتى طيب شجاع. لقد ألقى قنبلة يدوية على مبنى جمعية الشبان المسيحيين وجرح ثلاثة جنود بريطانيين".

"وذاك الذي تراه هناك. إنه فتى طيب أيضاً. لقد غادر السجن منذ أيام بعد أن دخله بسبب إلقائه قنبلة على ناد للضباط البريطانيين".

"ولكنا أعظم ما نكون فخراً بهذا الفتى الواقف قرب الباب. لقد خرج منذ فترة قصيرة جداً من السجن بعد أن قضى بين جدرانه عشر سنوات. فإذا سألتني عن سبب سجنه قلت لك إنه أطلق النار على رئيس الوزراء".

وتفصيل ذلك أن رئيس الوزراء أحمد ماهر باشا وقف في أوائل عام ١٩٤٥ أمام البرلمان المصري، وتلا إعلان مصر الحرب على ألمانيا النازية. حتى إذا غادر البرلمان أطلق عليه النار شاب مصري فأرداه قتيلاً. لقد كان هؤلاء الفتية قد أقسموا ليقتلن أي رئيس للوزارة يعلن الحرب على ألمانيا، ولقد وفوا بعهدهم هذا.

وبعد سنة وبضعة أشهر كان أمين عثمان باشا – وهو وزير مالية سابق، معروف بميوله البريطانية – يصعد إلى أحد الألواج في مسرح من مسارح القاهرة، فإذا بصوت يناديه: "أمين، أمين، اسمع!" فالتفت أمين عثمان نحو الصوت، فانصب عليه وابل من رصاص. كان القاتل واحداً من شباب "مصر الفتاة" أيضاً.

هكذا كان الشباب في جيل عبد الناصر. لقد كان أولئك الفتية لا يحبون شيئاً أكثر من حبهم للمظاهرات السياسية، والاشتباك مع رجال الشرطة. والواقع إن أشهر الصيف تكون في مصر عادة أشهراً هادئة من الناحية السياسية، لا لشيء إلا لأن الطلاب يكونون خلالها في عطلة.

وأنا لا أزال أذكر إلى الآن مظاهرة نموذجية من مظاهرات الطلبة في مطلع عام ١٩٤٦، عندما أعلن أن مظاهرة سياسية ضخمة سوف تسير في الشوارع مطالبة البريطانيين بالجلاء عن البلاد. وفي الليلة التي سبقت المظاهرة كان الجو مكهرباً، وكان بعض الطلاب يخلو إلى بعضهم الآخر في المقاهي وغرف التدريس، يتدارسون الموقف ويرسمون الخطط لليوم الخطير. كان البوليس قد ألقى القبض على فؤاد كالعادة، ولكن بعض المهيجين الحزبيين الآخرين كانوا منصرفين إلى تعبئة أتباعهم. وكان الإخوان المسلمون والوفديون وأعضاء حزب "مصر الفتاة" وظلالٌ مختلفة من الشيوعية والاشتراكية على استعداد للعمل. ولقد أكدوا كلهم أن المظاهرة يجب أن تكون مظاهرة سلمية، ولعل بعضهم كان جاداً فيما يتعلق بإبقائها لا عنفية.

وفي صباح اليوم التالي تشكلت المظاهرة – على أرض الجامعة المصرية – وفقاً للطريقة المألوفة: رايات مرفوعه تطالب بالجلاء، وزعماء الطلاب محمولين على الأكتاف ينشدون: "بيفن! بيفن! فليسقط بيفن!" (وكان بيفن هو وزير خارجية بريطانيا آنذاك) فيرجع الحشد صدى إنشادهم: "فليسقط بيفن!"... وما إن وصلت المظاهرة إلى قلب مدينة القاهرة حتى تضخمت تضخماً عظيماً وضاقت بها الشوارع. وعندما اجتازت الجامعة الأمريكية هنأتُ الطلاب على احتفاظهم بالطابع السلمي في مظاهرتهم.

ولكن في تلك اللحظة بالذات استدارت شاحنة من شاحنات الجيش البريطاني عند أحد المنعطفات، فوجدت نفسها وجهاً لوجه مع المظاهرة المعادية لبريطانيا. وأطلق الحشد الإهانات، وقذف بعضهم الشاحنة بحجر، فأصيب سائقها بالذعر، فما كان منه إلا أن ضغط على دواسة البنزين واندفع بسيارته وسط الحشد، فصرع بذلك أكثر من ستة أشخاص...

وجن جنون المتظاهرين، فهجموا على ثكنات سلاح الطيران الملكي البريطاني التي كانت مطوقة بسور خشبي عبر الشارع الممتد من الجامعة الأمريكية. لقد حاولوا أن يحملوا ذلك السور. وعندما أضرم بعضهم النار في ألواح السور اندفع المتظاهرون نحوه راجين أن يوفقوا إلى بلوغ الثكنات نفسها. ومن على سطح الجامعة كان في استطاعتي أن أشهد البريطانيين المحاصرين داخل الثكنات، وقد سددوا فوهات رشاشاتهم نحو السور المشتعل، ونحو حشود المتظاهرين.

وانهار السور. اقتحم المتظاهرون الثكنات. ولعلع رصاص الرشاشات، ودب الذعر في صفوف المتظاهرين، وارتدوا على أعقابهم تاركين وراءهم عشرين من زملائهم صرعوا أو كانوا يلفظون أنفاسهم في ساحة المعركة. وظل الجنود البريطانيون في مواقعهم العسكرية، وإصبع كل منهم متوترة على الزناد. أما أنا فكنت قد انطرحت على بطني فوق سطح الجامعة.

وفي تلك اللحظة الحرجة شاهدت حركة تجاه الجامعة... كانت لامرأة عجوز محدودبة، ترتدي ملابس سوداء بالية، تشق طريقها إلى الشارع المقفر الذي صوبت عليه الرشاشات البريطانية، وراحت تجمع قطعاً من الخشب المحترق. ذلك أن الحطب كان بالنسبة إلى فقراء مصر في ذلك العهد سلعة ثمينة جداً.

مثل هذه المشاهد بالذات حاول جمال عبد الناصر أن ينص عليها في كثير من كتاباته وأحاديثه. ففي كتابه "فلسفة الثورة" يحدثنا جمال عبد الناصر كيف جمع هو ورفاقه في المدرسة الغدارات والقنابل اليدوية، وكيف رسموا الخطط للمظاهرات السياسية. ولكن تلك الأيام علمت فتى "بني مر" أشياء كثيرة، ومن بينها أنه لا يستطيع أن ينضم انضماماً قلبياً إلى أيما حزب من الأحزاب القائمة في مصر. فبعد أن عمل مع مختلف تلك الأحزاب وانضم إلى كثير منها، اقتنع جمال بأنه لا يستطيع أن يكون حزبياً. إن أهدافه كانت أعم من أن تُفْرَغَ في أيما أيديولوجية واحدة من أيديولوجيات الأحزاب.

وخلال تلك الأيام أدرك عبد الناصر أن الاغتيال السياسي ليس لهواً أو مزاحاً بقدر ما ظن من قبل. وقد تعلم هذا الدرس عندما وضع خطة لاغتيال أحد رجال السياسة. كان جمال وأصدقاؤه مختبئين خلف السياج المحيط بدارة الرجل السياسي عندما وصلت سيارته إلى الدارة في موعد من الليل. وترجل الباشا البدين من سيارته، فأعطى جمال عبد الناصر الإشارة بإطلاق النار، فدوت الطلقات ولاذ الفتيان بالفرار. وفيما كان جمال يعدو في ذلك الليل كان في استطاعته أن يسمع عويل النساء المنبعث من الدارة، عويل زوجة الضحية وبناته.

ولم تعرف أجفان جمال عبد الناصر طعم النوم طوال تلك الليلة؛ لقد ندم على ما فعل أعظم الندم. وقبل أن يرتفع الضحى نهض من فراشه لكي يقرأ الصحف، وبكى فرحاً عندما قرأ أن الخطة قد أخفقت، وأن الرصاصات أخطأت هدفها، وأن السياسي البدين لم يصب بأذى. وهذه التجربة تفسر لنا لماذا اتسمت ثورة عبد الناصر، في السنوات التالية، بطابع مسالم لا أثر فيه لإراقة الدماء. لقد استقال عبد الناصر، مرةً، من لجنة الضباط الأحرار نفسها لإصراره على أن الثورة يجب أن تكون بيضاء لا حمراء متسمة بالعنف.

وعندما غادر عبد الناصر المدرسة الثانوية، وكان قد نضج أكثر من ذي قبل، ودخل الكلية الحربية المصرية، لم يعد ثمة مجال لاشتراكه في المظاهرات، فإذا به يتجه نحو العمل السري، العمل من وراء حجاب. وبعد أن تخرج برتبة ملازم ثانٍ عمل جمال في خدمة الجيش المصري في السودان، حيث شكا رؤساؤه من نشاطه السياسي المستتر. ولعل أهم حادثة وقعت له خلال السنتين اللتين قضاهما في السودان كانت اجتماعه بملازم شاب آخر ذي عقلية سياسية يدعى عبد الحكيم عامر، الذي أصبح اليوم مشيراً وقائداً عاماً للقوات المسلحة ونائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة. لقد شكلت صداقة عبد الناصر لعبد الحكيم عامر حجر الزاوية في حركة نُظمت ببراعة داخل الجيش المصري، عرفت بلجنة الضباط الأحرار.

وفي إنشاء لجنة الضباط الأحرار أظهر عبد الناصر براعة فائقة في رسم الخطط السرية. لقد رفض أن يسمح للخلافات المذهبية الصغيرة أن تعوق الحركة، ولقد كان صبره وحكمته هما اللذان حالا بين زملائه والإقدام على محاولة انتزاع السلطة قبل الأوان، وقبل أن يصبح النجاح داني القطوف. ولقد جمع عبد الناصر ما بين عدد من الضباط الشباب الذين كانوا يمثلون مذاهب سياسية مختلفة، جمعهم كلهم في صف واحد على الرغم من أنه كان بينهم إخوان مسلمون، وشيوعيون، واشتراكيون، ووفديون، وأعضاء في حزب "مصر الفتاة". كان القاسم المشترك هو الرغبة في أن تكون مصر دولة مستقلة.

ومن العناصر الرائعة في التكتيك الذي اتبعه عبد الناصر، أنه لم يجعل من نفسه زعيماً يبحث عن أتباع. ولقد كان هذا شيئاً لا يكاد يصدق في منطقة تُعتبر فيها "عبادة الزعيم" أيسر شكل من أشكال التعبير السياسي، حيث جرت العادة بأن يتخذ الولاء السياسي شكل الولاء للزعامة الشخصية أكثر منه للمذهب أو الأيديولوجية. وحتى الأحزاب ذات العقائد النظامية النظرية، مثل "الإخوان المسلمين" و"مصر الفتاة"، ركزت ولاءها على زعامة حسن البنا وأحمد حسين الشخصية. أما فتى "بني مر" المتوقد القوى، فيبدو أنه أدرك أن تنصيبه نفسه زعيماً شخصياً سوف يحد كثيراً من نطاق حركة الضباط الأحرار. إنه عندئذ سوف يكون منافساً لحسن البنا، ويعجز عن اكتساب أعضاء الأحزاب الأخرى إلى حركته الجديدة. من أجل ذلك اعتبر عبد الناصر نفسه عاملاً بسيطاً يتعاون مع عاملين كثيرين باسم ضابط رفيع الرتبة غير معروف تماماً، ضابط كبير "شديد الاتصال بالقصر" سوف يطلق رصاصة الثورة الأولى في الوقت المناسب. وطوال سنوات عدة، لم يكن لهذا الزعيم الرفيع الرتبة وجود على الإطلاق.

وبدأت لجنة الضباط الأحرار تعمل في جد خلال الحرب العالمية الثانية، عندما كان الشباب يرجون، في صراحة، أن تتغلب جيوش المحور، المرابطة عند أبواب مصر، على قوات الحلفاء. ولم يكن ذلك بسبب من الإعجاب بإيطاليا أو ألمانيا، ولكن بسبب من المثل

العربي القديم: "عدو عدوى صديقي". إن الضباط الأحرار، بتأييدهم لدول المحور، كانوا يأملون في سحق البريطانيين وتحرير مصر من الاحتلال الأجنبي. ومن أجل هذه الغاية رسم الشباب كثيراً من الخطط خلال الحرب. وتمت بعض الاتصالات مع عملاء الألمان، واقترح بعضهم أن تعلن بعض فرق الجيش المصري العصيان، وتنتفض على الإنكليز، وتحتل القاهرة. ووضع أحد أصدقاء عبد الناصر خطة لنسف السفارة البريطانية وقتل كل من فيها. ولقد كان خليقاً بأي من هذه الأعمال أن تحدث رد فعل يؤدى آخر الأمر إلى القضاء على الضباط الأحرار. فما كان من عبد الناصر إلا أن كبح جماح رجاله الشباب. وانتهت الحرب ومصر والسودان لا يزالان رازحتين تحت الاحتلال البريطاني.

وبعد الحرب شُغل شباب مصر الوطني بغزو أجنبي جديد – وهو الغزو الصهيوني. لقد أصبحت مشكلة فلسطين إحدي مشكلات مصر الرئيسية، وفي ذكرى وعد بلفور في نوفمبر ١٩٤٥ شاهدتُ حشوداً مصرية تقتحم المحال التجارية اليهودية في القاهرة فلا تُبقي فيها شيئاً! لقد كان شباب مصر يرون في الصهيونية نهاية النهايات في الطغيان الغربي. كان جزء من أجزاء العالم العربي يُسلب من العرب، وكان أهله العرب يشردون، والمستعمرون الغربيون الذين استولوا على الأرض سوف يشكلون رأس جسر للاستعمار الغربي في الوطن العربي. والواقع إن مقاومة الصهيونية في مصر كانت مبنية على أساس من الشعور المعادي للغرب بأكثر مما كانت مبنية على أساس من الشعور المعادي لليهود. ولكن مما لا شك فيه هو أن المسألة الصهيونية قد أذكت نار التعصب الديني، ومنحت قوة جديدة للحركات الرجعية كحركة الإخوان المسلمين مثلاً.

وأهم من ذلك أن فلسطين كانت على وشك أن تصبح ساحة حرب تستطيع مصر الفتية فيها أن تحارب. إن الوطنيين المصريين لم يكونوا يملكون القوة العسكرية التي تمكنهم من أن يخوضوا الحرب ضد الإنكليز، أو أي من الدول الأجنبية، ولكن ما إن أنهى البريطانيون انتدابهم على مصر، في أيار (مايو) عام ١٩٤٨، حتى نظر الوطنيون

المصريون إلى دولة إسرائيل المستحدثة نظرتهم إلى عدو يستطيعون أن يخوضوا ضده حرباً ظافرة. وارتفعت حرارة الحماسة ارتفاعاً كبيراً. وتطوع الإخوان المسلمون للجهاد، وطلب الضباط الأحرار إجازات تمكنهم من الانضمام إلى المجاهدين العرب في فلسطين. ووضع عبد الناصر ورجاله خطة سرية تقضي بأن تشترك بعض الوحدات في العمليات الحربية، وبذلك يُزج الجيش المصري كله في حرب ضد إسرائيل.

واستبدت حمى فلسطين بالملك السابق فاروق أيضاً. لقد رأى فيها تدعيماً لشعبيته المضمحلة، فأصدر أمره إلى الجيش المصري بدخول فلسطين، وأقنع ست دول أخرى من دول الجامعة العربية بخوض غمار الحرب. وظن العرب أنهم إنما يقومون، على الأقل، بجهاد أو حرب مقدسة، ومن أجل ذلك كانوا واثقين كل الثقة من النصر. ولقد أصدر الملك السابق أمره بأن يفتح شارع جديد ضخم ما بين القاهرة ومصر الجديدة للقيام باستعراض النصر المنتظر إجراؤه يوم يهزم الجيش المصري القوات الإسرائيلية.

أما ما حدث فعلاً فكان فصلاً من أدعى فصول التاريخ العربي الحديث إلى الأسى والحزن. كان كل جيش من الجيوش العربية لا يعرف ما الذي يفعله سائر الجيوش. وكان الجيش المصري يملك بعض العتاد الثقيل، ولكن كانت تعوزه أسباب النقل والمواصلات وتنقصه المؤن، وكلها عناصر حيوية في الحرب الحديثة. كان سياسيو مصر يضخمون ثرواتهم من طريق شراء الأسلحة الفاسدة وبيعها للجيش، فإذا بالجنود المصريين في جبهة فلسطين يدفعون الثمن. وفيما القتال يبلغ ذروته أمرت فرقة الهندسة بالجيش المصري ببناء فيلا في غزة للملك السابق فاروق. ورُدت القوات المصرية على أعقابها على نحو موصول في منطقة النقب الجنوبية، حتى إنهم لم ينقذوا آخر الأمر غير قطاع غزة الساحلي العنيف الذي كان فيما مضى فلسطين العربية. لقد أنزل الصهاينة بالجيوش العربية ضربة مُذلة.

وكان ثمة جيب صغير واحد من جيوب البطولة المصرية في هذه الحرب كلها. وكان ذلك هو حصار الفالوجة حيث طوقت وحدةٌ مصريةٌ صغيرة ورفضت الاستسلام.

وعمر الأملُ صدور المدافعين العنيدين عن الفالوجة عندما شقت قوة مؤلفة من ١٥٠ رجلاً، يقودهم عقيد أجش الصوت، طريقها وسط خطوط العدو من أجل إنقاذهم. وهكذا استطاع المدافعون عن الفالوجة أن يصمدوا حتى توقيع الهدنة الإسرائيلية المصرية. وكان العقيد الذي قاد هذه القوة المؤلفة من ١٥٠ رجلاً، والذي جرح هو نفسه مرتين في أثناء الحصار – كان ذلك العقيد هو جمال عبد الناصر.

وخلال أيام الفالوجة المظلمة وجد جمال عبد الناصر متسعاً من الوقت للتفكير. كان ضباطه الأحرار عاجزين عن محاربة البريطانيين، وها هم الآن قد أخفقوا في قهر الإسرائيليين. وفيما الهزيمة تعصر فؤاده راح عبد الناصر يفكر في الأسلحة الفاسدة، ويتأمل في الفيلا المشيدة في غزة، وفي الطريقة التي أديرت بها الحرب على العموم.

وفي الفالوجة اتخذ عبد الناصر قراره. لم يكن ثمة داع إلى محاربة الجيوش الأجنبية إلا بعد أن تحرر البلاد من الاحتلال الأجنبي الأصلي. لقد أدرك عبد الناصر عندئذ أن عليه أن يحذو حذو عرابي ويضرب أسرة محمد علي. وهكذا أصبح الملك فاروق هو هدف لجنة الضباط الأحرار.



(٣)

آخر أيام فاروق

عندما قرر الضباط الأحرار خلع فاروق كان مسلكهم شعبياً إلى حد عظيم. كانت مأساة فلسطين قد قضت على كل أمل بأن يصبح فاروق بطل القومية العربية. كان الملك قد قامر على غزو فلسطين، ولم يكن لإخفاقه من أثر غير وعي شعبه المتزايد لفساد مليكه وعجزه وضعفه.

وبعد أن وقعت مصر معاهدة الهدنة المذلة مع إسرائيل في جزيرة رودس أخذت الأحوال الداخلية تزداد في مصر سوءاً يوماً بعد يوم. لقد اضطرب حبل السلامة العامة، وأخذت المظاهرات تقتحم الشوارع لأقل داعٍ أو سبب. وتعرضت حياة الأجانب للخطر، وأصبحت الاغتيالات، وإلقاء القنابل، والذعر أشياء مألوفة.

وكان يقود حملة الذعر في ذلك الحين جماعة الإخوان المسلمين. وكانت هذه الجماعة تتنافس مع الوفد على كسب التأييد الشعبي. وظل الملك المروع فترة طويلة من الزمن يحجم عن اتخاذ أيما إجراء ضدهم، إلا أنه أقنع رئيس وزرائه، محمود فهمي النقراشي، بأن يحل الجماعة في ٢٥ ديسمبر من عام ١٩٤٨. ولم تنقض غير أيام ثلاثة حتى اغتيل النقراشي، فكان ثاني رئيس وزارة مصري يُغتال في مدى ثلاث سنوات.

وبعد أقل من ثلاثة أشهر أخذ بثأر النقراشي. ذلك أن عصبة من أنصار النقراشي صرعوا الشيخ حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين. وعندئذ أخذ فاروق وحكوماته يقسون في معاملة الإخوان المسلمين. وما هي إلا أشهر معدودات حتى كان زعماء الجماعة قد سُجنوا أو قتلوا أو نفوا إلى خارج البلاد.

والآن وقد أصبح فاروق في صراع مباشر مع الإخوان المسلمين، والوفد، ومعظم الجماعات الوطنية، فقد أمست أيامه معدودة. بيد أن حادثة وقعت في أواخر عام ١٩٤٩

جعلت فاروقاً يتنفس الصعداء. ذلك أن المجلس النيابي حُل في ذلك التاريخ، ودعيت البلاد إلى انتخابات جديدة، وشكلت وزارة محايدة، وأجريت انتخابات حرة نسبياً.

وكانت نتيجة الانتخابات انتصاراً ساحقاً لحزب الوفد. لقد أعادت إلى السلطة مصطفى النحاس الذي كان آنذاك أكثر الشخصيات السياسية شعبية.

* * *

وحين تولى النحاس مقاليد الحكم خفت وطأة الضغط عن فاروق إلى حد بعيد. لقد ضعفت حدة حملات الذعر والترويع، وعرفت البلاد فترة من الهدوء استعادت خلالها حياتها العادية. وكان الناس يأملون أن يوفق الوفد إلى قيادة البلاد في الطريق المؤدية إلى الإصلاح والاستقرار. وشكل النحاس وزارة قوية...

كان وزير الشؤون الاجتماعية في تلك الوزارة هو دكتور أحمد حسين (وهو غير أحمد حسين زعيم حزب مصر الفتاة) وهو معروف بنشاطه في حقل الخدمة الاجتماعية، وكان وزير التربية فيها المفكر الضرير طه حسين، ولعله أعظم شخصية أدبية في العالم العربي الحديث. وقد سارع دكتور طه حسين إلى إدخال نظام التعليم المجاني الإلزامي إلى مصر في الحال. ولقد نحت العبارة المشهورة التي قال فيها إن التعليم مثل الهواء والماء، وهو حق من حقوق كل مصري. وكان من أعضاء الحكومة أيضاً وزير المالية زكي عبد المتعال، ووزير الخارجية محمد صلاح الدين.

ولكن هذه الوزارة ما لبثت أن انغمست في بحر من الفساد. فقد شرع رجال السياسة الوفديون يجنون الثروات على حساب الشعب. لقد اخترعوا كل حيلة ممكنة لاحتكار التجارة وجعل منافعها وقفاً على الحاكمين. فكانت الحكومة مثلاً تتخذ قراراً بتحديد تصدير بعض السلع، فتهبط الأسعار، ويقبل الوفديون على الشراء. ثم تجتمع الوزارة من جديد وتتخذ قراراً برفع الحظر أو التحديد، فتعود الأسعار إلى الارتفاع،

وعندئذ يبيع الوفديون وأصدقاؤهم ما عندهم من سلع. واحتكر اثنان من الباشاوات سوق قطن الإسكندرية كله. ثم جاءت الوزارة بتشريع رجعي، فاعتبرت ذلك العمل شرعياً. ولقد أفاد المحتكران وجميع الذين ساعدوهما على ما أقدما عليه ثرواتٍ ضخمة من هذا الصنيع.

وبينما كان الوفديون وموظفو الحكومة يُثرون وتتعاظم كروشهم كان اقتصاد البلاد العام يتدهور. لقد ارتفعت نفقات المعيشة، وعمت البطالة، وقاد الاضطراب الاقتصادي إلى الاهتياج السياسي، وواحد بعد واحد بدأت العناصر الصالحة تستقيل من الوزارة، فاستقال أحمد حسين، واستقال طه حسين، واستقال زكي عبد المتعال. ونزلت جماعة الإخوان المسلمين وحزب مصر الفتاة (وقد دعي الآن باسم جديد هو الحزب الاشتراكي) إلى الشارع كرة أخرى. لقد أخذت الجماهير تهاجم الوفد الذي كان يقودها في وقت من الأوقات. وبدأت حكومة النحاس تفقد سيطرتها على البلاد.

ولم يجد النحاس وسيلة لإنقاذ شعبيته وتدعيم مركزه خيراً من المسارعة، في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٥١ إلى إعلان إلغاء المعاهدة المصرية البريطانية إلغاءً مسرحياً، وإلغاء الاتفاق المصري البريطاني الخاص بالسودان. ومعنى هذا أن مصر لم تعد تعترف بشرعية الاحتلال البريطاني لمنطقة قناة السويس أو الإدارة البريطانية في السودان.

والواقع إن تلك الضربة المسرحية أعادت إلى النحاس مكانته كزعيم شعبي. لقد استعاد تلك الشعبية التي كان قد فقدها في الأشهر السالفة الحافلة بالفساد. فإذا بالصيحة القديمة (يعيش الملك! يحيا النحاس!) تدوي في الشوارع، كرة أخرى.

ولبت الأمة دعوة النحاس إلى حمل السلاح. وظن الوطنيون الشباب أن مصر سائرة في طريقها إلى الاستقلال والكرامة. وانطلقت في الشوارع مظاهرات معادية للبريطانيين، وسرح المدرسون البريطانيون من المدارس الحكومية، وأخرج الموظفون البريطانيون من وظائف الدولة، وغيرت أسماء الشوارع الإنكليزية واستعيض عنها بأسماء وطنية ملائمة،

وشُلت الحياة المدرسية شللاً كاملاً تقريباً لأن الطلاب كانوا أبداً في شغل شاغل بالمظاهرات السياسية، وترك آلاف من العمال المصريين أعمالهم في الجيش البريطاني في منطقة القنال، ولقد انتقلوا إلى القاهرة يستنجزون الحكومة وعدها بأن تجد لهم أعمالاً جديدة.

وشكل الإخوان المسلمون، والاشتراكيون، والوفديون الشباب كتائب لخوض حرب العصابات ضد البريطانيين في منطقة القناة. فكانت جثث كثير من الجنود البريطانيين يُعثر عليها طافية في بحيرة المياه الحلوة قرب الإسماعيلية، واختُطف ضباط وجنود آخرون، وألقيت القنابل اليدوية على نوادي الضباط، وعكرت لعلعة الرصاص هدوء الليالي الصحراوية ليلة بعد ليلة، فيما كان المتطوعون في حرب العصابات يغيرون على المراكز البريطانية تحت جنح الظلام، ونُسفت الطرق والمنشآت البريطانية، وعُطلت المواصلات. وحاولت الحكومة أن تفرض على هذه الجيوش غير النظامية ضرباً من الرقابة الرسمية ولكنها لم توفق إلى ذلك قط.

وما هي إلا فترة حتى اتضح أن مغامرة النحاس توشك أن تخفق. لقد ألغى المعاهدة، ولكنه عجز عن إكراه البريطانيين على الجلاء. وكانت نشرات الأحوال الجوية في الصحف اليومية تعتبر السودان جزءاً من مصر، ولكن هذا لم يستطع أن يخفي الحقيقة، وهي أن الحاكم البريطاني العام كان لا يزال هو صاحب الأمر في السودان. إن النحاس بعد أن ألغى المعاهدة، لم يستطع أن يضع ولو خطة غامضة لتحقيق أماني مصر وجعلها حقيقة واقعة.

والآن انتقل البريطانيون من الدفاع إلى الهجوم. كان لديهم قاعدة عسكرية ضخمة في فايد، تقع في محاذاة القنال ولم يكونوا راغبين في التخلي عنها. كانوا قد أمدوا قواتهم بإمدادات جديدة حتى بلغ مجموعها ثمانين ألفاً في منطقة القناة. ثم إنهم ضربوا نطاقاً حول المنطقة وراحوا يفتشون جميع المصريين الداخلين إليها أو الخارجين منها. وحتى

القضاة المصريون الداخلون إلى المنطقة في مهمة رسمية كان عليهم أن يخضعوا للتفتيش. وكان هذا إذلالاً لا سبيل إلى قبوله في أعين الوطنيين المصريين. ذلك أن دولة أجنبية كانت هي التي تقوم بهذا التصرف في أرض مصر، وتقوم به من غير أن تطلب إلى المصريين أن يجيزوا لها ذلك، في حين وقفت الحكومة المصرية عاجزة لا تستطيع أن تفعل شيئاً.

أجل، كان ذلك شيئاً مذلاً إلى أبعد الحدود. ولكن الأذى ما لبث أن أضيف إلى الإذلال في اليوم الخامس والعشرين من كانون الثاني (يناير) ١٩٥٢. كان ثمة قلاقل في الإسماعيلية، وكان الجيش البريطاني قد تحرك إليها للسيطرة على الموقف. وحاصر البريطانيون كتيبة من رجال البوليس المصري الإضافي وسألها أن تستسلم، ولكن رجال الشرطة رفضوا الاستسلام، فما كان من البريطانيين إلا أن فتحوا عليهم النار. وهكذا سقط أكثر من سبعين مصرياً صرعى قبل أن تغرب شمس ذلك النهار.

وانتشر النبأ في القاهرة انتشار النار في الهشيم. كانت هاهنا إهانة ضخمة أخرى للمصريين جميعاً. لقد ذبح رجال شرطتهم على أرض مصرية، وبسلاح دولة أجنبية. وكما هي العادة، لم تفعل الحكومة شيئاً، ولكن الشعب اندفع إلى العمل.

ولم يبدُ ميدان الأوبرا صباح يوم السبت الواقع في ٢٦ يناير مثل غيره في أيما يوم مضى. كان تمثال إبراهيم باشا، ابن محمد علي، يتوسط الميدان، وإلى جانب التمثال كانت دار الأوبرا، التي بناها الخديوي إسماعيل خصيصاً لضيفته الملكية، الامبراطورة أوجيني. وخلف التمثال كان فريق من أثرياء المصريين والشرقيين يتمشون في أشعة الشمس على سطيحة كاباريه بديعة، ويرتشفون ضروب الخمر، أو يقطعون الوقت من غير عمل أو هدف.

وتجاه التمثال وإلى يساره نهض بناء يعتبر أروع أبنية القاهرة الحديثة: فندق شبرد. وفي الشارع المواجه للأوتيل كان بعض الباعة المصريين في ثيابهم البلدية، ينتظرون السياح

ليبيعوهم بعض السلع المصرية. وعلى سطيحة الفندق، المرتفعة نحو خمس أقدام فوق الشارع، احتل بعض المتبطلين عدداً من الموائد، وأنشأوا يشربون القهوة التي قدمها إليهم رجال سود البشرة في (جلابيبهم). ولكن الشهر كان شهر يناير، وكان معظم نزلاء الفندق في الصالونات الداخلية، وكان نفر من الأميركيين الفارغي الصبر ينتظرون أن يفتح بار "جو" أبوابه حتى يحتسوا مشروبات "البارمان" الأسطوري الذي كان يدير مشرب شبرد.

وكان فندق شبرد رمزاً كاملاً لكل ما ثار الوطنيون المصريون ضده. لقد كان في وقت من الأوقات قصراً لأميرة تركية، وكان قد تحول إلى محجة يقصدها الأغنياء من أرجاء الكرة الأرضية كلها. هاهنا كان الأوروبيون الموسرون يجتمعون ويختلطون ببعض المصريين الغارقين في المتارف الآخذين بأسباب العيش الغربي. كان أفراد الطبقات الدنيا من المصريين يرون قاعاته المزخرفة بالأرابيسك، وحدائقه الحافلة بالنخيل وضروب الرياحين، وسطائحه وشرفاته... أجل كانوا يرون ذلك كله ولكن من غير أن يتمتعوا به. لقد كان فندق شبرد قلب القاهرة، ولكن أسعاره الخيالية جعلته وقفاً على الأثرياء من الأجانب وعلى بعض "المصريين الذين يتكلمون الفرنسية"...

وانتشرت الإشاعات بأن قلاقل ومظاهرات سوف تقع صباح اليوم السادس والعشرين من يناير. وأوضح أحد الأميركيين، وكان مقيماً في القاهرة طوال ستة أشهر، نقول أوضح لبعض القادمين الجدد الوسيلة إلى النجاة من المظاهرات المصرية، فقال:

- "إن أهم شيء يتعين عليكم أن تذكروه هو أن من واجبكم أن تغادروا الشارع في الحال، وتندفعوا إلى أي باب ترونه مفتوحاً في وجوهكم، وتبقوا هناك حتى يمر المتظاهرون. وحذار ثم حذار أن تفروا أو تركضوا، وبصورة خاصة إذا كان ثمة هجوم من جانب البوليس. إن الأمر كله لابد أن يهدأ بعد فترة قليلة وتعود الأشياء سيرتها الأولى".

وقبل أن ينهي كلامه أرهف الرجل سمعه وأصغى. كان قد سمعها ولكن المرء يصغي دائماً مرتين، لعل بعض أطفال المدارس كانوا يلعبون، ولكنه عاد وسمعها كرة أخرى، وعندئذ لم يكن ثمة أيما ريب. كان الذي سمعه هو أنشودة الجماهير الغاضبة. وكانت تلك الجماهير تندفع نحو شبرد.

وفي الطليعة كانت الرايات المرفوعة عالياً، وأحد زعماء الطلاب محمولاً على أكتاف رفاقه ينشد الأناشيد الوطنية. وكان المتظاهرون يتألفون من الإخوان المسلمين، والوفديين الشباب، والاشتراكيين، والشيوعيين. حتى إذا اجتازوا حديقة الأزبكية المضاءة بالأنوار الحمراء، كانت حشودهم قد تضخمت تضخماً كبيراً بعد أن انضم إليها أفواج من البؤساء الذين ما كانوا يرون ضوء النهار إلا قليلاً، وراح شحاذ مقطوع الرجل يندفع على قدم واحدة لينضم إلى المتظاهرين.

وفيما كان هذا البحر البشري يزحف نحو فندق شبرد هرع المتبطلون الجالسون على سطيحته إلى الغرف والأروقة الداخلية. وصاحت امرأة مطلية الرموش طلياً حسناً، ذات شعر أسود مثل ريش الغراب، وفستان أسود يكشف عن صدرها. كانت قنبلة يدوية قد انفجرت في وسط الصالون. وكان المتظاهرون قد اندفعوا إلى غرفة الانتظار، وصبوا البنزين على الستائر والأثاث، وألقوا عليها مشاعل مضطرمة. وهرع نحو الجمهور الثائر جمع من رجال الشرطة ذوى الألبسة السوداء والطرابيش الحمراء، والعصى المرنة، فصب عليهم الجمهور البنزين فأصبحوا مشاعل حية، واحترقوا حتى الموت في دقائق معدودات. وكانت امرأة قد أطلت من الدور الثالث، حيث علقت في الشرك، وأعولت ملتمسة النجدة، فمد إليها رجل كان في الشارع سلماً من سلالم الحبال ابتغاء إنقاذها.

وفي بضع ساعات انهارت الجدران كلها وأصبح فندق شبرد الأسطوري وكأنه لم يكن، ولم يستطع أحد أن يحزر عدد القتلى الذين ماتوا في اللهب إلا فيما بعد.

ولكن فندق شبرد لم يكن هدف الجماهير الوحيد. ففي اللحظات نفسها التي هوجم فيها الفندق كانت جماهير أخرى تهاجم "كاباريه بديعة" في أقصى ميدان الأوبرا وتحرقه.

واندفعت الجماهير في شوارع القاهرة تحطم وتدمر وتحرق متخذة أهدافاً لها من مختلف الفنادق، والمطاعم، ودور السينما، وقاعات الشاي، والمقاهي، والبارات، والمخازن التي تبيع النفائس والسلع المترفة، وبكلمة ثانية، لقد هاجم أبناء الشعب كل رمز من رموز الكسل والترف التي حُرمها الشعب منذ عهد طويل والتي كانت عيونه تقع عليها كل يوم في أسى وحسرة. لقد بدأ الشعب يثأر لنفسه.

وأحرقت قاعة الشاي المترفة التي لا تقل عن فندق شبرد فخامة، والتي تعرف بمحل "جروبي". وكذلك أحرقت مطاعم مشهورة، مثل مطعم سان جيمس، والباريزيانا، والكورسال، ومحال تجارية كبيرة مثل شيكوريل، وجميع دور السينما في قلب العاصمة.

وفي نادي المرج البريطاني جلس أربعة رجال إنكليز حول مائدة وراحوا يتراهنون على "إن كل ما تحتاج إليه هو أن تصرخ (بووه)! ليولي جميع أولئك المتظاهرين الأدبار!"، واقتحم المتظاهرون النادي، ولقي الإنكليز الأربعة حتفهم قبل أن يستطيعوا مغادرة المائدة التي كانوا يجلسون حولها. وراح أحد البريطانيين يصل ما بين الأغطية ويربط بعضها ببعض ليجعل منها حبلاً يستطيع بواسطته الفرار من غرفته الواقعة في الطابق الثالث. وفيما كان ينزلق على جانب الجدار قذف المتظاهرون تلك الأغطية بالنار، فانقطعت به فسقط على رصيف الشارع صريعاً.

وعند الظهيرة كانت مدينة القاهرة تغلي بالذعر غليان المرجل. كان الدخان يموج من شارع إلى شارع، وكان القانون والنظام قد تلاشيا، وفي أحياء السكن المتاخمة للمنطقة التجارية خرج الناس يراقبون اللهب المضطرم. لقد بدا وكأن المدينة بكاملها سوف تصبح رماداً.

* * *

أين كانت السلطات عندما احترقت القاهرة؟ كان رئيس الوزراء مصطفى النحاس في منزله في جاردن سيتي. وقد استبدت به موجة من النرفزة لأن المزين الذي يضع "البيديكور" على أظافر قدميه قد تأخر بسبب "الاضطراب الذي يسود المدينة". وكان

وزير الداخلية المكتنز اللحم، فؤاد سراج الدين، يوقع عقداً لشراء عمارة من العمارات. لقد اتصل بين الفينة والفينة بالبوليس لكي يطلع على سير الأحوال، ولكن تفكيره كان مركزاً في ذلك اليوم على شراء العمارة.

أما الملك فاروق فكان في قصر عابدين، على مسافة غير بعيدة عن فندق شبرد. وعلى الرغم من أن نبأ إحراق فندق شبرد قد هزه فقد خيل إليه أن الأمر لا يعدو أن يكون "مجرد مظاهرة جديدة". ولكن الملك البدين فقد رباطة جأشه عندما أطل من نافذة قصره ليرى الجماهير تندفع عبر ميدان عابدين إلى القصر نفسه. إن جماهير الشعب لم تتحدَّ تاجه على نحو مكشوف في أيما يوم من الأيام السالفة.

لقد أطلق عشرات الألوف من المصريين، أبناء البلد، صيحات التعريض بالملك، وكانت الضربة الأخيرة عندما أنشدوا:

"ناريمان، ناريمان...

ابنك عنده سِنان!"

وكان في ذلك إشارة إلى الإشاعة القائلة، إن فاروق سبق له أن أصر على ناريمان بأن تقدم إليه برهان على قدرتها على أن تنجب له ولداً قبل أن يتزوجا فعلاً.

واستبد الذعر بفاروق استبداداً عظيماً: فأصدر أمره إلى البوليس بالقيام بعمل حاسم. ولكن بوليس القاهرة كان قد قدم استقالته. ولم تكن غير ثمة قوة واحدة في استطاعتها إنقاذ الملك، وهذه القوة هى الجيش. ولكن فاروق تردد قبل أن يصدر أمره إلى الجيش، هل كان في استطاعته أن يثق بالجيش؟ هل كان الجيش هو الآخر متواطئاً مع الجماهير الثائرة؟ وتم الاتصال التليفوني مع رئاسة أركان الجيش، فجاء الجواب: إن الجيش موالٍ للملك، وإنه مستعد للعمل.

وحين هبط الليل كانت دبابات الجيش تحتل الشوارع، وفُرض منع التجول. صحيح أن اللهب المنبعث من الأبنية المحترقة كان لا يزال يلتمع في الفضاء، ولكن الجماهير كانت قد غابت عن الشوارع وارتدت إلى بيوتها الحقيرة التي أقبلت منها. لقد انتهت القلاقل، ولكن شيئاً معيناً خرج من القاهرة ولم يرجع قط إليها بعد. فقد عني "السبت الأسود" نهاية النحاس. لقد ثار عليه الشعب وعلى حكومته، وفي اليوم التالي أقال فاروق مصطفى النحاس، ودعا علي ماهر إلى تولي رئاسة الوزارة.

وعني "السبت الأسود" نهاية فاروق أيضاً. على الرغم من أن انهياره تأخر بضعة أشهر عن طريق الاستعانة بأساليب تسكينية. لقد كان رئيس وزرائه الجديد إدارياً قديراً، ولكنه لم يكن زعيماً وطنياً. لقد أمسك بزمام الجماهير في قوة، ولكنه حاول من ناحية ثانية أن يسترضي أبناء الشعب بتخفيض سعر الخبز، وبإدخال بعض الإصلاحات الأخرى. لقد هدّأ من مخاوف الأوروبيين بإعطائهم رخص إقامة طويلة المدى ابتغاء الحِوال دون تهريب الرأسمال الأوروبي من البلاد.

ولم ينقضِ شهر واحد حتى أصبحت المهمة أثقل من أن يحملها علي ماهر، فقدم استقالته فجأة، فاختار فاروق لرئاسة الوزراء نجيب الهلالي وهو وفدي سابق انفصل عن النحاس وكانت له شهرة كمصلح. وكان يرجى أن يتمكن الهلالي من أن يجتذب إليه بعض شباب الوفد المؤمنين بالمثل العليا. وظل نجيب الهلالي يعالج المشكلة المصرية أكثر من أربعة أشهر أثبت بعدها شيئين: الأول أنه لم يكسب أيما تأييد شعبي لحكومته، والثاني أنه لم يجد في نفسه القوة على القيام بأيما إصلاح حقيقي.

* * *

وأطل الصيف على وادي النيل. واستشعر الملك، بعد هجوم الجو الحار، شيئاً من السلامة الزائفة. وكما هي العادة، انتقلت الحكومة وانتقل البلاط من القاهرة إلى الإسكندرية، حيث تنعَّما بنسائم الشواطئ الباردة.

كان الطلاب المثيرون للمتاعب في إجازة، وكانوا قد تفرقوا في مختلف بلدان الشرق الأوسط. ولقد قيل لأحد الصحافيين الوافدين إلى القاهرة:

- "في استطاعتك أن تسترخي طوال الشهرين القادمين. إن شيئاً ما لا يمكن أن يحدث في مصر خلال الصيف".

وحين ذبلت ذكريات "السبت الأسود" ارتد فاروق إلى عاداته القديمة. ولقد قبلَ استقالة "مصلحه" نجيب الهلالي، ودعا إلى رئاسة الحكومة حسين سري، وهو باشا ذو ثروة ضخمة من المدرسة القديمة.

وفي وزارة سري أسندت وزارة الدعاية إلى أحد أخدان فاروق، كريم ثابت، الذي عده الوطنيون الشباب رمزاً للفساد المستشرى في القصر. وبعد سبعة عشر يوماً ليس غير، استقال سري، بينما استمرت الحالة في التدهور. ودعى نجيب الهلالي إلى تولى الحكم كرة أخرى. وبدا الآن وكأن هذا الرجل الذي كان في وقت من الأوقات مصلحاً، بدا وكأنه قد استسلم نهائياً لرغبات القصر، فعين الكولونيل إسماعيل شيرين، صهر فاروق، وزيراً للحربية، وهى خطوة كانت خليقة بأن تثير ثائرة عدد كبير من ضباط الجيش. كانت ساعات فاروق قد اقتربت.

❋ ❋ ❋

وكنت في بيروت آنذاك، بوصفي مراسلاً للأسوشييتد بريس. وفي صباح اليوم الثالث والعشرين من تموز أيقظتني مخابرة تليفونية من جانب س.ب. سكواير، رئيس تحرير صحيفة "الدايلي ستار" البيروتية.

لقد قال سكواير لي:

- "يبدو وكأن شيئاً قد حدث في مصر. نحن نرصد الإذاعة المصرية، ويظهر أن شيئاً خطيراً قد وقع".

وهرعت إلى مكتب "الدايلي ستار"، وانتظرت ريثما تترجم الأنباء. وما هي إلا دقائق حتى كنت جالساً إلى آلتي الكاتبة أدق عليها، وأنا ألهث، النشرة التالية:

"اليوم أذاع راديو القاهرة الرسمي أن الجنرال محمد نجيب قد تولى مقاليد الحكم إثر انقلاب عسكري".

والواقع إني كنت أذيع على العالم آنذاك - وإن لم أدرك هذا في تلك اللحظة - نبأ ثورياً إلى درجة غيرت فيها بعد سير الأحداث في الشرق الأوسط كله، وأثرت في التاريخ العالمي كله. لقد كان النبأ الذي أبرقت به يعلن انتصار الضباط الأحرار بزعامة جمال عبد الناصر. ولكن اسم جمال عبد الناصر لم يُذكر. والواقع أن جمال ظل يؤثر العمل الصامت طوال بضعة أشهر بعد الانقلاب أيضاً.

ولكن من كان الجنرال "نجيب" الذي أشرتُ إليه في برقيتي، والذي اعتبره العالم آنذاك زعيم حركة الإصلاح التي أزاحت عن مركز السلطة ملكاً فاسداً؟

الواقع إن محمد نجيب لم يشترك في الانقلاب. وهو لم يتعرف إلى جميع الضباط الشباب الذين وضعوا خطة الانقلاب إلا بعد أن تم كل شيء. كان نجيب يعرف أن انقلاباً سوف يقع، ولكن حسن التدبير قضى بأن يبقى هو في بيته، وأن يبتعد عن القيام بأي عمل، فقد كان ضابطاً كبيراً، وكانت أيما حركة تبدر منه تثير ارتياب الحكومة وشكها.

كان محمد نجيب قد كسب احترام الضباط الأحرار خلال حرب فلسطين عام ١٩٤٨. كان قد قاد قواته في بطولة، آنذاك، وكان قد أصيب بجراح خطيرة، حتى ظن في بادئ الأمر أنه قضى نحبه. وكان انتقاده المرير للطريقة التي وُجهت بها الحرب قد جعله رمز المعارضة للنظام الفاسد في الوطن.

وعلى الرغم من إكبار الضباط الأحرار لمحمد نجيب، فإنهم لم يدخلوه في لجنتهم إلا بعد نجاح الانقلاب. بيد أن جمال عبد الناصر وفريقاً من إخوانه اتصلوا به منذ كانون

الأول (ديسمبر) ١٩٥١، وكانت المناسبة هي مناسبة انتخاب الضباط للنادي العسكري. وتفصيل ذلك إن فاروق كان قد خشي آنذاك أن يقوم بعض الضباط الثوريين باستخدام النادي العسكري قاعدةً لرسم الخطط للثورة. ولكي يحول دون ذلك أصر الملك على انتخاب أحد أنصاره، الجنرال حسين سري عامر، رئيساً للنادي. وقرر الضباط الأحرار أن يتحدُّوا الملك فاروق، فأيدوا محمد نجيب. وهكذا تم انتخاب الأخير في أول مناسبة أعلن فيها الضباط الأحرار مقاومتهم لفاروق جهاراً.

عندئذ كان قد أصبح واضحاً أن محمد نجيب هو الرئيس الأسمى الذي كانت الثورة في حاجة إليه. فلا عبد الناصر ولا أي من الضباط الأحرار كان له من السن ومن الرتبة العسكرية ما يمكنه من فرض سلطانه على الشعب كله. أما محمد نجيب، ذو الشاربين وذو البيبة (الغليون) فكان "يملأ المركز" تماماً. كان يتمتع باحترام كبير من مرؤوسيه.

* * *

كانت الأحداث التي عقبت "السبت الأسود" قد عجلت في حدوث الثورة. وحُدد اليوم العظيم مرةً، ومرةً، ثم أرجئ مرة ومرة حين استروح جواسيس فاروق ريحه. ولكن الأشياء بلغت ذروتها في شهر تموز (يوليو) عندما حل فاروق "اللجنة التنفيذية للنادي العسكري" التي كان يسيطر عليها آنذاك الضباط الأحرار. وأصدر وزير حربية فاروق قراراً بتعيين محمد نجيب في أحد المناصب بمصر العليا، كما أقصى معظم الضباط الأحرار إلى نقاط بعيدة.

وكان هذا الصنيع ما دعا عبد الناصر إلى الإسراع في العمل، لأنه لو تأخر أكثر مما فعل إذن لانفرط عقد الضباط الأحرار ولأمسى في ميسور فاروق أن يضرب كلاً منهم على حدة. ودعا عبد الناصر سبعة من الضباط الأحرار – وهم نواة مجلس قيادة الثورة – إلى اجتماع يعقد في العشرين من شهر تموز (يوليو)، وأنبأهم أن الوقت قد حان، فإما أن يسود فاروق، وإما أن يسود الضباط الأحرار.

ودار جدل عنيف بين الضباط حول نقطة أساسية واحدة: هل يتعين عليهم أن يعمدوا إلى قتل زعماء النظام القديم؟ وأصر عبد الناصر على أن الثورة يجب أن تكون بيضاء لا تسفك فيها قطرة دم واحدة، ليقينه أن إراقة الدم سوف تثير الرأي العام العالمي ضد الثورة. وبعد مناقشة متطاولة أقنع عبد الناصر إخوانه بوجهة نظره، وعُين يوم ٢١ تموز (يوليو) موعداً للقيام بالانقلاب، ولكن هذا الموعد أرجئ في اللحظة الأخيرة، يوماً إضافياً. وفي ليل ٢٢ تموز اعتزم عبد الناصر أن يجتمع مع أعضاء لجنته ويقومون بالانقلاب. وقبل بضع ساعات وفد على عبد الناصر صديق من أصدقائه وأعلمه، بصورة سرية أن قيادة الجيش أصبحت على علم بالخطة، فما كان من عبد الناصر إلا أن أقدم على مغامرة خطيرة: لقد أصدر أمره بتنفيذ الانقلاب في الحال.

وكانت الخطة تقضي بأن يسار أولاً إلى الاستيلاء على مقر رئاسة أركان الجيش في القبة، إحدى ضواحي القاهرة. وبعد ذلك تتقدم وحدات من الجيش على رأسها الضباط الأحرار إلى القاهرة لاحتلال مراكز المواصلات الرئيسية وغيرها من النقاط الهامة. فإذا ما جرت الأمور جرياً ميسراً فعندئذ يتم الاستيلاء على مقر رئاسة أركان الجيش في هدوء ويحتل الضباط الأحرار مواقع القاهرة الحساسة قبل أن يدرك أحد ماذا كان يحدث.

ولكن لما كانت قيادة الجيش قد أحيطت علماً بالخطة، فإن مقر رئاسة الأركان كان محاطاً بحراسة قوية، وكان قد اجتمع فيه تلك الليلة معظم قادة الجيش الكبار. ومعنى هذا أن رجال عبد الناصر سوف يضطرون إلى استعمال القوة للاستيلاء عليه، وهكذا سوف تنشب معركة. وهنا أيضاً كان على عبد الناصر أن يتخذ قراراً حاسماً. إنه إذا ما أحجم عن خوض المعركة فلابد أن يُعتقل هو ورجاله جميعاً قبل ارتفاع الضحى. وإذا ما أصدر أمره بخوض المعركة فعندئذ تقع معركة تسفك فيها الدماء.

وأخيراً قرر عبد الناصر أن يأمر رجاله بأن يطلقوا النار. وقاوم المدافعون عن مقر رئاسة الأركان مقاومة رمزية، وقُتل رجلان اثنان ليس غير. وعندئذ اندفع عبد الناصر

إلى المقر، والمسدس في يده، وقام هو شخصياً باعتقال زعماء الجيش. كان الانقلاب قد نجح. وخلال بضع ساعات كانت جميع المراكز الأخرى قد احتلت، بما في ذلك دوائر الحكومة ومحطة الإذاعة، وأحيطت السفارتان البريطانية والأميركية علماً بما قد حدث. وفي الوقت نفسه وجه عبد الناصر بعض كتائب الجيش المصري لكي تحتل مراكز لها في الطرق المؤدية إلى منطقة قناة السويس. لقد كان يخشى أن يحاول الجيش البريطاني الهجوم على القاهرة.

* * *

وقبل الفجر أوقظ محمد نجيب من رقاده وأحيط علماً بأنه قد أصبح الآن قائداً عاماً للجيش. وما هي إلا لحظات حتى أعلنت إذاعة القاهرة النبأ، ومن خلال هذه الإذاعة عرف العالم أن ثورة برئاسة محمد نجيب قد وقعت في مصر. لقد استولى الضباط الأحرار على الحكم. ولكن كان لا يزال ثمة علامة استفهام ضخمة: "الملكية"، وفي طول العالم وعرضه راح الناس يتساءلون، ما الذي سوف يفعله رجال الثورة بفاروق الممتلئ شحماً ولحماً؟ ولقد خيل إلى الناس فترة من الزمن أنهم سوف يحتفظون بالملك رئيساً صورياً ليس غير.

أما رجال الثورة أنفسهم فكانوا قد قرروا موقفهم من فاروق. كان على فاروق أن يذهب. وكان السؤال الوحيد هو: كيفية ذهابه. لقد أصر بعض رجال الثورة الأكثر تحمساً على ضرورة محاكمته ثم إعدامه بوصفه مجرماً. وكان فاروق نفسه، المقيم آنذاك في قصر المنتزه الصيفي في الإسكندرية، يعاني قلقاً واضطراباً عظيمين. لقد وجه رسولاً إلى السفير الأميركي جيفرسون كافري وتوسل إليه أن يتدخل مع رجال الثورة للإبقاء على حياته. كذلك وجه فاروق رسالة يائسة إلى القائد البريطاني في منطقة القناة، الجنرال السير وليام سليم.

وفي هذه الرسالة توسل إلى القائد البريطاني أن تتدخل قواته، إذا احتاج الأمر، وتحتل القاهرة، كما فعل أحد أسلافه من قبله، عندما استعدى الجيش البريطاني على أحمد عرابي. ولكن البريطانيين رفضوا هذه المرة أن يسارعوا إلى نجدة أسرة محمد علي.

ولم يكن عبد الناصر يعطف على الملك طبعاً، ولكنه كان ضد قتل الملك. فقد سارت الثورة حتى الآن من غير أن تسفك فيها قطرة من الدم، تقريباً، ولقد كان عبد الناصر يريد أن تتابع الثورة سبيلها الأبيض هذا. ثم إن محاكمة الملك تستغرق وقتاً، وقد يجد الملكيون في البلاد بعض الوسائل التي تمكنهم من القيام بثورة مضادة. وهكذا أصر عبد الناصر على ضرورة تنازل الملك ومغادرته البلاد بأسرع ما يمكن.

* * *

وبعد ثلاثة أيام انقضت على الانقلاب أصدر عبد الناصر أوامره إلى الدبابات والعربات المصفحة بتطويق قصري فاروق الاثنين في الإسكندرية، قصر المنتزه وقصر رأس التين، وكلاهما واقع على شاطئ البحر. وكان فاروق مقيماً في قصر المنتزه عند حدوث الانقلاب، ولكنه كان قد فر لسبب ما إلى رأس التين، في غضون ذلك. وهناك في رأس التين نشبت معركة صغيرة وجُرح ستة رجال قبل أن يستسلم حرس القصر.

وكان رجال الثورة قد وضعوا صيغة إنذار بضرورة تنازل الملك عن العرش. وانطلق رئيس الوزراء علي ماهر إلى قصر رأس التين حاملاً الإنذار إلى فاروق. وفيما عدا أفراد العائلة المالكة لم يكن في مصر كلها غير رجال قلائل يعرفون فاروق كما يعرفه علي ماهر، فقد سبق لهذا السياسي العتيق أن عرفه طفلاً، كما سبق له أن شهد ارتقاءه العرش. وإذ كان علي ماهر في وقت من الأوقات رئيساً للديوان الملكي، فقد كان طوال سنوات كثيرة مرشد فاروق السياسي رقم واحد ومستشاره الشخصي. وأكثر من مرة، دعاه فاروق إلى تولي رئاسة الوزارة. والآن، شاءت الأقدار أن يحمل علي ماهر إلى مليكه تلك الرسالة التي وضعت حداً لحكمه.

وحين قدم علي ماهر وثيقة التنازل إلى فاروق، حاول هذا أن يحتج.

لقد سأله فاروق:

- "أليست إرادتي هي الإرادة العليا؟"

فأجابه علي ماهر في لطف:

- "إن إرادة الشعب هي العليا، يا صاحب الجلالة".

ووقع فاروق وثيقة التنازل بيد مرتعشة ارتعاشاً شديداً، وشرع يحزم أمتعته في سرعة. كان عليه أن يغادر البلاد على ظهر يخته "المحروسة" في الساعة السادسة بعد الظهر من ذلك النهار.

وعلى الرغم من أنه تعين على فاروق أن يغادر البلاد في سرعة بالغة، فقد أجيز له أن يذهب محاطاً بجميع المظاهر التي تحفظ كرامته. لقد سمح له قادة الثورة أن يسافر إلى نابولي على متن "المحروسة"، اليخت الملكي، على شرط أن يرجع ذلك اليخت إلى مصر بعد ذلك. ولدى مغادرته البلاد أطلقت المدافع إحدى وعشرين طلقة، وكان محمد نجيب نفسه في وداعه. وكذلك فعل السفير الأميركي جيفرسون كافري بوصفه عميداً لرجال السلك الدبلوماسي. وكان فاروق عند إبحاره مرتدياً بزة أميرال بيضاء، وكانت معه زوجته ناريمان. وكانت ممرضة بريطانية تحمل على ذراعيها ملك مصر الجديد، أحمد فؤاد الثاني الطفل، وهو يعول ويرفس عند النزول به إلى اليخت. وذهبت مع فاروق أيضاً بناته الثلاث من زوجته الأولى.

وعلى الميناء ودع الملك المتنازل شقيقتيه وزوجيهما وأم زوجته. وامتطى محمد نجيب متن زورق بخاري حمله إلى اليخت ليودع فاروق قبل إبحاره. ثم إن محمد نجيب غادر اليخت، فأبحر بمن عليه متجهاً نحو نابولي.

لقد كان مشهداً يذكّر بتنازل جد فاروق المبذر، الخديوي إسماعيل. ذلك أن إسماعيل، حينما تنازل، أبحر من الإسكندرية في ذلك اليخت نفسه. ومثل فاروق أيضاً أبحر إسماعيل إلى إيطاليا. ولكن إسماعيل، على خلاف فاروق، ترك أسرته المالكة وراءه في مصر. أما فاروق فأخذ أسرته المالكة معه...

(٤)

الرجل العامل من وراء الستار

كانت الثورة قد انطلقت في دقة بالغة، وكان نجاحها المبدئي قد أصبح يقيناً. وفي طول العالم وعرضه صفق الناس للانقلاب في حرارة. وأمسى الملك الفاسد الفاجر، فاروق، موضع هزء وسخرية دوليين. ولقد كان جديراً بالناس أن يصفقوا لأيما رجل يخلع مثل ذلك الملك، ولكن الطريقة التي تم بها الانقلاب جعلت ذلك التصفيق حاداً. ذلك أن الإبقاء على حياة فاروق، واجتناب سفك الدماء، وتسامح الحكام الجدد، كل ذلك أكسبهم الإعجاب والإكبار في الوطن وفي البلدان الأجنبية.

وأصبح محمد نجيب هدفاً للصحافة العالمية. ففي المقالات الافتتاحية والتعليقات الصحافية، وفي التلفاز والإذاعة وُصف نجيب بأنه "مصلح مصر العظيم". كانت صورته تحتل أغلفة المجلات السياسية، وكان المراسلون يُجرون معه الحديث الصحافي تلو الحديث الصحافي، ولقد سمح لأولئك المراسلين أن يقابلوه في أيما ساعة من ساعات النهار والليل.

وألقى محمد نجيب خطباً متوالية في ميادين القاهرة، وأصدر القرارات والبيانات الطويلة باسم الثورة. حتى إذا انقضت على الثورة فترة يسيرة شرع المراسلون الصحافيون يلاحظون شيئاً غريباً. فقد حاولت وكالة الأسوشيتد بريس ذات مرة أن تبعث برسالة برقية صحافية كان محمد نجيب بنفسه قد وافق عليها، ولكن الرسالة البرقية حجزت ولم تُرسل. وحين أوضحت الوكالة الصحافية أن محمد نجيب نفسه وافق على نص الرسالة البرقية كان الجواب: إن البكباشي لم يوافق.

وأخذ المترددون على دوائر الحكومة وعلى مقر قيادة الثورة ممن لا يعرفون اللغة العربية، أخذ هؤلاء يلاحظون أن أشياء كثيرة كان لابد من تحويلها إلى البكباشي (الليوتنان كولونيل). ولكن من هو البكباشي؟ هل كان قوة خفية وراء العرش؟ هل كان رجل مصر

القوي شخصاً آخر غير محمد نجيب؟ لقد أجاب محمد نجيب نفسه على هذا السؤال في صراحة بالغة أمام اثنين من مراسلي الصحف بعد أسابيع معدودة من حدوث الانقلاب.

لقد قال محمد نجيب:

- "إذا أردتما أن تتحدثا في هذه المسألة مع صاحب القوة الحقيقية في حركتنا، فإني أقترح عليكما أن تذهبا إلى ثكنات العباسية وتجتمعا بالبكباشي".

وذهب سكرتير محمد نجيب الصحافي، كابتن رياض سامي، مع الصحافيين إلى العباسية، إحدى ضواحي القاهرة. وهناك في إحدى الثكنات وجد رجلاً فارع الطول مستسلماً للرقاد على سرير عسكر خشن.

وتقدم رياض سامي نحو هذا الرجل وحاول أن يوقظه قائلاً:

- "جمال! جمال! أفق! إن عندك زواراً".

وأفاق جمال عبد الناصر، وفرك عينيه، وجلس على سريره العسكري، وبدأ أول حديث صحافي له مع رجال الصحافة الغربية. وبعد ست ساعات، كان الرجل الفارع الطول لا يزال يتحدث، عن أي شيء كان يتحدث؟ عن فلسفة الثورة المصرية.

ولم تحدث تلك المقابلة الأثر العظيم الذي تستحقه في أوساط الصحافة العالمية. ذلك أن محرري الصحف كانوا قد أغرقوا بالمقالات الصحافية التي تبجل محمد نجيب، حتى لقد أصبح من المتعذر عليهم أن يصدقوا أن نجيباً هذا لم يكن هو صاحب الكلمة الأولى في مصر. وكان لابد من أن تنقضي أشهر عديدة أخرى حتى يشعر العالم بأن عبد الناصر هو رجل مصر القوى. فقد كان عبد الناصر لا يحب الظهور. كان كلما تربع محمد نجيب في صدر مكان ما اتخذ عبد الناصر مكاناً له في الصف الثاني أو الثالث، وكان لا يزال غير معروف جداً لدى الشعب المصري نفسه.

* * *

وكان دور الرجل العامل من وراء الستار محبباً جداً عند رجل "بني مر" الفارع الطول. وأنا واثق كل الثقة من أنه كان يؤثر أن يواصل عمله من وراء الستار. فهو لم يحب في يوم من الأيام الوقوف في صدر المسرح، تحت وهج الأضواء المسلطة.

إن كره عبد الناصر لمظاهر العظمة هو أحد الخصائص القوية التي تكوّن شخصيته. إن أحداً من الناس لم يستطع أن يزعم أنه سوف يصبح فاروقاً جديداً، أو أنه قد أثرى على حساب الأمة. وزيارة إلى منزل عبد الناصر تظهر لكل امرئ كيف احتفظ الرجل بحياته البسيطة بعد ست سنوات من توليه مقاليد السلطة. فعبد الناصر وأفراد أسرته لا يزالون يسكنون حتى اليوم في ذلك المنزل الذي كانوا يسكنون فيه يوم كان هو ضابطاً بسيطاً في الجيش.

ومنذ أن أصبح عبد الناصر رئيساً، أضاف إلى منزله طابقاً جديداً وجناحاً إضافياً. ولكنه لا يزال، إذا نظرنا إليه كمقر لرئيس الدولة، منزلاً بسيطاً جداً.

* * *

إن عبد الناصر رجل ضخم يزيد طوله على ست أقدام، ويزيد وزنه على مئتي باوند (رطل إنكليزي). وهو "دينامو" بشري، يتمتع بطاقة لا حدود لها، ولا يكاد يجد وقتاً للنوم. إن متعته الأولى في الحياة عى عمله، هى ثورته، فهو يوجه إليهما كامل قوته. وهو يعمل في معظم الأحيان في منزله.

لقد قال لي مرة:

- "إن مكتبي في قلب العاصمة ليس إلا مكاناً للاستقبالات. أما حين تكون لدى أعمال أساسية جدية فإنني أفضل أن أقوم بها هنا في البيت، حيث يسود الهدوء، وحيث لا يصرفني عن العمل شيء".

وفي تلك المناسبة بالذات كان قد عمل حتى الساعة الرابعة صباحاً، ثم نام قليلاً واستيقظ في الساعة السادسة. وعبد الناصر يواصل سهره الموصول هذا طوال أشهر متوالية حتى ينفد معين نشاطه، وعندئذ يطرح العمل ويأخذ قسطه من الراحة.

وخلال فترات الراحة هذه يقصد عبد الناصر في بعض الأحيان مع صديق أو صديقين من أصدقائه الحميمين – ومع عبد الحكيم عامر بصورة خاصة – إلى القناطر الخيرية قرب القاهرة، أو إلى قرية قريبة من الإسكندرية. وهناك يستريح عبد الناصر بضعة أيام حتى يسترد نشاطه ويصبح مستعداً لاستئناف العمل من جديد. وهو يقصد إلى هناك كلما توقع نشوب أزمة من الأزمات، وكلما أدرك أن أمامه عملاً شاقاً يقتضيه انصرافاً طويلاً مرهقاً. ففي آب (أغسطس) من عام ١٩٥٦ غادر القاهرة في رحلة قصيرة كهذه، فيما كان ينتظر نتائج مؤتمر لندن الخاص بمشكلة السويس. لقد عرف آنذاك أن نتيجة المؤتمر سوف تعني ساعات من العمل لا نهاية لها بالنسبة إليه، وكان يعد نفسه لذلك العمل المرهق.

أما في الأحوال الأخرى فيؤثر جمال عبد الناصر أن يأخذ قسطه من الراحة في بيته مع أسرته. وعبد الناصر يُبعد أسرته عن أعين الجمهور. وهو يحب أولاده حباً جماً. لقد تزوج عام ١٩٤٤ من امرأة لا تظهر أمام الجمهور إلا نادراً. إنها ليست محجبة بالمعنى التقليدي للحجاب الإسلامي. ولكن عبد الناصر حريص على احترام العادات الإسلامية، فهو يبقي زوجته بعيدةً عن أعين الجمهور. ولقد رأيت هذه السيدة مرةً واحدة ليس غير، وكان ذلك في الإسكندرية، عام ١٩٥٧، حيث احتشد ربع مليون مصري في الميدان العام، وأخذوا يهتفون بحياة عبد الناصر، بينما وقف جمال على شرفة عريضة لكي يلقي في الناس خطاباً.

وعلى شرفة إحدى الأبنية القائمة إلى الشمال كانت تجلس مجموعة من النساء. وكانت واحدة من تلك النساء ترتدي ملابس زرقاء بسيطة. لقد وقفت وصفقت وأشرق

وجهها بالاعتزاز عندما أخذ الآلاف من المصريين يهتفون لعبد الناصر. كانت تلك السيدة هى زوجة جمال عبد الناصر.

وحسب معلوماتي، فإن المرة الوحيدة التي ظهرت فيها السيدة زوجة عبد الناصر أمام الجمهور فترة طويلة كانت في تموز (يوليو) ١٩٥٨ عندما رافقت زوجها في رحلة إلى يوغوسلافيا. لقد ظهرت هناك أمام الجمهور برفقة زوجة المارشال تيتو.

❋ ❋ ❋

ولعبد الناصر خمسة أولاد، ثلاث بنات وصبيان. والبنات هن أولاده الأكبر سناً، وأما الصبيان فهما أصغر أولئك الأولاد. وأحسب أن أحب أولاده إليه هو خالد، الذي بلغ عمره اليوم ثماني سنوات. أما ابنه الأصغر فهو عبد الحكيم، وقد دعاه على اسم صديقه القديم في السلاح منذ أيامه الأولى في السودان.

ولقد سألت عبد الناصر ذات مرة لماذا لم ينتقل إلى أحد قصور الملك فاروق السابقة، بدلاً من البقاء في منزله الأصلي؟

فقال:

- "لا نستطيع أن نفعل ذلك. إننا إذا انتقلنا إلى هناك تعين على كل منا أن يحيا في جناحه الخاص، وعندئذ يتشتت شمل الأسرة. أما هنا، في منزلنا هذا، فإننا نعيش كلنا معاً".

ثم أضاف ضاحكاً:

- "وهناك سبب آخر أيضاً. ففي العام الماضي انتقلنا إلى قصر الطاهرة (أحد القصور الملكية القديمة) حيث قضينا بضعة أسابيع ريثما يتم بناء الجناح الجديد في بيتنا، فشرع أولادي يلعبون في أروقة القصر، وأخذوا يكسرون تلك الزهريات النفيسة والتحف الفنية، وكان عليّ أنا أن أدفع قيمتها إلى الدولة. إن حالتي المالية لا تساعدني على العيش في قصر!".

وعبد الناصر يلعب التنس في بعض الأحيان، ولكن وسيلته المفضلة إلى الراحة هي لعب الشطرنج ومشاهدة الأفلام السينمائية. لقد علَّم أولاده الشطرنج، وهو يحب أن يقضي السهرة وهو يلعب معهم.

وقال لي مرة:

- "أنا أتركهم يغلبونني ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. إني أريد منهم أن يحبوا اللعبة".

والرئيس المصري يحب السينما. ففي أيام الثورة الأولى كان يشهد الحفلات السينمائية كلما وجد متسعاً من الوقت. كان يصطحب معه بعض مراسلي الصحف في هذه المناسبات. ولكن ضغط العمل ما لبث أن أكرهه على الإقلال من الذهاب إلى دور السينما إلا في الأحوال النادرة. ففي سنة ١٩٥٦ مثلاً كانت أعماله لا تكاد تبقى له ذرة من أوقات الفراغ - تأميم شركة قناة السويس، حرب السويس، إلخ... - وكنتيجة لذلك لم يشاهد غير فيلم واحد طوال السنة. وكان ذلك في آب (أغسطس) عندما استطاع أن يسافر إلى الإسكندرية طلباً للاستجمام بضعة أيام، مع عائلته، في قرية قريبة من الإسكندرية.

وقال عبد الناصر:

- "وقبل أن ينتهي الفيلم جاءني رسول وأخبرني أن دالس قد أعلن مشروعه الخاص بتدويل القنال. فكان عليَّ أن أغادر دار العرض قبل انتهاء الفيلم".

وقد استطاع عبد الناصر أن يعوض عن ذلك في العام التالي.

وتوضيحاً لذلك قال لي:

- "لقد أقمت جهازاً سينمائياً هنا على أرض ملعب التنس المجاور لمنزلي. فأنا أشاهد كل ليلة جميع تلك الأفلام التي فاتتني مشاهدتها في العام الماضي، بما فيها ذلك الفيلم الذي لم أتم مشاهدته في الإسكندرية".

وروح الفكاهة عند عبد الناصر تؤلف جزءاً من سحر شخصيته. إنه ليس مقذعاً، ولكنه يملك نصيبه من روح الفكاهة التي يتميز بها شعب وادي النيل.

ولقد قلت غير مرة إن سحر شخصية عبد الناصر يفتن كل من يقابله. وأنا لا أذكر أنني رأيت رجلاً تحدث إليه، ثم خرج من عنده وهو غير معجب به. وقد تُجرى معه حديثاً فيقنعك دائماً بوجهة نظره، حتى إذا فارقته، وتحررت من سحر شخصيته، بعد ساعة أو ساعتين، فقد تجد نفسك تختلف معه في الرأي. أما في أثناء سماعك الحديث فلابد لك من الاقتناع بما يقول.

وفي أيام الثورة الأولى شن صحافي مصري شاب حملة صحافية ضد عبد الناصر. لقد طالب المحرر الشاب بوضع حد للحكم الديكتاتوري في الحال، وبالعودة إلى الحياة البرلمانية. واشتدت الحملة حتى أصبح من العسير السكوت عليها، فاعتقلت السلطة الصحافي. وبعد فترة قصيرة قضاها في السجن أصدر عبد الناصر أمره بالإفراج عنه.

هذا الصحافي حدثني مرة عن هذه المسألة، فقال لي:

- "وما كاد يفرج عني حتى دعاني عبد الناصر إلى الاجتماع به. لقد قضيت في حضرته أربع ساعات، ومنذ ذلك الحين وأنا من رأيه على طول الخط. لقد أقنعني في كل نقطة. إنه أقوى من عرفتُ من الناس حجة وأقدرهم على الإقناع".

* * *

وعبد الناصر يتكلم الإنكليزية في طلاقة، ولكنه لا يتكلف التكلم بها بلهجة أوكسفوردية أو برطانة أميركية. إن عبد الناصر يتكلم الإنكليزية بالنبرة المصرية، فلست تنسى وأنت تستمع إليه أنك أمام رجل مصري صميم.

والاجتماع بعبد الناصر وأخذ الأحاديث منه حلم من أحلام الصحافيين. إنه لا يتهرب قط من أيما سؤال، ولا يحاول أن يقذف الصحافي بإجابات لا تغني ولا تسمن

من جوع. إنه لا يجيب عن الأسئلة فحسب، بل يتوسع في ذلك حتى النهاية. ذلك أنه متمكن من موضوعه فهو يريد أن يتحدث ويتحدث حتى تصبح كل نقطة صافية كالبلور. ومع ذلك فهو لا يستعمل التعابير الصاخبة الطنانة، ولا يتمدح بنفسه وبأعماله. على العكس، إنه متواضع أبداً، سريع إلى الاعتراف بأخطائه.

فهو مثلاً يقول:

- "أجل، لقد ارتكبنا بعض الأخطاء. ولكن عليكم أن تفهموا تاريخنا. فنحن المصريون قد عشنا طوال أجيال وأجيال تحت السيطرة الأجنبية. ولقد أورثنا ذلك عقدةً نفسية، مركب نقص...".

وقد حاولت مرةً أن أسأله عن الحياد الإيجابي، فقلت:

- "كيف تستطيع، من وجهة النظر الأخلاقية، أن تكون محايداً بين الغرب الديمقراطي، والعالم الشيوعي الأوتوقراطي...؟".

ولم يغضب من سؤالي، وأجابني في هدوء قائلاً:

- "أحسب أن كلمة حياد هذه غير دقيقة. إن التعبير الأصح هو عدم الانحياز. الحياد كلمة صيغت لأيام الحرب. لا تسيء فهمنا. لسنا محايدين أخلاقياً، ولكننا نتمسك بمبدأ عدم الانحياز لكي نستطيع أن نحكم على قضية دولية بحسب واقعها الذاتي، لا على أساس من ارتباطات معينة. ولولا أن أميركا كانت متمسكة بمبدأ عدم الانحياز إذن لكان في إمكانكم أن تقفوا موقفاً أكثر شجاعة من المسألة الجزائرية. ولكن تحالفكم مع فرنسا هو الذي يجعلكم غير قادرين على تأييد الحركة الوطنية في الجزائر".



وعبد الناصر ناجح في أحاديثه التلفازية إلى أبعد الحدود، فقد حدثني مرة فقال:

- "كنت في بادئ الأمر أكتب ما أريد أن أتحدث به في أثناء المقابلات التليفزيونية. وذات مرة حاولت أن أكتب ذلك على لوح أسود لكي يكون في ميسوري أن أقرأه من مسافة بعيدة بعض الشيء. ثم إن ويلسون هول مندوب إحدى الشركات التليفزيونية، اقترح عليّ أن أكف عن القراءة، وأن أتحدث في بساطة وعلى نحو مباشر، من غير حاجة إلى "رؤوس أقلام". ولقد اتبعت هذه الطريقة منذ ذلك الحين، وإني لأشعر الآن أنها أدعى إلى الارتياح".

والواقع أن هذا هو الذي يفسر الأثر الطيب الذي يتركه جمال عبد الناصر في نفوس مشاهدي التلفاز. ولقد قال أحد الدبلوماسيين الأميركيين مرةً:

- "لو ظهر جمال عبد الناصر على شاشة التليفزيون، في الولايات المتحدة الأميركية، ثلاث مرات في الأسبوع، إذن لاستطاع أن يضم إلى صفه الشعب الأميركي كله".

* * *

ومن سجايا عبد الناصر الرفيعة عدم حقده على إخوانه الذين خانوه. فخالد محيي الدين، وهو عضو في مجلس قيادة الثورة منذ أن كانت الثورة حلماً، حاول مرة ـم يقوم بانقلاب ضد عبد الناصر. وبدلاً من أن يعتقله عبد الناصر، أرسله في "مهمة خاصة" إلى أوروبا، على أن تدفع إليه رواتبه كاملة. وفيما بعد، رجع خالد محيي الدين إلى مصر، فعينه عبد الناصر رئيساً لتحرير صحيفة "المساء" المسائية. وحين أمسى صلاح سالم مثيراً للمتاعب أعفاه عبد الناصر من منصبه في الحكومة، ولكنه ما لبث أن عينه بعد بضعة أشهر رئيساً لتحرير جريدة "الشعب" الصباحية التي تدعمها الدولة.

إن أسلوب عبد الناصر في "تصفية" الأشخاص المثيرين للمتاعب يتلخص في إزاحتهم عن مراكز القوة إلى مراكز أقل أهمية، ولكنها ليست أقل ربحاً. وهكذا لا يؤذى أحداً، ولكن السلامة العامة تكون قد أصبحت في نجوة من أيما خطر يتهددها.

وعبد الناصر لا يبالي بسلامته الشخصية، فهو كثيراً ما يظهر في الاجتماعات العامة، بحيث يكون في ميسور نفر من الحشود المجتمعة أن يندفعوا نحوه ويعانقوه، ويقبلوه، قبل أن يعرف حرسه ما الذي يحدث.

وقد حدثني ضابط من ضباط المباحث المصرية عن اللامبالاة التي يبديها جمال عبد الناصر بمشكلة الحراسة هذه، فقال:

- "في أثناء الاعتداء الإنكليزي الفرنسي على مصر في مطلع عام ١٩٥٦ تلفنت إلى قصر الرئاسة، ونصحت سيادة الرئيس بأن يأمر بتقوية إجراءات الحراسة، فقال إنه سوف يفكر في المسألة. وبعد ساعتين اثنتين أطللت من النافذة فوجدته راكباً سيارة مكشوفة من غير حراسة تقريباً".

وعلى الرغم من أن عبد الناصر حرص على أن تكون ثورته بيضاء لا تسفك فيها قطرة واحدة من الدم فإنه قد أظهر لا هوادة في معاملة خصومه عند الحاجة. وهذا نراه في موقفه من الإخوان المسلمين في أواخر عام ١٩٥٤ وأوائل عام ١٩٥٥.

وهذا الموقف الصارم نفسه وقفه عبد الناصر في أواخر عام ١٩٥٥، عندما احتج زعماء الكاثوليك على إلغائه محاكمهم الدينية. وإنما كان المقصد الرئيسي من ذلك توحيد القضاء المصري وإفراغه في قالب عصري جديد، ولكن رجال الكنيسة اعتبروا ذلك عملاً معادياً للنصرانية. وعلى سبيل الاحتجاج قررت الكنائس الكاثوليكية الامتناع عن إقامة قداديسها في ذلك العام. فما كان من عبد الناصر إلا أن بعث بهذه الرسالة الشفهية إلى بعض الأساقفة:

- "دعوني أؤكد لكم أننا لن نتسامح بالتعصب الديني، من أية جهة جاء. لقد حاول الإخوان المسلمون ذلك، وأنتم تعلمون ما الذي فعلناه. تذكروا جيداً أنكم لستم على أية حال من القوة بقدر ما كان الإخوان المسلمون أقوياء".

وفي هدوء، تراجع زعماء الكنيسة، وسحبوا احتجاجهم.

* * *

وعبد الناصر يؤمن إيماناً وطيداً بأنه صاحب قضية عادلة حقة مئة بالمئة، وهذا ما يجعله واثقاً من نفسه ثابتاً في أسوأ الأزمات التي ترتعد فيها فرائص الصناديد من الرجال. والمصريون معجبون بأعصاب عبد الناصر الفولاذية، فالجزع لا يعرف سبيلاً إلى فؤاده في أيام الأزمة مهما تكن المخاطر شديدة. وهذه "الأعصاب الفولاذية" أسدت إلى مصر خدمة جليلة في خريف عام ١٩٥٥، يوم كانت الحوادث التي افتعلها اليهود على الحدود المصرية الإسرائيلية جديرة بأن تجعل أي شخص آخر يتردد في الرد على العنف بالعنف قبل اكتمال الاستعداد. وفي أكثر من مرة تلقى عبد الناصر نداءات هاتفية من القائد العام لجيشه، عبد الحكيم عامر.

فكان عبد الناصر يجيبه دائماً بقوله:

- "تذرع بالصبر وضبط النفس. لا تهاجم".

لقد أدرك عبد الناصر أنه لم يكن على استعداد. إنه لم يكن يريد أن يزج بجيشه، كما فعل فاروق، في حرب لم يتم استعداده لها.

وأبلغ من ذلك موقف عبد الناصر عام ١٩٥٦ خلال أزمة السويس. ففي وجه العدوان العسكري البريطاني الفرنسي احتفظ عبد الناصر برباطة جأشه. ولقد أثر ذلك في نفسية السكان المدنيين أيضاً، فاحتفظوا هم أيضاً برباطة الجأش، وضبط النفس.



(٥)

محمد نجيب



لقد قام عبد الناصر بخطة بارعة لخلع فاروق، ولكنه وجد نفسه دونها خطة لحكم مصر بعد الانقلاب. كانت عصبة الضباط الشباب قد افترضت بسلامة قلب أن أسوأ الأمور سيزول عندما تتحرر مصر من حكم "الأجانب المتنكرين"، ومن الملكية وبطانتها. لقد حملوا على الحواجز والسدود، مفترضين أن الأمة كلها ستسير في أثرهم، ولكنهم عندما اقتحموا هذه الحواجز والسدود تطلعوا إلى الوراء فلم يجدوا في أثرهم أحداً.

وكان من أول أفعال الثورة أنها دعت إلى رئاسة الوزارة رجل دولة قديراً مجرباً هو علي ماهر. كان الضباط الشباب ما يزالون يتوهمون أنهم سيجدون عدداً كافياً من السياسيين المجربين المتفانين لإدارة البلاد في ظل حماية جيش بقيادة محمد نجيب.

وكان ابن فاروق الطفل، أحمد فؤاد، ما يزال ملك مصر اسمياً، ولكن السلطات الملكية كانت في يد مجلس للوصاية مؤلف من الأمير عبد المنعم، أحد أفراد الأسرة المالكة الأكثر شعبية، ومن رجل الدولة بهاء الدين بركات، والقائمقام رشاد مهنا الذي لم يكن عضواً في هيئة الضباط الأحرار، بل زعيماً لعصبة عسكرية أخرى كانت أهدافها قريبة جداً من أهداف رفاق عبد الناصر.

ولكن هذا النظام لم يدم طويلاً، فقد سعى الضباط الأحرار عبثاً إلى إيجاد سياسيين يمكن ائتمانهم، ووجد عبد الناصر نفسه وجهاً لوجه أمام خلة مصرية مقلقة ومنتشرة، أمام نوع من "الأنانية". كان السياسيون الذين قابلهم عبد الناصر مليئين بالأثرة والأنانية، وكانوا لا يستعملون إلا ضمير الجمع للمتكلم، ولا يذكرون أحداً من زملائهم بالخير.

ولم تمض بضعة أشهر حتى استقال علي ماهر من رئاسة الوزارة، وخلفه محمد نجيب. أما عبد الناصر فقد أصبح أولاً وزيراً للداخلية ومن بعد نائباً لرئيس الوزراء. وتسلم ضباط أحرار آخرون مناصب وزارية، وانحل مجلس الوصاية، ثم اتهم القائمقام مهنا

بتدبير انقلاب في تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٥٢ وحكم عليه بالسجن مدى الحياة. وفي شهر حزيران (يونيو) ١٩٥٣ ألغيت الملكية نهائياً ونصب محمد نجيب رئيساً للجمهورية.

كانت مصر الآن تعيش دون مجلس للنواب ودون دستور. وقد وعد عبد الناصر بالعودة إلى الحياة الدستورية بعد فترة انتقال، وعين لجنة لوضع دستور جديد. وفي هذه الأثناء لم يكن هناك أحزاب سياسية، وكانت حياةُ البلاد السياسية توجه من قبل جماعة الضباط الصغيرة حول عبد الناصر، أولئك الضباط الذين كانوا يدعون أنفسهم مجلس قيادة الثورة.

لقد وُجد مجلس قيادة الثورة بعد الثورة بأقل من شهر واحد، فحل بذلك محل اللجنة التنفيذية القديمة للضباط الأحرار. وقد جيء بمحمد نجيب رئيساً لهذا المجلس، وكان عبد الناصر نائباً للرئيس. وفي بداية الأمر كان المجلس يتألف من ثلاثة عشر عضواً، ولكن اثنين نزعت منهما العضوية في الأيام الأولى من الثورة. هذه الجماعة كانت تملك السلطة المطلقة في مصر. كان باستطاعة الوزارة أن تصدر المراسيم، ولكن هذه المراسيم كان يجب أن تقترن بموافقة مجلس قيادة الثورة.

واتخذ مجلس قيادة الثورة مقره في بناء في الجزيرة في قلب النيل، كان فاروق يستعمله من قبل مرسى ليخته النهري. ولهذا البناء منارة يخيل إلى الناظر إليها أنها مئذنة مسجد قابع وسط أشجار نخيل مهيبة في بقعة هادئة. في هذا المكان بالذات كان شبان مصر الأحد عشر يجتمعون مع محمد نجيب ويستعرضون المشاكلات المعقدة الشاملة التي كانت تواجه مصر الثورة. كان لمحمد نجيب صوتان اثنان، وكان لكل واحد من الباقين صوت واحد، فبعد مناقشة حامية الوطيس حول قضية ما، كانت الأصوات تؤخذ ويُعملُ برأي الأكثرية.

كان مجلس قيادة الثورة يجتمع بصورة دائمة تقريباً في الليل، ولهذا سبب وجيه هو جو القاهرة. فالنهار شديد الحرارة إلى درجة مزعجة طيلة ستة أشهر في السنة، ولكن الليالي

باردة ومنعشة دائماً. ومثل عبد الناصر نفسه كان معظم الضباط الشباب يحبون العمل في الليل، وكانت اجتماعاتهم في العادة تستمر حتى الساعة الثالثة أو الرابعة من الصباح.

كانت الاجتماعات تعقد بصورة غير رسمية، وكانت تتخذ طابع اجتماع في نادي الضباط بأكثر مما كانت تتخذ طابع اجتماع للهيئة العليا الحاكمة في مصر. كان من شأن بعض الضباط أن يتمشوا في القاعة، في حين يتكيء آخرون إلى المائدة يحتسون القهوة. كانت هناك مناقشات حادة، وصراخ وضرب على الطاولة، وتهديدات بالانسحاب، ولكن التناغم كان يعود في النهاية بعد إحصاء الأصوات، ويعود الهدوء إلى سابق عهده. وكان واضحاً منذ أيام الثورة الأولى أن عبد الناصر كان رجل الحركة القوي، ولكن الرجال الذين كانوا معه في مجلس قيادة الثورة لم يكونوا مجرد آلات صماء، بل كانوا أفراداً ذوي إرادات قوية وآراء خاصة بهم.

كان من أبرز شخصيات المجلس البكباشي أنور السادات، الرجل الذي يبلغ تفانيه في سبيل الثورة حد التعصب. ولقد وجد نفسه مؤخراً يقوم بدور توسيع الثورة إلى ما وراء حدود مصر بوصفه شخصية بارزة في لجنة التضامن الآسيوي الأفريقي، ومقرها القاهرة. وأنور السادات بالغ الحساسية إزاء أي تساهل من جانب الغرب. لقد رأيته يصرخ قائلاً إن مصر تفضل أن تجوع على أن "تقبل مساعدة مشروطة من الغرب". فإذا سألته ماذ يعني بالشروط بدا لك أنه ليست واضحة لديه، ولكنه قال فعلاً ذات مرة: "أعني بالشروط أي شرط لا تضعونه لمساعدة بريطانيا أو فرنسا".

بكلمة أخرى، إنه يريد مصر أن تعامل بالاحترام نفسه الذي تُعامل به الدول الأوروبية الغربية، وهو مستعد لأن يحارب حتى النهاية ضد التعاون مع الغرب على أي أساس آخر. قد يبدو هذا جنونياً، ولكني واثق كل الثقة من إخلاصه حول هذه النقطة.

وفي المجلس كان هناك عضوان متعبان هما الشقيقان قائد الجناح جمال سالم والصاغ صلاح سالم. كان كل منهما شاباً حاد المزاج متشبثاً برأيه إلى درجة قصوى. وكان جمال سالم

قد اكتسب شعبية واسعة في أوائل العهد، وعرف بقدرته على إدارة برنامج إصلاح الأراضي.

أما صلاح سالم فقد اكتسب شهرته عندما ذهب إلى جنوبي السودان وتعرى إلا من ثيابه الداخلية، وشرع يرقص مع زعماء القبائل الذين كانت مصر تتودد إليهم في ذلك الحين، مما أكسبه شهرة عالمية وأطلق عليه لقب "الصاغ الراقص". كان صلاح سالم مجداً لا يعرف معنى للكلل، ولقد انهار مرة بعد أن ظل يعمل دون انقطاع أو نوم طيلة اثنتين وسبعين ساعة، ولكنه كان معجباً بنفسه إلى درجة لا تصدق، وكان يخلق لنفسه الأعداء بصورة سريعة، وتخاصم في النهاية مع زملائه أعضاء مجلس قيادة الثورة فأخرج من المجلس.

أما زكريا محيي الدين فقد كان أقل نبوغاً وإنما أكثر ثباتاً، وأنشأ إدارة فعالة في وزارة الداخلية. وأما عبد اللطيف البغدادي فقد كان كفئاً وقديراً، وكثيراً ما يشار إليه بخليفة عبد الناصر. وكان هناك كمال الدين حسين، الثوري المتفاني. وعبد الحكيم عامر، صديق عبد الناصر طول حياته، والذي يُعتبر إخلاصه وولاؤه أول مزاياه. وحسين الشافعي، الرجل الفعّال في وزارة الشؤون الاجتماعية. وحسن إبراهيم الذي ما يزال على رأس مؤسسة عبد الناصر الاقتصادية الهائلة.

وكان من مشاكل المجلس الكبرى خالد محيي الدين الملقب بالصاغ الأحمر، وهو ابن عم زكريا محيي الدين. إن خالداً شابٌ لطيف رقيق مرحٌ عرضَ في أوائل أيام الثورة أن يستقيل من هيئة الضباط الأحرار بسبب اعتناقه الماركسية، ولكن الضباط الآخرين رفضوا استقالته لأنهم كانوا قد صمموا على استبعاد معتقداتهم السياسية الشخصية لصالح الأهداف الوطنية الأوسع، وفي النهاية شرعت آراء خالد السياسية في إثارة المتاعب.

هؤلاء هم الشبان الذين أقدموا على مهمة حكم مصر، والذين سريعاً ما اكتسبوا شهرة المصلحين. وبالرغم من أنهم لم تكن لديهم أية خطة لحكم مصر عندما استولوا على

السلطة، فإنهم سريعاً ما وضعوا منهجاً لإجراء إصلاحات عاجلة سلطت عليهم انتباه العالم كله. إن كل مفكر في مصر سبق له أن قدم أي مشروع للإصلاح – في الثقافة أو الشؤون الاجتماعية أو التصنيع – قد سنحت فرصته الآن، فالمشاريع التي رقدت على الرفوف عقوداً من السنين نفض عنها الآن غبارها ووضعت موضع التنفيذ.

هذا البرنامج الإصلاحي الطموح قد ضلل الكثيرين من المراقبين. كان هناك ميل في تلك الأيام إلى اعتبار عبد الناصر وجماعته مصلحين اقتصاديين في الدرجة الأولى، مهتمين في الأساس برفع مستوى المعيشة داخل مصر. وهذا هو السبب الذي من أجله عجب الكثيرون في السنوات التالية من تخلي عبد الناصر في الظاهر عن برنامجه الإصلاحي الداخلي وإقدامه على المغامرات الدولية. لقد بدا وكأن عبد الناصر قد تبدل تبدلاً قوياً من عام ١٩٥٢ إلى عام ١٩٥٦.

إنني أعتقد أن عبد الناصر لم يتبدل إطلاقاً، وإنه ظل منسجماً ثابتاً على خطته ثباتاً تاماً. إن الإصلاحات الاقتصادية لم تكن في نظره ونظر رفاقه غاية في حد ذاتها، بل كانت وسيلة لغاية. كان خطأً فادحاً مساواة عبد الناصر بمصلحي الغرب الذين يفكرون قبل كل شيء بمستويات المعيشة، وانعدام البطالة، والإنتاج، والقوة الشرائية. هذه الاعتبارات ثانوية في الشرق الأوسط؛ تطغى عليها العوامل السياسية والنفسانية، وعبد الناصر لا يشكل خروجاً على هذه القاعدة.

غير أن هم عبد الناصر الأول، من عام ١٩٥٢ حتى ١٩٥٤، إنما كان الإصلاح الداخلي، لسببين اثنين:

أولاً: كانت بعض الإصلاحات ضرورية للقضاء على قوة "الأجانب المتنكرين" والأسرة المالكة والإقطاعيين. كان عبد الناصر قد خلع فاروق وألغى الملكية سريعاً بعد ذلك، ولكن هذه لم تكن سوى البداية. كانت الأريستوقراطية الإقطاعية ما تزال تسيطر على الأمة اقتصادياً، ولو أنها ظلت في مثل هذا المركز القوي إذن لبقيت خطراً دائماً يهدد الثورة.

ولقد وجه عبد الناصر ضربته إلى هذه الفئة بطريقتين: صادر فوراً أملاك أسرة محمد علي، وأسرة فاروق، وأصدر قانون إصلاح الأراضي المشهور الذي جعل الحد الأقصى لمساحة الممتلكات من الأراضي مئتي فدان، أما ما يزيد عن هذا الحد الأقصى-فيجب أن يباع إلى الفلاحين لحرثه واستغلال خيراته.

ولقد أوجد قادة الثورة مبرراً فريداً لمصادرة أملاك أسرة محمد علي. وكان أساس هذا المبرر أن محمد علي إنما جاء إلى مصر فاتحاً أجنبياً (كان محمد علي تركياً)، وأنه كان قد استولى على الأراضي من المصريين وأقطعها عائلته وأصحاب الحظوة لديه. وكانت حجة قادة الثورة إنهم بمصادرتهم هذه الأراضي وتسليمها إلى الفلاحين لم يفعلوا أكثر من استعادة ما سرقه المحتلون الأجانب من مصر. وقد كان لهذا التدبير أثر فعال، ذلك أنه قضى على أيما سلطة أو نفوذ يمكن أن يكون قد بقي للأسرة المالكة، فأولئك الذين سبق لهم أن عاشوا حياة من الترف والبحبوحة لا حد لها، وفوق القانون قبل كل شيء آخر، وجدوا أنفسهم فقراء مقيدين بقوانين وأنظمة صارمة.

أعرف امرأة شابة من أصل تركي في القاهرة تزوجت أميراً من أسرة محمد علي منذ خمسة عشر عاماً تقريباً. كان زوجها يقدم لها كل ما كان باستطاعة المال أن يشتريه. كانا يقضيان كل أوقاتها تقريباً في أوروبا، ولا يزوران مصر إلا لينفقا فيها أقل وقت يتطلبه تعهد شؤونها. أما اليوم فإن الأمير لا يملك سوى معاش تقاعدي يبلغ خمسين جنيهاً في الشهر. لقد جاوز الستين من عمره، ولم يعمل يوماً واحداً في حياته، ولا يصلح لأي نوع من أنواع الاستخدام، وهو لا يعرف من العربية إلا قدراً ضئيلاً جداً بحيث أنه لا محل له في الحياة المصرية، ولكن أقارب زوجته يسلفونه مبالغ صغيرة من المال بين حين وآخر كيما يعيش.

هذه القصة نفسها قد تكررت مرات عديدة جداً في حياة العديد من الأمراء والأميرات. صحيح إن بعضاً منهم كانوا ذوي نظر بعيد فوضعوا بعض المال في الخارج،

ولكن أولئك الذين لم يفعلوا وجدوا أنفسهم مضطرين إلى إجراء تعديل مؤلم في نمط حياتهم.

واستولت الثورة على قصور الملك فاروق وحولتها إلى متاحف أو أبنية حكومية. أما يخته النهري فقد حول إلى ناد ليلي عائم لاجتذاب السياح. وهنالك العديد من الفيلات التي كانت تخص أفراد الأسرة المالكة حولت إلى مدارس ومستشفيات، وأقيمت المزادات العلنية الدولية لبيع الكنوز والمجموعات الفنية التي لا تقدر بثمن. وشرعت أفواج من الزوار الفضوليين في ارتياد قصور فاروق كيما تقف على لمحاتٍ حية من الحياة التي كان يحياها فاروق وناريمان في حياتهما الأخيرة. وإلى جانب فراش ناريمان كانت هناك نسخة من كتاب "عشيق لايدى تشارلي" الذي يعتقد أنها كانت تقرأ فيه عند تنازل فاروق عن العرش. أما جناح فاروق فقد كان مزيناً برسوم الفتيات الجميلات... كانت جميعها موقعة، وإلى جانب التوقيع ذكر لتاريخ لقائها بالملك.

لقد بذل قادة الثورة جهدهم إعادة هذه الثروة الفادحة إلى الفلاحين. كانت الأموال المصادرة تستعمل لتمويل مشروع قروى فريد من نوعه يعرف بـ "مركز الخدمات المجمعة". وكانت هذه المراكز موزعة حسب عدد السكان على طول وادي النيل.

كان قانون إصلاح الأراضي الشهير الذي أصدره عبد الناصر إصلاحاً سياسياً أكثر منه إصلاحاً اقتصادياً. فبضربة واحدة قضى القانون عملياً على طبقة أصحاب الأراضي المصريين الذين حكموا البلاد واستغلوها كل ذلك الوقت الطويل. لقد جعل القانون الحد الأقصى لمساحة الأرض مئتي فدان، وكل ما زاد عن ذلك استولت عليه الحكومة وباعته إلى الفلاحين قطعاً صغيرة، وشرعت في دفع أثمان الأراضي المصادرة من أصحابها أقساطاً تمتد إلى مدة طويلة من السنين.

لقد سخر الكثيرون من هذا القانون، ولكن هؤلاء افترضوا أن عبد الناصر قد أصدر القانون كيما يحل مشكلة الفلاحين الذين لم يكونوا يملكون أيما قطعة من الأرض. الواقع

إن أكثر من نصف مليون فلاح مصري أفادوا من توزيع الأراضي. ولكن العون الذي تلقوه كان نوعاً ما عرضياً بالنسبة إلى الغاية الأساسية من القانون، ألا وهي القضاء على قوة الإقطاعية. إن قادة الثورة لم يدعوا يوماً أن توزيع الأراضي هو الوسيلة الناجحة لسد حاجة الفلاحين إلى أراض زراعية يمتلكونها، بل إنهم يلحون على أن العلاج الوحيد لذلك المرض إنما هو زيادة مساحة الأراضي الزراعية في مصر.

أذكر أنني حضرت مرةً حفلة نموذجية لتوزيع الأراضي في منطقة الفيوم. ولقد أقيمت الحفلة أمام الفيلا التي كانت تخص فيما مضى مالكاً فاحش الثراء. والحديقة التي كانت أمام الفيلا، والتي كانت تتعهدها الأيدي بالتنظيم والرعاية، كانت مزدحمة بالفلاحين، بجلابيبهم وعماماتهم. كانوا في عيد، وكان اثنان منهم يعزفان موسيقى إيقاعية بطبلٍ جلدى ومزمار من قصب، بينما انصرف آخران إلى رقصة السيف ضمن حلقة من الفلاحين، وكانت الصيحات تتعالى بين حين وآخر: "يعيش جمال!".

هذه الفيلا استولت عليها دائرة الإصلاح الزراعي وجعلتها مكتباً مؤقتاً. فأما القاعات والصالونات الرحبة التي كانت فيما مضى مفروشة بالسجاد والأثاث فقد كانت الآن عارية إلا من بضعة كراس مستوية الظهر وطاولة زرية أو نحو ذلك. وإذا نظرتُ إلى الغرف العارية وأصيغتُ إلى هتافات الفلاحين في الخارج، ذكرتُ أن هذا المنزل كان مسرحاً لكثير من حفلات الأنس واللهو للأريستوقراطية المصرية، وكعبة للضيوف الوافدين من القاهرة في آخر كل أسبوع. ولعل سفير الأرجنتين أو قضاة المحاكم المختلطة أو القنصل البلجيكي العام كانوا من الضيوف. كانت الحفلات الراقصة تمتد في مثل هذه البيوت حتى ساعة متأخرة جداً من الليل، وكان بوسع الضيوف ألا يبقوا طيلة الصيف، إذا كان لديهم متسع من الوقت.

ولكن كل ذلك قد انقضى الآن ، لقد عدت من الصالون العارى وخرجت إلى نور الشمس الساطع فى الممر الأمامى حيث كان الفلاحون يقفون فى صف يزداد طولاً شيئاً

فشيئاً، حتى إذا نودى على الفلاح باسمه تقدم لأخذ الصك الذى يجعله، لأول مرة فى حياته، مالكاً لأرض.

ولقد تبادلنا تسليم الصكوك، وعندما جاء دورى شعرت بقشعريرة نادرة. كنت أناول الفلاح الورقة الكبيرة الجافة بيد واحدة، وأصافحه مهنئاً باليد الأخرى، وكان الفلاحون بادى التأثر وهم يتناولون الصكوك، وبعضهم قبل يدى وبكى (كأنني كنت أنا واهب الأرض!). وعندما تقدمت أرملة عجوز لأخذ الصك باسم زوجها المتوفى وضعت يدها على جانب رأسها، ثم رفعته وأطلقت "زغرودة" عالية كتلك التي تطلقها النساء المصريات في الأعراس وغيرها من المناسبات السعيدة. هؤلاء الناس كانوا يحصلون على قطع صغيرة من الأرض – ثلاثة أفدنة أو أربعة لكل منهم – ولكنها كانت أرضاً، وكانت ملكاً لهم. وليست هناك طريقة للتعبير الدقيق باللغة الإنكليزية عن الشعور الذي تحركه ملكية تلك القطعة الصغيرة من الأرض في صدر المصري، ولذا لن أحاول أن أفعل هذا.

وما إن يحصل هؤلاء القوم على أرضهم حتى يغدوا موضع إشراف دقيق من جانب الحكومة. فالفلاحون في كل منطقة من الأرض منظمون في تعاونيات، وبصورة خاصة لتمكينهم من الحصول على الآلات الزراعية الحديثة. إن قطعهم الصغيرة مرتبة بحيث أن جميع الأراضي التي تزرع قطناً تجمع في منطقة واحدة، والتي تزرع قمحاً في منطقة أخرى. وهكذا، بهذه الطريقة، تصبح المنطقة المزروعة بنوع واحدٍ من الكبر بحيث يمكن استخدام الآلات الحديثة فيها بصورة فعالة مجدية. كذلك هناك رقابات صارمة على ما يجب أن يزرعه الفلاح في وقتٍ ما، وعلى الكيفية التي يجب أن يسوِّد بها أرضه، وأن يستنزف مياهها وينظف أقنية ريه، وفوق كل شيء على الكيفية التي يجب أن يسدد بها ما عليه من مدفوعات.

هذا النظام القاسي لا يعجب الفلاح الذي يحب الحياة السهلة. في الأيام القديمة، إذا تأخر مالياً، كان بوسعه أن يقترض من مالك الأرض، أو من مرابي القرية بفائدة خيالية.

كان يغرق ويغرق في الدين، ولكنه لم يكن مستعجلاً أبداً للتقيد ببرنامج محدد. والفلاح أيضاً مزارع عنيد ويكره أن تفرض عليه طرق جديدة.

أن لا أستطيع أن أتنبأ بشيء عن نجاح منهاج إصلاح الأراضي أو فشله في المستقبل كتجربة لتحسين أحوال سكان مصر الزراعيين، غير أنه ليس بوسع أحد أن ينكر نجاحه إذا ما قيس بغايته الأساسية التي هى تحطيم قوة أصحاب الأراضي الإقطاعيين. لقد غربت شمسهم، ولعل من المهم أن نذكر أن من بين أصحاب الأراضي الذين تأثروا قبل غيرهم إقطاعيي "بني مر".

وهناك سبب ثانٍ مهم للإصلاح الاقتصادي وهو مساعدة المصريين على التخلص من الذل الذي يصاحب الفقر. لقد عاش المصريون مع الفقر آلافاً من السنين، وكان بوسعهم أن يعيشوا معه آلافاً أخرى. ولكن فقرهم في القرن العشرين قد أصبح مكشوفاً لعيون الغرب، وهم خجلون به. إن المصريين خجلون من فلاحيهم الحفاة الأقدام، ومن حميرهم وعنزاتهم في الشوارع الرئيسية. إنهم يرتعدون ويرتعشون وتقشعر منهم الأبدان لدى سماعهم كلمة "متخلفين" أو "ناقصي التطور"، وأكثر من كل شيء كلمة "غير متمدنين".

إن كل من حاول التقاط رسوم في مصر يفهم هذه النقاط فهماً جيداً. إن المصريين يحبون أن تلتقط رسوماً لمصنع النسيج والغزل الجميل في المحلة الكبرى – وهو من أجمل المصانع في العالم – أو لمشروع كهربة خزان أسوان، أو لفنادقهم الجديدة وبولفاراتهم الجميلة في القاهرة، ولكنهم يشمئزون ويكرهون أن تحاول تصوير الحياة الغريبة في القرى.

* * *

كذلك يخجل المصريون الحديثون من افتقارهم إلى المهارة الفنية الصناعية. إن المصريين، شأن معظم الشعوب الشرقية، يستطيعون أن يشيروا إلى تراثهم الثقافي

الخصب، إلى كتابهم، وفنانيهم، وشعرائهم، إلى مهاراتهم في الزراعة وتربية الحيوانات، غير أنه ما من قدرٍ من الكلام أو الخطب الوطنية يمكن أن يخفي المهارات التقنية الحديثة التي يتفوق بها الغرب على الشرق. قد يشتري أحد المصريين سيارة، وقد يتعلم قيادتها وإصلاحها، ولكنه يعرف أنه لا يستطيع صنعها، وإلى أن يعرف كيف يصنع سيارة بالمهارة نفسها التي يقودها بها فإنه سيشعر بأنه دون الغرب. إذن فإن منهاج عبد الناصر في الإصلاح الاقتصادي قد وضع للتغلب على هذا الشعور الوطني بالنقص الذي تخلقه الأقدام العارية والافتقار إلى المهارات الحديثة؛ وليس من ينكر أنه كان لها هذا التأثير في المصريين.

ومن أشهر المشاريع الأولى المشروع المعروف بمديرية التحرير. لقد قدمت الحكومة اعتمادات سخية وعينت شخصاً متفانياً قديراً يدعى مجدي حسنين لرئاسة المؤسسة. كانت الخطة تقضي بإنشاء مشروع يعيد فعلاً خلق الفلاح في جو جديد كلياً، وإن من شأن مشروع مديرية التحرير أن يكون نموذجاً لما يمكن أن تكونه مصر.

لقد اختيرت قطعة من الصحراء تماماً إلى الغرب من طريق القاهرة – الإسكندرية كموقع للمشروع، وجُرَّت المياه في أقنيةٍ ملأت الصحراء بالحياة، وجيء إلى المديرية بفلاحين اختيروا بعناية فائقة، وألبسوا ثياب العمل والأحذية والطاقيات ودربوا على صناعات القرى والأمور الصحية وزراعة المحاصيل المختبرية، وهكذا أصبحت مديرية التحرير مزرعة نموذجية، وأصبحت الرحلة إلى هناك، بترتيب من وزارة الأنباء المصرية، جزءاً من برنامج كل صحافي يزور مصر، وأصبحت تعرف برمز الإصلاحات التي حمل لواءها العهد الجديد.

ولكن مسألة مديرية التحرير انفجرت، أو كادت، في شهر تشرين الثاني عام ١٩٥٧. كان البرلمان الأول الذي انتخب في أيام عبد الناصر في دورته؛ وطلب فريق من النواب إجراء تحقيق سريع في مديرية التحرير، واتهم النواب المؤسسة بالفساد، وشكوا من أن مبالغ باهظة من المال تبدد على تجارب غير عملية.

عند ذلك عزل عبد الناصر مجدي حسنين من منصبه، ودمج مديرية التحرير بوزارة الزراعة ولكن النواب طالبوا باتخاذ إجراء أقوى بحق رؤساء المؤسسة، وعقد البرلمان اجتماعاً سرياً عاصفاً قدم خلاله رئيس المجلس عبد اللطيف البغدادي ووزير التربية كمال الدين حسين استقالتهما. وفي نهاية الأمر استخدم عبد الناصر نفوذه الشخصي لتهدئة جميع الفرقاء، وطويت قضية مديرية التحرير.

لقد بدا للعالم الخارجي أن مشروع عبد الناصر المفضل للإصلاح الزراعي قد منى بالفشل. قد يكون هذا صحيحاً بالمعنى الاقتصادي الصرف، ولكن مديرية التحرير قد حققت الغرض منها من حيث ثورة عبد الناصر. إنها ما تزال عنواناً للمستقبل، والفلاحون يستطيعون أن يروها ليفهموا ما يمكن أن يكونوه هم أنفسهم في يوم من الأيام، فضلاً عن أنها تبين لجميع المصريين أن من الممكن للفلاحين أن يلبسوا الأحذية في أقدامهم، وأن يرفعوا رؤوسهم عالياً.

ولقد كانت هناك مشاريع أخرى أقل ظهوراً وأكثر دواماً من مديرية التحرير. تلك كانت مشاريع إصلاح الأراضي الكثيرة التي طبقها نظام عبد الناصر، ومن أبرزها مشاريع تجفيف المستنقعات إلى الشرق من الإسكندرية في الدلتا السفلى، وإلى جانبها سارت مشاريع إصلاحية زراعية عامة، وكان من أعظم المشاريع فائدة مباشرة تحديد إيجارات الأراضي، فلقد حدد القانون إيجار الأرض بسبعة أضعاف الضريبة السنوية على الفدان الواحد، وهكذا لم يعد الفلاح، لأول مرة، تحت رحمة مالك الأرض من حيث الإيجار الذي يتوجب عليه دفعه.

كذلك جربت مشاريع لبناء المساكن. وفي بعض هذه المشاريع حلت المساكن المبنية بالأسمنت محل المساكن المبنية بالطين، غير أن الفلاحين ألحوا على نقطة واحدة: يجب أن تنام الحيوانات داخل البيت، شأنها دائماً. ومن المزايا الفريدة لأحد هذه المشاريع أن مدخلاً مستقلاً أفرد للجاموسة وفي بعض المشاريع الأخرى اشتكى الفلاحون من أن السقوف كانت منخفضة بحيث لا تسمح للجمل بأن يقف في الداخل.

وانتشرت روح جديدة من العدالة في المناطق الريفية في ظل الثورة. وقد انعكست هذه الروح في شكاوى أصحاب الأراضي بأكثر مما انعكست في ردود الفعل لدى الفلاحين. اشتكى أحد المالكين في الدلتا ذات مرة بمرارة فقال:

- "لقد كنت مالكاً لأرضي هنا طيلة ثلاثين عاماً، وطيلة ثلاثين عاماً لم يجرؤ فلاحٌ واحد على أن يقيم دعوى عليَّ. غير أنه منذ قيام هذه الثورة أقام عليَّ هؤلاء الفلاحون الدعاوى بمعدل خمس كل سنة. إنها البلشفية!".

هذا الشعور المتزايد بالعدالة إنما تعكسه قضية فلاح يدعى **أحمد شاهدي**. هذا الشاب براق العينين لم يكن أكثر من عبد في أيام ما قبل الثورة على أرض الأمير طوسون، أحد أقرباء فاروق. لم يكن **أحمد شاهدي** يملك أية قطعة من الأرض، وكان يعمل على أساس المشاركة في أرض الأمير. وعندما صودرت هذه الأرض وقسمت بين الفلاحين كان نصيب **أحمد شاهدي** ثلاثة أفدنة فأصبح هو نفسه مالكاً نشيطاً في تعاونية قريته، وسريعاً ما أظهر مواهب سياسية. وعندما جرت الانتخابات النيابية في سنة ١٩٥٧ تجرأ **أحمد شاهدي** ورشح نفسه لها، وكان أحد خصومه وكيلاً لإحدى الوزارات الحكومية، وكان يعتبر الشخص المفضل من قبل الحكومة، ولكن الفلاح الصغير هو الذي ربح واتخذ مقعده في مجلس النواب وهو يرتدي جلبابه الجديد وعمامته البيضاء.

وعممت الثورة الإصلاحات الطبية، وكررت مياه الشرب ودفعتها إلى كثير من القرى في الدلتا. ولأول مرة في التاريخ ذاق الفلاحون المياه صافية من طين النيل.

أما وزارة الثقافة فقد سارت بأقصى سرعة ممكنة وحققت برنامجاً طموحاً يقضي ببناء "مدرسة واحدة كل يوم"، أي ٣٦٥ مدرسة في السنة. لقد صادرت الحكومة كل "فيلا" لا يشغلها أصحابها وحولتها إلى مدرسة.

ولكن مشاريع التصنيع كانت أهم من كل هذه الإصلاحات الاجتماعية. قد تكون الصناعات الخفيفة عملية ومستحسنة، غير أنه ما من وطني مصري كان باستطاعته أن

يكون سعيداً دونها صناعة ثقيلة. كان وجود مصنع للحديد والفولاذ ضرورة بالنسبة إلى مصر الجديدة.

المعروف أن رواسب الحديد الخام موجودة منذ قرون في مصر العليا بالقرب من أسوان، ولكن هذه الرواسب ظلت كما هي دون أن تمسها يد إنسان طيلة سيطرة الأوروبيين على مصر. كانت حجة المستشارين الأوروبيين أن خلو مصر من الفحم الحجري يجعلُ صناعة الفولاذ باهظة التكاليف. وبسبب من المسافة الطويلة التي تفصل الحديد الخام عن الأسواق افتُرِض أنه لا يمكن تصديره بأسعار ملائمة. ولكن ما إن استلم الضباط الشباب زمام السلطة حتى أعدت التصاميم لبناء مصنع للحديد والفولاذ. وبسبب من أن الفحم لابد من استيراده من أوروبا فقد بنى المصنع في حلوان بالقرب من القاهرة وغير بعيد من البحر، على أن يجلب الحديد الخام من أسوان بالسكة الحديدية. وتقدم العمل في المصنع، وفي شهر كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٥٨ غادرت أول شحنة من الحديد الخام أسوان إلى حلوان.

قد يقول الاقتصاديون إن استيراد الفولاذ المصنوع أوفر من استيراد المواد الأولية لصنع الفولاذ في مصر، ولكن النقطة هي أن الاقتصاديين لا يفهمون أهمية إدراك المصريين أنهم يصنعون الفولاذ من الحديد المستخرج من مناجم مصر، بالنسبة إلى الروح الوطنية المصرية.

كذلك كانت مصانع السلاح من الوسائل التي رُفعت بها معنويات المصريين. في الأيام الأولى من الثورة أعدت الترتيبات لإنشاء مصانع لصنع طائرات التدريب والأسلحة الصغيرة. وجاء في بلاغ رسمي أن مصر ستتمكن من سد حاجاتها إلى الذخيرة، وأن مقادير كافية ستتوفر لديها للتصدير إلى البلدان العربية الأخرى. ولقد أخذ الوطنيون الشباب هذا البلاغ بحرفيته، لا في مصر وحدها بل في البلدان العربية الأخرى. ذلك أن شاباً فلسطينياً فطناً أطلعني على النبأ وهو يصيح فرحاً:

- "الآن استقل العرب استقلالاً حقيقياً. الآن لا يتعين علينا أن نعتمد على الغرب لتزويدنا بالسلاح!".

كان من الظلم أن أقول له إن الغرب، بوقفه إرسال الكريات الحاملة، لا يزال باستطاعته أن يمنع أية طائرة من الخروج من المعامل المصرية.

ومن مشاريع التصنيع الأخرى مشروع تضمن إنشاء مصفاة للنفط ذات قدرة إنتاجية ضخمة (وهو مشروع ناجح جداً)، ومشروع لإنشاء مصانع جديدة للأسمدة، ومصانع للعقاقير الطبية، ومصانع للفخار، ومصانع لإنتاج عجلات السيارات، والزجاج، والأحذية، وصناعات النسيج على نطاق واسع.

وفي اعتقادي أنا شخصياً أن المشروع الأهم هو مشروع معمل كهرباء سد أسوان. هذا المشروع الجبار سائر في طريقه، ولم يأتي عام ١٩٦٠ على آخره حتى يكون قد أصبح ناجزاً، وعندئذ سوف يضاعف إنتاج الطاقة الكهربائية في مصر. إن ثمانين بالمئة من الطاقة التي سينتجها هذا المعمل ستستخدم في إدارة مصنع جديد للسماد في أسوان سينتهي العمل فيه في الوقت نفسه الذي سينتهي فيه المشروع الكهربائي. والسماد الذي سيُنتج سيزيد إلى حد كبير الإنتاج الزراعي، وبذلك سيخفف من الضغط على الأرض. أما العشرون بالمئة الباقية فستستخدم في الري في مصر العليا، فتحل المضخات شيئاً فشيئاً محل الشادوف القديم لرفع مياه النيل إلى الأراضي الزراعية في مصر العليا.

إن قصة معمل الكهرباء المائية قصة مؤثرة حقاً. فالمشروع نفسه ليس فكرة جديدة. ذلك أنه طيلة أكثر من ٣٠ سنة قبل الثورة بحثت المشروع حكومة بعد أخرى، حتى إن بعض الآلات ابتاعها فعلاً العهد القديم لبدء العمل في المشروع، غير أنه عندما استولى الضباط الأحرار على زمام الأمور فهم السبب في التأخر في تنفيذ المشروع، ذلك أنه كان هناك دائماً سياسي أو آخر يرى في المشروع فرصة لجني ثروةٍ محترمة بواسطة نفوذه وحصوله على خمسة أو عشرة بالمئة من قيمة العقود، وكان هؤلاء السياسيون الطامعون

من الأيام. إن السد العالي هو، بكل تأكيد، أهم من كل مشاريع عبد الناصر الإصلاحية وأكثر طموحاً. إنه يبدو، في نظر الكثيرين من الزعماء المصريين، الطريقة الوحيدة لحل مشكلة السكان الملحة.

إن الذين يقرأون التوراة يذكرون قصة يوسف في مصر، عندما كان هناك سبع سنوات عجاف وسبعٌ سمان. فالسنوات العجاف كانت عند انخفاض النيل، والسنوات السمان كانت عند ارتفاعه. وإذن فمنذ عهد التوراة حتى القرن العشرين كانت مشكلة النيل واحدة لم تتغير ولم تتبدل. في بعض السنوات تكثر الأمطار في جبال الحبشة فتتدفق المياه على وادي النيل وتحدث فيضانات مخربة، غير أنه في السنة التالية قد تقل الأمطار في الحبشة وعندئذ يجف الزرع في مصر لقلة المياه.

إن سد أسوان العالي سيقضي على هذه المشكلة لأنه سيخزن المياه بصورة دائمة، ويضمن مورداً ثابتاً وكافياً من المياه في كل عام. أما سد أسوان الحالي فيقدم ذخيرة سنوية فحسب، فخزانه يُملأ ويفرغ كل سنة، وهو واقع تحت رحمة الأمطار في الحبشة. ومن ناحية أخرى فإن السد العالي سيزيد من مساحة الأراضي الزراعية في مصر بمقدار خمسة وعشرين بالمئة، وسيوفر الطاقة الكهربائية لمساعدة مشاريع التصنيع في البلاد، وسيضمن أيضاً إنتاجاً سنوياً من الأرز ويجعل الصادرات على أسس ثابتة، كما أنه سيمكن من رقابة الفيضانات والسيطرة عليها بصورة أكيدة مضمونة.

وضخامة المشروع وحدها كافية للدلالة على جرأة شباب ثورة مصر وتصميمهم. فكما قال المهندس المصري المقتدر، دكتور محمد سليم، مرات عديدة، فإن السد العالي ستبلغ مساحته ثلاثة عشر ضعف حجم الهرم الكبير، وسيكون خزانه أكبر بحيرة من صنع الإنسان في العالم. إنه سيكلف أكثر من مليار دولار، وسيتطلب إنجازه خمس عشرة سنة.

والشيء الذي يثير المصريين أكثر من سواه هو أن هذا المشروع مشروع مصري صرف، فلقد فهمه المصريون والتقنيون المصريون وتصوروه ووضعوا تصاميمه خطوة

خطوة. التصاميم كانت تحال بصورة منتظمة إلى هيئة دولية من المستشارين المهندسين، وحتى الآن وافق هؤلاء المستشارون الدوليون على تصاميم المصريين، واعتبروها سليمة من الناحيتين الهندسية والاقتصادية. إنني سأحاول في فصل تال أن أبحث المصاعب التي اعترضت السد العالي، كما سأبحث الاحتكاك والخلاف الذي كان هذا السد سبباً في إثارته. غير أن هذا الحلم العظيم قدَّم، في الأيام الأولى من الثورة، الرجاء والأمل للأمة المصرية.

وهناك مشاريع أخرى عديدة أقل ظهوراً ذكرت المصريين بأنهم يعيشون في ظل عهد جديد. ومن الأمور الأولى التي فعلتها الثورة أنها نقلت العاصمة بصورة نهائية من الإسكندرية إلى القاهرة.

في أيام فاروق كان من عادة القصر، والحكومة، الانتقال إلى الإسكندرية إبان أشهر الصيف الحارة. ففضلاً عن أن هذا الانتقال كان يفسد حياة البلاد الرسمية ويعيقها، فإنه كان عبئاً ثقيلاً على دافع الضرائب المصري. لقد فرض الانتقال أصلاً التقليد القديم القائل بأن كل شخص مهم يذهب إلى الإسكندرية في أيام الصيف. ففي الأيام القديمة كان كل من يبقى في القاهرة في الصيف، إنما يبقى بسبب من عدم استطاعته المالية على الذهاب إلى الإسكندرية. والمصريون يروون قصة ذلك الرجل الذي دخل إلى الدرجة الثالثة في الترام رقم ١٣ الذي يسير بين أحياء القاهرة الحقيرة في يوم من أيام الصيف الحارة، وداس على قدم رجل جالس في الترام.

وزمجر الرجل:

- "ماذا تقصد بدوسك على قدمي أنا؟ هل تعرف من أنا؟"

وأجاب الرجل مكشراً:

- "ومن يمكنك أن تكون؟ راكب في الترام رقم ١٣، في الدرجة الثالثة، وفي شهر تموز (يوليو)!".

وهكذا أصر رجال الثورة الصارمون على أن باستطاعتهم احتمال القاهرة في الصيف إذا كانت جمهرة الشعب تستطيع احتمالها.

وكان من الإصلاحات السريعة الأخرى إلغاء لقبي الباشا والبك التركيين القديمين. هذان اللقبان كانا في وقت مضى وقفاً على الشخصيات البارزة بحق، ولكنهما في السنوات الأخيرة، كانا يباعان ويشتريان إلى درجة أصبح معها كل رجل يستطيع أن يشترى بذلة أوروبية قادراً على أن يدعى البكوية. هناك قصة تروى عن الملك فاروق، خلاصتها أنه أراد أن يرى جميع بكوات مصر، واقترح أن يركبوا كلهم على حمير تسير بهم من أمام القصر. وبعد أن مر خط طويل على ظهور الحمير سار الباقون راجلين. وعندئذ قال أحد أفراد الحاشية:

"يا جلالة الملك، ليس في مصر من الحمير ما يكفي لحمل جميع البكوات".

كذلك قام قادة الثورة بمحاولة نبيلة لتحسين بيروقراطية مصر، وهى من أسوأ البيروقراطيات في العالم. قبل الثورة كان من الأمور المريعة أن يكون للمرء معاملات رسمية مع الحكومة المصرية. كانت الرحلة إلى قسم السمات في وزارة الداخلية شيئاً مفزعاً. هنا كنت ترى حشوداً من الناس يدورون في فوضى تامة، يصرخون بأصوات عالية، غير مدركين أبداً إلى أين يذهبون أو ماذا يفعلون. أما الموظفون فقد كنت تراهم بذقونهم الطويلة وثيابهم غير المهندمة متكئين على مكاتبهم يحتسون القهوة أو يأكلون البطيخ، يطرحون العمل جانباً حالما يأتي إليهم.

كانت الإضبارات والملفات تكوّن أكواماً عالية على طول الجدران، وفوق خزن الملفات، وفي كل زاوية خاوية، تعلوها طبقات وطبقات من الغبار. فإذا طلبت تجديد سمتك أخذ أحد الخدم اسمك وشرع يدور في الغرفة أملاً في أن يعثر على ملفك بطريق الصدفة، ويقال لك في النهاية: "تعال بعد أسبوعين. يبدو أن ملفك قد وضع "مؤقتاً" في مكان آخر".

قد يشكو القادمون الجدد إلى مصر اليوم من بعض الفوضى في الدوائر الحكومية، غير أن مصر اليوم، إذا قورنت بما كانت عليه قبل عام ١٩٥٢، هى نموذج للفعالية الحكومية.

تولى قائد الجناح عبد اللطيف البغدادي، أحد أعضاء مجلس الثورة منصب وزير البلديات والشؤون القروية، وشرع بسلسلة مشاريع أحدثت انطباعات عظيمة. لقد بنى البولفارات، والحدائق، والجسور. كان عماله يعملون ليلاً ونهاراً لبناء الأرصفة الجديدة في القاهرة. والحدائق التي كانت متاحة فيما مضى للطبقات العليا وحدها فتحت وشرعت باستقبال طبقة أصحاب الجلابيب، ولأول مرة في التاريخ أصبح في وسع المصريين من سكان الأحياء الحقيرة أن يتمتعوا بالهواء الطلق في جنان خضراء باردة، وكانت وزارة الإرشاد القومي ترسل آلات سينمائية نقالة إلى هذه الحدائق لعرض الأفلام السينمائية على الطبقات الفقيرة مجاناً.

هذه الإصلاحات التي قام بها عبد الناصر اكتسبت تأييداً واسعاً من قبل الأحرار في الغرب الذين طالما تمنوا للعرب زعيماً يُقلع عن اتخاذ السياسة الخارجية مطية، ويشدد على الإصلاحات الداخلية. وفي الأيام الأولى من الثورة بدا النظام الجديد وكأنه مصمم على تسوية جميع المسائل الدولية المعلقة، وافترض الأحرار الغربيون أن هذا كان يعني أن عبد الناصر ورفاقه كانوا يريدون أن يتهيأوا لتركيز اهتمامهم بالإصلاحات الداخلية.

والواقع أن عبد الناصر قد اتخذ فعلاً خطوات نحو تسوية المشاكلات المعلقة مع الغرب. ولكنه بتسوية هذه المشاكلات إنما أراد تسويتها بطريقة تزيل السيطرة الغربية على وادي النيل. عندما قامت الثورة كان المصريون مشغولين بقضيتين رئيسيتين: السودان ومنطقة قناة السويس. كانت الشعارات ما تزال: "الجلاء التام ووحدة وادي النيل". وفي القضيتين معاً أثبت عبد الناصر أنه أكثر مرونة من أسلافه إلى حد بعيد.

وفي أيام فاروق عالج السياسيون المصريون هاتين القضيتين كما لو كانوا غير جادين فعلاً في حلهما. أما فيما يتعلق بقناة السويس فقد طلبوا انسحاب القوات البريطانية انسحاباً فورياً غير مشروط، وتسليم القاعدة إلى المصريين. وأما فيما يتعلق بالسودان فقد أصر المصريون بعناد على أن "السودان جزء لا يتجزأ من مصر"، وأن على البريطانيين أن يجلوا عن السودان ويسلموه إلى مصر، كما أن السياسيين القدماء رفضوا

أن يبحثوا إمكان منح السودان الاستقلال، لأن مثل هذه المواضيع كانت تتضمن إمكان سلخ بعض الأراضي عن مصر.

وفضلاً عن ذلك فقد ألح السياسيون القدماء على تسوية القضيتين معاً بصورة فورية، ورفضوا أن يبحثوا كلاً منهما على حدة. كانت القضية قضية كل شيء أو لا شيء، وبطبيعة الحال لم يحصلوا على شيء. كان البريطانيون مستعدين للوصول إلى تسوية، ولكن لما كان المصريون غير راغبين في أية تسوية، فقد بقي البريطانيون سعداء حيث كانوا. لقد نجحوا في جعل المصريين يبدون سيئي النية بصورة خاصة فيما يختص بقضية السودان. كان البريطانيون يدعون أن من حق السودان أن يقرر مصيره بنفسه، ولكن المصريين عارضوا ذلك، فبدوا وكأنهم لا يسعون إلا إلى "استعمار" السودان.

وبعد الثورة عمل عبد الناصر ورجاله على حل القضيتين معاً. لقد اطَّرحوا الاستراتيجية القديمة الجافة التي كانت تقضي بمعالجة القضيتين معاً بصورة فورية، وقرروا معالجة المسألة السودانية على حدة. وكان هذا بحد ذاته عملاً سياسياً بارعاً يدعو إلى الإعجاب. ولكن أكبر ضربة سياسية دولية قام بها العهد الجديد – في نظري – كانت الموافقة على منح السودان حق تقرير مصيره بنفسه. لقد وقع المصريون اتفاقاً مع البريطانيين في شهر شباط (فبراير) من عام ١٩٥٣ نص على وجود فترة انتقالية يقرر السودان بعدها ما إذا كان يريد الاستقلال التام أو الوحدة مع مصر، واختار السودانيون الاستقلال في نهاية الأمر.

كان يتعين عليك أن تعيش في مصر في تلك الأيام كي تقدر الشجاعة التي أبدتها حكومة الثورة في إعطاء هذا الحق. كان ضباط مصر الشباب قد تنازلوا عن الدعوى بأن لمصر الحق في ضم السودان. وباعترافهم أن من حق السودانيين أن يختاروا الاستقلال التام، اعترفوا بأن السودان لم يكن "جزءاً لا يتجزأ من مصر". بكلمة أخرى، كان عبد الناصر ورفاقه قد اطَّرحوا ذلك الشعار القائل بوحدة وادي النيل.

كثيراً ما انتقد الوطنيون المصريون عبد الناصر على هذا التصرف، ولقد ذهب بعضهم إلى حد القول بأن اتفاقية السودان عنت أن مصر خسرت السودان. غير أن مصر، في الواقع، لم تكن تملك السودان. كانت دعواها لا تستند إلا إلى أساس نظري، وكان البريطانيون هم أسياد السودان الحقيقيين. كان الحاكم العام بريطانياً، وكانت جميع المناصب المهمة تقريباً في أيدي البريطانيين. كانت وزارة الدفاع السودانية تحت سيطرة البريطانيين المباشرة، ولم يكن للحكم الثنائي، أو الإدارة البريطانية المصرية، وجود إلا على الورق.

وبموافقته على حق تقرير المصير للسودانيين حقق عبد الناصر هدفاً رئيسياً للقومية العربية، ذلك أن "تنازله" قد أدى إلى جلاء القوات البريطانية والرقابة البريطانية عن السودان. لقد عنى الاستقلال لعشرة ملايين من الناطقين باللغة العربية، وعنى دولة أخرى تنضم إلى الجامعة العربية. وفي المدى الطويل سيكون من شأن تنازل عبد الناصر أن يخدم مصالح الوطنيين المصريين خدمة أفضل كثيراً من الديماجوجية القديمة والإصرار اليائس على وحدة وادي النيل.

كذلك قضت اتفاقية السودان على أحد الأسباب الرئيسية للتوتر بين العرب والغرب. وفي السنوات الأخيرة، عندما أصبح عبد الناصر يعتبر مشاغباً على الغرب، كثيراً ما ينسى الغرب الحقيقة القائلة بأنه هو نفسه اتخذ المبادرة لحل خلاف كبير بعمل سياسي يدعو إلى الإعجاب في عام ١٩٥٣.

ولقد حقق عبد الناصر الأمل المصري المهم الآخر – الجلاء التام – من طريق المفاوضة مع البريطانيين. في بادئ الأمر طلب عبد الناصر، شأن أسلافه، جلاء غير مشروط لثمانين ألف جندي في منطقة قناة السويس. ولكنه بخلاف أسلافه، انصرف إلى المفاوضة بجد، مصمماً على الوصول إلى اتفاق.

وانقطعت المفاوضات مرة بعد أخرى إلى أن تم الوصول أخيراً إلى اتفاق في ٢٧ تموز (يوليو) من عام ١٩٥٤ على جلاء القوات البريطانية. كان على جميع القوات أن تغادر

منطقة القناة خلال عشرين شهراً من توقيع الاتفاقية، ومن ثم يستطيع البريطانيون الاحتفاظ بمنشآت عسكرية في المنطقة، يشرف عليها فنيون مدنيون، مدة خمس سنوات. وكانت الاتفاقية تقضي بالسماح لبريطانيا بالعودة إلى احتلال المنطقة إذا حصل خلال هذه المدة هجوم خارجي على أية دولة عربية، أو على تركيا.

ليس من شك في أن المفاوضات بشأن السودان وقناة السويس قد ساعدها إلى قدر كبير وجود عميد الدبلوماسيين الأميركيين، جفرسون كافري. فلقد ألمح السفير الأميركي إلى أن مساعدة أميركية كبرى تقدم وشيكاً إذا تم الوصول إلى اتفاق. وبعد قليل من توقيع اتفاقية السويس في أواخر عام ١٩٥٤ وافقت الحكومة الأميركية على منح مصر مساعدة اقتصادية مبلغها أربعين مليون دولار.

ولقد وجهت الانتقادات العنيفة إلى **عبد الناصر** لعقده اتفاقية قناة السويس. فالشيوعيون، والإخوان المسلمون، والقوميون العرب في كل مكان نظروا نظرة قاتمة إلى الشروط التي تسمح بعودة الجيش البريطاني في حالة الحرب. ولكن الحقيقة الباردة ظلت هناك لتقول إن **عبد الناصر**، في ١٨ حزيران (يونيو) من عام ١٩٥٦ استطاع أن يرفع العلم المصري على بورسعيد بعد أن جلا آخر جندي بريطاني عن الأراضي المصرية. كانت تلك هي المرة الأولى، منذ ثورة عرابي، التي تحررت فيها مصر من القوات البريطانية. لقد وعد البريطانيون، كما يقول المصريون، على الأقل ثماني وستين مرة في اثنتين وسبعين سنة بالخروج من منطقة القنال، ولقد طالب موكب طويل من الديماجوجيين المصريين بهذا الجلاء، ولكن **عبد الناصر** وحده استطاع أن يراه يتم ويتحقق.

لقد اعتبر توقيع هاتين الاتفاقيتين المهمتين بداية عهد جديد بين مصر والغرب، وأصبح عهد الثورة المصرية يعتبر الآن عهداً إصلاحياً في الداخل، وتواقاً إلى حل جميع المشاكلات من الناحية الخارجية.

(٦)

نهاية محمد نجيب



أعلنت مصرُ جمهورية في اليوم الثامن عشر من شهر حزيران (يونيو) ١٩٥٣، وبعد ذلك التاريخ بدأ عبد الناصر ورفاقه أعضاء مجلس الثورة يلعبون دوراً أكثر علنية في ثورة مصر. ونصّب محمد نجيب رئيساً للجمهورية ورئيساً للوزراء، وأعيد توزيع المناصب الوزارية، فكانت جميع الوزارات المهمة تقريباً من نصيب أعضاء مجلس قيادة الثورة.

وأعفي محمد نجيب من قيادة القوات المسلحة، ورقي صديق عبد الناصر وموضع ثقته القديم، عبد الحكيم عامر، إلى لواء وأصبح القائد العام، وغدا من بعد وزيراً للدفاع أيضاً. واعترض محمد نجيب على ما دعاه "عسكرة الحكومة"، إذ كان يفضل استمرار الحكم من طريق وزراء مدنيين، ولو أنه قبل لنفسه منصبي رئاسة الجمهورية ورئاسة الوزراء. غير أن أكثرية أعضاء مجلس الثورة جعلت اعتراضاته غير ذات موضوع.

وفي أواخر عام ١٩٥٣ سرت شائعات متكررة عن خلافات بين محمد نجيب وعبد الناصر، واعترف كل من الرجلين بوجود اختلافات بينهما، ولكنهما أنكرا أن تكون تلك الخلافات ذات طابع خطير. إن أولئك الذين يعرفون مصر جيداً أدركوا، بلا ريب، أنه لابد أن تنشأ القطيعة بين الرجلين عاجلاً أو آجلاً.

ويمكن تلخيص النزاع بين محمد نجيب وعبد الناصر بالطريقة التالية:

كان محمد نجيب في الحادية والخمسين من عمره عند وقوع الانقلاب، في حين أن عبد الناصر لم يكن قد تجاوز الخامسة والثلاثين. وألح نجيب على أن يترك له عبد الناصر إدارة الحكومة، بالفعل والاسم معاً، إلى أن يتاح للشاب الخبرة الضرورية لتولي زمام الأمور. كان محمد نجيب يؤمن بالتمهل وباكتساب أوسع تأييد شعبي ممكن. أما عبد الناصر فقد أراد استعمال المبضع السريع بدلاً من العلاج البطيء لمداواة علل مصر، وكان يخشى أن يخف شأن الثورة إذا حاول القادة بأكثر مما ينبغي إرضاء كثيرين من الناس.

وتحت هذا كله كان محمد نجيب يرحب بالعودة إلى الحكم الشعبي، لأنه كان يعرف أنه اكتسب شعبية كافية لتأمين مركزه كرئيس للجمهورية في انتخابات حرة. أما عبد الناصر فقد أدرك أن أية عودة سريعة إلى نظام سياسي حر من شأنها أن تعني نهاية ثورته. لقد اعتبر عبد الناصر والضباط الشباب في مجلس الثورة محمد نجيب رئيساً صورياً، رمزاً اختاروه لحركتهم، ولم يقصدوا أبداً إلى أن يحكم بالفعل. ولكن عندما نصب محمد نجيب رئيساً للجمهورية ورئيساً للوزراء أصر على ممارسة سلطةٍ تتناسب مع مسؤولياته.

واشتد الاحتكاك في الشهرين الأولين من عام ١٩٥٤. لقد اعترض صلاح سالم، وزير الشؤون السودانية، اعتراضاً شديداً على إلقاء محمد نجيب الخطب بصدد المسألة السودانية دون الاتفاق معه مقدماً. كذلك غضب محمد نجيب عندما كان الوزراء يتخذون قراراتهم من دون استشارته. كانت هناك خلافات قوية واختصامات شديدة إبان اجتماعات مجلس قيادة الثورة، وفي سورة من سور الغضب ادعى محمد نجيب أنه طيلة ستة أشهر من الثورة كان الاسم الوحيد الذي سُمع به اسم محمد نجيب. وزمجر نجيب قائلاً إنه لولا اسمه لكانت الثورة قد فشلت، وما تزال عرضة للفشل من دونه. ثم هدد بالاستقالة إذا لم يعط صلاحيات كافية.

وضغط بعض الضباط الشباب، وبصورة خاصة صلاح سالم، على عبد الناصر للتخلص من محمد نجيب نهائياً. وكان مجلس قيادة الثورة يعقد اجتماعات سرية بغياب محمد نجيب. وعلم محمد نجيب بذلك. وفي أواخر شهر شباط (فبراير) ١٩٥٤ قدم استقالته إلى المجلس. ونصحه عبد الناصر باتباع سياسة التريث.

وفي اليوم التالي عقد اجتماع آخر لمجلس قيادة الثورة من دون محمد نجيب، وانتصر الشقيقان سالم وغيرهما من الأعضاء الشباب المتحمسين، إذ صوتت أكثرية أعضاء المجلس على خلعه. وفي الصباح التالي وضع محمد نجيب تحت الإقامة الجبرية في منزله في الزيتون، من ضواحي القاهرة، ونصبت الأسلاك الشائكة عند كل طريق مؤدية إلى منزله،

ومنع جميع الصحافيين والزوار من الاقتراب من المنزل، وقطعت الأسلاك الهاتفية، ولم يسمح لأحد بمغادرة المنزل.

وكهربت استقالة محمد نجيب الموقف. ومرت أربع وعشرون ساعة لن ينساها جمال عبد الناصر إطلاقاً. كادت الثورة تأتي على نهايتها في ذلك اليوم، ففي ذلك الحين، كانت الأحزاب القديمة، بما فيها حزب الإخوان المسلمين، وحزب الوفد، ما يزال لهما أنصار منظمون بين صفوف الطلاب والعمال مستعدون للقيام بمظاهرات، كما أن فرق الشعب التابعة للشيوعيين والاشتراكيين كانت مستعدة للعمل.

واجتاحت القاهرة مظاهرات وفتن لم تعرفها منذ يوم السبت الأسود.

وباقتراب نهاية النهار كتب مراسل أميركي يصف الوضع بهذه الطريقة:

"إن مصر خالية من أية حكومة فعلية. إن القوة الوحيدة في البلاد هي في يد الجيش، والجيش غير قادر على ممارسة صلاحياته".

وبينما كان عبد الناصر ينظر إلى صرح ثورته يهوى بكليته، رأى الشيء الذي كان يخشاه أكثر ما يكون ويتوقعه أقل ما يكون يحدث: الارتداد في الجيش. ولم يكن هذا الارتداد في الجيش وحده، بل أيضاً في مجلس الثورة نفسه، في نفس الرجال الذين كان عبد الناصر يثق بهم أتم الثقة.

لقد رأس الصاغ خالد محيي الدين، أصغر أعضاء مجلس الثورة سناً، فريقاً من الضباط الفرسان الذين هددوا بإجراء انقلاب إذا لم يُعد محمد نجيب إلى منصبه. وذهب خالد بنفسه إلى منزل محمد نجيب متخطياً الأسلاك الشائكة، وعرض عليه إعادته إلى رئاسة الجمهورية، على أن يكون هو رئيساً للوزراء. وعندما علم عبد الناصر بذلك عمل سريعاً، فأمر بنقل محمد نجيب من بيته وإخفائه في مكان ما في الصحراء، قاطعاً الطريق على أية محاولة جريئة من قبل المنشقين. وكذلك حال هذا العمل دون نشوب قتال بين أنصار محمد نجيب ومناوئيه في الجيش.

ثم لعب عبد الناصر ورقته الأخيرة، فأمر بإعادة محمد نجيب.

وكان من شروط عودة نجيب أن يكون عبد الناصر رئيساً للوزراء، ولكن محمد نجيب قبل هذا الشرط بسرور. وعندما تقابل هو وعبد الناصر وجهاً لوجه عانق كل منهما الآخر وبكى انفعالاً. كانت تجربة قاسية، وبدا أن كلاً من الرجلين قد اهتز بجلاءٍ عندما فكرا فيما يمكن أن يحدث لو أنهما قسما قواتهما.

وأصبح عبد الناصر رئيساً للوزراء بصورة مؤقتة. وخطب محمد نجيب في أحد الحشود الهاتفة، وكان معظمها من الوفديين والإخوان المسلمين، إنه عاد إلى رئاسة الجمهورية شرط العودة إلى الحياة البرلمانية. ولم يمض أسبوعان اثنان حتى تسلم محمد نجيب منصب رئاسة الوزارة كرة أخرى، وأعلن أن الانتخابات النيابية ستجرى قبل ٢٣ تموز (يوليو) من عام ١٩٥٤، يوم الذكرى الثانية للثورة. وألغيت الرقابة على الصحافة، وسمح للأحزاب السياسية بالعودة إلى العمل.

كان عبد الناصر يبدو كالرجل المهزوم في تلك الأيام، ولكنه كان يعرف ما يفعل. فبعد أن وافق ضباط مجلس قيادة الثورة، بما فيهم سالم المتحمس، على إعادة محمد نجيب، قال لهم عبد الناصر بخشونة:

- "لنجرب الأمر هذه المرة بطريقتي أنا".

ومنذ ذلك الحين ترك المجلس لعبد الناصر على أن يعالج محمد نجيب بطريقته الخاصة. لقد لاحظوا الرجل (محمد نجيب) ينضج كالتفاحة على مهل إلى أن تسقط من على الشجرة آخر الأمر. كان عبد الناصر قد أعاد محمد نجيب إلى منصبه كرئيس للجمهورية، لأنه كان بحاجة إلى الوقت، ولأن الأمور تحركت بسرعة كبيرة، وكادت تفلت من يديه.

وبعد وقت قصير وصف عبد الناصر الوضع لصديق حميم له فقال:

- "عندما خلعنا محمد نجيب كان رد الفعل في الشارع قوياً، ولكن كان باستطاعتنا، على الأرجح، أن نتغلب عليه. غير أن ما أذهلني وحيرني كان الاضطراب داخل الجيش. هنا كان اضطراب لم أتوقعه أبداً، ولم أحسب له حساباً على الإطلاق: في عائلتي نفسها، كما يقولون. وهكذا كان عليّ أن أعيد محمد نجيب حتى أستطيع أن أنظر في الأمر وأصل إلى صلب العلة في الجيش. كان عليّ أن أعرف مقدار عمقها وعدد الرجال المسببين لها".

وبينما كان عبد الناصر رئيساً للوزراء في ذينك الأسبوعين، بعد حادث محمد نجيب، أعلِن أن خالد محيي الدين سوف يسافر إلى أوروبا "بمهمة خاصة". ولكنه في الحقيقة أخرج من مجلس قيادة الثورة، ونفى إلى خارج مصر، وظل بعيداً عنها قرابة عامين. وبعد بضعة أسابيع اعتقل ستون من الضباط الفرسان بهدوء وسيقوا إلى المحاكمة.

كذلك أجرى عبد الناصر تغييرات في الوزارة. وبدت التغييرات تافهة ولم تجذب إليها سوى انتباه ضئيل، ومع ذلك فقد كانت تغييرات حاسمة. لقد نقل دكتور عباس عمار، من وزارة الشؤون الاجتماعية إلى وزارة الثقافة، كما عهد إلى الصاغ كمال الدين حسين بوزارة الشؤون الاجتماعية.

هذا التبديل، ظاهرياً، لم تكن له أية قيمة، ولكنه كان بالغ الأهمية بالنسبة إلى عبد الناصر، لأن النقابات كانت تقع تحت سلطة تلك الوزارة. وكانت مهمة كمال الدين حسين الحقيقية تنظيم النقابات وتجنيدها، والتأكد من أن رجال عبد الناصر كانوا يسيطرون سيطرة تامة على العمال من الذروة إلى السفح.

وأنجزت المهمة خلال شهر واحد. وأزاح عبد الناصر جميع العقبات من أمام إضراب عام شل المواصلات في طول البلاد وعرضها، واندفع العمال إلى الشوارع مرة أخرى،

ولكنهم كانوا يهتفون لعبد الناصر. كانوا يصيحون قائلين إنهم لم يكونوا يريدون مجلساً نيابياً، ولا انتخابات نيابية.

نجح الإضراب، وانتصر عبد الناصر. واستقال محمد نجيب من رئاسة الوزارة ثانية، وأصبح عبد الناصر مرة أخرى رئيساً للحكومة. ومنذ ذلك الحين عاد محمد نجيب رئيساً صورياً للدولة. وأبطل عبد الناصر الوعد بإجراء انتخابات حرة، وقام باعتقالات واسعة لمثيري الشغب، ومعظمهم من الشيوعيين المشتبه بهم. وعادت الثورة تشق طريقها من جديد.

وفي اليوم الأول من شهر أيلول (سبتمبر) من تلك السنة نفسها أعاد عبد الناصر تأليف وزارته، وأتى إلى الحكم بكل عضو من أعضاء مجلس الثورة. كان الضباط الأحرار الآن يحكمون مصر بصورة علنية دون أي منازع، مباشرةً ومداورة، بالاسم وبالفعل. في هذا الوقت كان كل من في مصر قد أدرك أن إخراج محمد نجيب كان مسألة وقت، وأن كل ما كان عبد الناصر يحتاج إليه هو فرصة مناسبة.

تلك الفرصة أتاحت نفسها في أواخر شهر تشرين الأول (أكتوبر) بطريقة تكاد تكلف عبد الناصر حياته. كان المسرح ساحة عامة كبيرة في الإسكندرية، وكانت المنسبة خطاباً سياسياً مهماً كان على عبد الناصر أن يلقيه. لقد احتشدت الساحة، تلك الليلة، بربع مليون شخص، وهي تقع مباشرة أمام بورصة الإسكندرية التي يبرز الطابق الأرضي من مبناها إلى الأمام ويشكل سطحه شرفة فسيحة.

على هذه الشرفة وقف عبد الناصر ليلقي خطابه الذي كان يذاع على الأمة بالراديو. وما إن شرع بالكلام حتى كانت جميع العيون قد صوبت إليه. ولم يلحظ أحد ذلك الرجل الضئيل الرث وهو ينتصب على قدميه في أحد الصفوف الأمامية. ورفع الرجل الضئيل، وكان نجاراً يدعى محمد عبد اللطيف، مسدساً وأطلق منه الرصاص عامداً على عبد الناصر مرة، ومرتين، وثلاث مرات، وست مرات. ولكن كل رصاصة من هذه

الرصاصات أخطأت عبد الناصر بأعجوبة ما. وأطبق رجال الشرطة والمدنيون على النجار المروع مهددين بتمزيقه إرباً إرباً.

- "أيها الناس! الزموا أماكنكم! أيها الناس! الزموا أماكنكم".

كان الصوت صوت عبد الناصر، وكان ما يزال واقفاً أمام مكبرات الصوت، مستعداً لإكمال خطابه.

قال: "اذكروا هذا... إذا حدث لي شيء فإن الثورة ستستمر، لأن كل واحد منكم هو جمال عبد الناصر".

وتابع عبد الناصر خطابه، وانتهى الاجتماع في الوقت المعين له. ولكنه قبل أن ينهي خطابه كان رجال الشرطة قد عرفوا عن محمد عبد اللطيف مقداراً كافياً مكنهم من أن يشرعوا بحملة واسعة على الإخوان المسلمين، الذين كان هو واحداً منهم.

منذ وقوع الانقلاب كان الإخوان المسلمون يشكلون مشكلة بالنسبة إلى عبد الناصر. وبعد اغتيال مرشدهم العام في عام ١٩٤٩ سُحقت منظمتهم وسُجن زعماؤهم أو نفوا خارج البلاد. غير أنه ما إن انتهى عام ١٩٥١ حتى كانت منظمة الإخوان المسلمين تعود بقوة. وأعادت حكومة الوفد إليها اعتبارها القانوني بشروط معينة صارمة، وسمحت بانتخاب قاضٍ يدعى حسن الهضيبي مرشداً عاماً.

وهلل الإخوان المسلمون للانقلاب على فاروق وتصرفوا مدةً وكأن مجلس الثورة كان تابعاً لهم. والحق أنه قد سرت شائعات تقول بأن محمد نجيب وعبد الناصر كانا من الإخوان المسلمين، فضلاً عن أن بعض السفارات الغربية جزمت بصورة قاطعة أن أربعة ضباط على الأقل في مجلس الثورة كانوا أعضاء في منظمة الإخوان المسلمين.

واستمر شهر العسل بضعة أشهر، ولكن منظمة الإخوان المسلمين أخذت تقلق لبعض المظاهر الدنيوية للثورة. كان عبد الناصر ورجاله يعملون طبعاً من أجل دولة في القرن العشرين تتمتع بالاحترام في الخارج. وعندما ألغت الثورة الأحزاب السياسية في

أوائل عام ١٩٥٣ سمح للإخوان المسلمين بالبقاء، لأنهم ادعوا أن منظمتهم كانت أكثر من حزب سياسي، وأنها كانت منظمة دينية واجتماعية أيضاً. ولقد حاول مجلس الثورة دمج الإخوان بمجمَّع التحرير، وهي منظمة بقيت فترة من الزمن الحزب المصري الوحيد في ظل الثورة.

لقد حدث أول اصطدام علني لعبد الناصر مع الإخوان المسلمين في نفس الوقت الذي حصل فيه اصطدامه الأول بمحمد نجيب، أي في أوائل شباط (فبراير) من عام ١٩٥٤. فقد نشب قتال بين أعضاء من منظمة الإخوان المسلمين ومجمَّع التحرير، وعندئذ ألغى عبد الناصر الإخوان المسلمين واعتقل عدة مئات من أعضائها، بما فيهم المرشد العام الجديد. وكما أعاد عبد الناصر محمد نجيب فقد سمح للإخوان المسلمين بالعودة، شرط امتناعهم عن القيام بأي نشاط سياسي وقصر جهودهم على النشاط الديني والثقافي، وعندئذ أطلق سراح الهضيبي ومعظم الزعماء الآخرين.

كان زعماء الإخوان المسلمين قد وافقوا على عدم معارضة النظام المصري، ولكنهم سريعاً ما نقضوا هذا الوعد. واستقر بعض زعمائهم البارزين، بمن فيهم سعيد رمضان ذي اللحية السوداء، في سوريا، وشرعوا في حملة ضد عبد الناصر.

وفي أواخر الصيف وقع عبد الناصر اتفاقية السويس مع البريطانيين مما أعطى الإخوان المسلمين مادةً جديدة لحملتهم. وفي هذا الوقت لجأ عبد الناصر إلى أسلوب فريد لإخراج الإخوان المسلمين واستدراجهم إلى الكشف عن نواياهم كلية، فرفع - جزئياً - الرقابة عن الصحف، وسمح لبضعة أسابيع للإخوان المسلمين بمهاجمته فيها. وردت وزارة الإرشاد القومي هذه الهجمات صفعة بصفعة، وتمتع الجمهور كل صباح بمناقشة حامية في صحف القاهرة.

وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٤ كان عبد الناصر قد عرف كل ما كان بحاجة إلى أن يعرفه عن الإخوان المسلمين. لقد عرف كل شيء عن منظمتهم، وعرف زعماءهم

والأماكن التي كانوا فيها. وقد أعطاه عبد اللطيف الفرصة لإطباق الفخ، ففي خلال بضعة أيام من محاولة اغتياله أمر عبد الناصر بإجراء اعتقالات واسعة لجميع الإخوان المسلمين من أية منزلة كانت، من الهضيبي فما دون. وأعلنت الحكومة أن مئات اعتقلوا، وقدرت مصادر غير رسمية عدد المعتقلين بآلاف، وألغيت جماعة الإخوان المسلمين للمرة الأخيرة واعتبرت غير قانونية، وأحرقت جموع مجمَّع التحرير الهائجة مقر الإخوان المسلمين حيث كانت قد اجتمعت قبل ذلك بسنين عديدة بالمرشد العام الأول الشيخ حسن البنا.

واكتشفت شرطة عبد الناصر مخابىء هائلة للذخيرة لدى الإخوان المسلمين، وظهر أن منظمة إرهابية ضمن الإخوان المسلمين كانت على وشك أن تقوم بثورة عامة، لو أن عبد اللطيف نجح في إصابته الهدف. وهكذا أنشئت محكمة عسكرية على رأسها جمال سالم، وبدأت المحاكمة الكبرى. كانت جميع تفاصيل المحاكمة تذاع من راديو القاهرة، وكان الشهود الأوائل أعضاء في مكتب الإرشاد، وهو المجلس الذي كان يساعد المرشد العام. كانت هناك قصص عن المشاريع المقترحة للتخلص من عبد الناصر وقلب نظام الحكم. غير أنه ما إن انقضت الأيام القليلة الأولى من المحاكمة حتى فقدت جدتها وأصبحت مملة.

غير أن الأمة انتبهت من جديد عندما شرع شاهد من الإخوان يسرد التفاصيل عن الطريقة التي نوت بها الجماعة الاستيلاء على السلطة. قال الشاهد إنه بعد اغتيال عبد الناصر واستيلاء الإخوان على السلطة يذيع الرئيس محمد نجيب يعتمد عليها لإنجاح الانقلاب. كان ذلك يوم الخميس، وكانت الأمة كلها قد سمعت الشهادة، ومع ذلك فإن الحكومة لم تتحرك، ولم تعط أي تعليق رسمي. وعندما أحرج رجال الصحافة أحد الناطقين باسم الحكومة اكتفى بأن يقول:

- "إن الحكومة لا تنوى اتخاذ إجراء بحق الرئيس محمد نجيب في الوقت الحاضر".

وفي اليومين التاليين أصبح نسيج الشهادة أكثر إحكاماً حول محمد نجيب، ذلك أن الشهود، الواحد بعد الآخر، أكدوا أن اللواء كان مشتركاً في المؤامرة.

وفي ليلة السبت استمرت الأنوار مضاءةً حتى ساعة متأخرة في مقر مجلس الثورة على النيل، وتسربت أنباء تقول إن الضباط الشباب كانوا يبحثون مصير محمد نجيب.

وعند ظهر الأحد زار ضابطان من أعضاء مجلس الثورة محمد نجيب في قصر عابدين. وبهدوء، والغليون في يده، وقع محمد نجيب استقالته ومشى، وكل من الضابطين على أحد جانبيه، إلى خارج قصر عابدين، وأخذ إلى الفيلا الفسيحة التي كانت في وقت ما ملكاً لحرم مصطفى النحاس في إحدى ضواحي القاهرة.

أما خلعه فقد أعلن ببساطة:

- "لقد أعفى اللواء محمد نجيب اليوم من منصبه كرئيس للجمهورية المصرية".

في ذلك الحين كنت أقوم بتعزيز مكتب "الأسوشيتد برس" في القاهرة. وأبرقنا بنبأ خلع محمد نجيب حوالي الظهر، ثم انتظرنا رد الفعل لنعود فنبرق ليلاً. وقد ذكر كل من كان في القاهرة رد الفعل العنيف لاستقالة محمد نجيب في شباط (فبراير)، وتوقع فترةً حامية في شوارع عاصمة مصر بعد الظهر من ذلك اليوم.

وانتظرنا. كنا نرسل مختبرين للقيام بجولات منتظمة حول المدينة، غير أن شيئاً لم يحدث. كانت الأعمال تسير سيرها الطبيعي في القاهرة، ولم يتحرك متظاهر واحد. وأرخى الليل سدوله، ومع ذلك لم يحدث شيء طيلة الليل. كانت الأمة كلها لا مبالية.

ماذا حدث لمصر منذ شباط (فبراير)؟ كان عبد الناصر قد تعلم درساً قاسياً في شباط. كان قد رأى ثورته تنهار، وكان قد صمم على ألا يتعرض لأي خطر آخر. لقد تعمق إلى جذور المشكلة، وفي الوقت الذي خلع فيه محمد نجيب نهائياً، كانت هذه الجذور قد اختفت من الوجود.

كانت الأحزاب التي سببت معظم متاعبه في شباط هي: الإخوان المسلمين، والوفد، والحزب الشيوعي. كانت أدواتها في معظمتها من الطلاب والعمال. وهكذا فعن طريق وزارة الشؤون الاجتماعية ومجمع التحرير كان عبد الناصر قد نظم النقابات، وفي أوائل شهر أيلول (سبتمبر) نقل الصاغ كمال الدين حسين إلى وزارة التربية، مع أوامر بتطهير المدارس من المشاغبين. وما أن آن أوان افتتاح المدارس في الخريف حتى كان الطلاب من المهيجين القدماء قد اختفوا منها. لقد أصبحت المدارس الآن مكاناً للدراسة فحسب، وليس للتهييج السياسي، فأي طالب يظهر أي ميل إلى تنظيم زملائه في هياج سياسي كان يطرد فوراً.

وأحيطت جامعة القاهرة بسياج دائم من رجال الشرطة، لأنها كانت مركزاً للدعوة إلى كثير من الإضرابات في الماضي. كان على كل طالب يدخلُ إلى الجامعة أن يبرز بطاقة تثبت أنه قد دفع الأقساط المتوجبة عليه، وأنه كان طالباً مسجلاً في الجامعة حسب الأصول. أما الطلاب الذين لم يكونوا يذهبون إلى الجامعة إلا لأسباب سياسية فقد حرموا الآن من دخولها، وهكذا أسقط في أيدي زعماء الشيوعيين والوفديين إلى حد بعيد. كذلك طهر الجيش، وأصبح أنصار خالد محيي الدين إما في السجن أو أخرجوا من الجيش، وكذلك كان شأن رشاد مهنا. أما زعماء الإخوان المسلمين فقد كانوا الآن في السجن.

من بقى إذن لكي يثير المتاعب في وجه عبد الناصر؟ لا أحد. لم يكن هناك الآن من ينظم الجماهير ويقودها في مظاهرات احتجاج. وشوارع مصر، التي كانت في وقت مضى مسرحاً لأعنف أنواع المظاهرات والفوضى، أصبحت الآن هادئة، آمنة. منذ عام ١٩٥٤ لم تحدث في القاهرة مظاهرة واحدة غير مسموح بها، واختفت أعمال الشغب. هذه المرة عولجت الأمور "بطريقة عبد الناصر".

وأصبح عبد الناصر الآن أقوى رجل في مصر. لم يكن قد أصبح رئيساً للجمهورية بعد، وكان يستجيب اسمياً لإرادة مجلس الثورة في الشؤون السياسية. غير أنه لم يعد هناك

أي شك في من كان الزعيم. كان عبد الناصر هو الممسك بآلة السلطة في يديه بحزم، وبدلاً من أن يجعل نفسه رئيساً بالنيابة، اختار عبد الناصر أن يسمح للوزارة كلها بممارسة صلاحيات الرئاسة. غير أنه لما كان عبد الناصر رئيساً للوزارة فقد عنى ذلك في الواقع أنه كان يعملُ بوصفه رئيساً للدولة. كذلك كان عبد الناصر رئيساً لمجلس الثورة، وكان من النادر أن يتغلب المجلس على عبد الناصر حول إحدى النقاط المهمة.

(٧)

صفقة الأسلحة التشيكية



حتى عام ١٩٥٤ شعر عبد الناصر أنه قد تعاون مع الغرب في كل وجه من وجوه التعاون اعتقد أن في ميسوره الإقدام عليه. فما الذي جناه من ذلك؟ لا شيء غير الاستياء الشعبي.

صحيح إنه حصل على مساعدة اقتصادية تبلغ قيمتها أربعين مليون دولار من الولايات المتحدة، ولكن هذه المساعدة كانت أقل بكثير مما وعده به السفير كافري. وكانت الولايات المتحدة قد أحجمت عن أن تقدم إليه أيما مساعدة عسكرية. وأسوأ من ذلك أن الحكومة الأميركية كانت تعامل مصر وكأنها دولة نصف مستقلة، لا دولة ذات سيادة، ينبغي أن تعامل معاملة الند للند. وكان عبد الناصر يشكو دائماً من أنه ليس ثمة خط مستقيم أو مباشر من واشنطن إلى القاهرة. كانت الحكومة الأميركية لا تزال تنزع إلى أن تتعامل مع مصر بواسطة لندن أو باريس.

ومهما يكن من أمر فإن كل مساعدة قدمتها الولايات المتحدة إلى عبد الناصر كانت مثقلة بألف شرط وشرط. ووقع في نفس عبد الناصر أن الحكومة الأميركية لا تثق به، فهي تمسك عنه المال والسلاح. وكان في القيود التي كانت أميركا تقدمها بين يدي تلك المساعدات ما زهد عبد الناصر بها. لقد رأى فتى "بني مر" فيها دليلاً مذلاً على أن الغرب لا يزال ينظر إلى المصريين نظرته إلى أناس هم دون الأميركين أو الأوروبيين قدراً وشأناً، نظرته إلى قوم لا يستطيعون أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم.

* * *

وفي نهاية عام ١٩٥٤ استقال كافري – وكانت له في مصر شعبية حسنة – من السلك الدبلوماسي، وغادر الديار المصرية. وكان خلفه الشاب، هنري بايرود، قد عرف بأنه صديق العرب، وذلك خلال توليه منصب وكيل وزارة الخارجية طوال سنوات. ومع

ذلك فقد اعتبر المصريون ذهاب السفير كافري نذير شؤم. لقد عنى في نظرهم، تغيراً في السياسة الأميركية. ولقد خشوا أن تكون السياسة الجديدة أقل وداً تجاه مصر.

وقبل مجيء بايرود حدث شيئان أكدا هذا الخوف في أعين المصريين.

فأما أولهما فكان عقد حلف بغداد. لقد سافر رئيس الوزراء التركي، عدنان مندريس، إلى بغداد، في شهر شباط (فبراير) ووقع هناك مع رئيس الوزراء العراقي، نوري السعيد، تحالفاً عرف بحلف بغداد. وفيما بعد انضمت بريطانيا، وإيران، والباكستان إلى الحلف. وباركت الولايات المتحدة الحلف، وانضمت إلى معظم لجانه. وفي طريق عودته من بغداد، عرج مندريس على بيروت وأوشك أن يقنع الحكومة اللبنانية بالدخول في الحلف.

وهنا ثارت ثائرة عبد الناصر. فقد كان حلف بغداد واحداً من تلك الاتجاهات التي طالما حاربها بأقصى ما يكون من العنف والشدة. كان عبد الناصر راغباً في التعاون مع الغرب، وكان يعتبر أن مصر هي منطقياً في جانب الغرب في الحقل الدولي، ولكنه كان قد أصر دائماً على هذه الحقيقة: لا ينبغي للغرب أن يضغط على العرب للدخول في أيما حلف من الأحلاف أو معسكر من المعسكرات. ومرة بعد مرة أوضح عبد الناصر الأسباب التي تدعوه إلى ذلك:

١ – كلما عقدت معاهدة أو حلف بين دول كبيرة ودول صغيرة فإن الدول الكبيرة سوف تسخر الدول الصغيرة لأغراضها ومصالحها مهما كانت النصوص الواردة في المعاهدة أو الحلف. ومثل هذه العلاقة تتعارض على نحو واضح مع مفهوم عبد الناصر للكرامة الوطنية.

٢ – إن روابط كثيرة تربط العالم العربي بالغرب، وهذه الروابط جديرة بأن تكفل التعاون بينهما. كانت هناك الاتفاقية المصرية البريطانية الخاصة بقناة السويس، ومعاهدة الدفاع المشترك الأردنية البريطانية، ومعاهدة الدفاع المشترك العراقية البريطانية، والقاعدة

الجوية الأميركية في الظهران، في المملكة العربية السعودية. وعبد الناصر لا يعتقد بأن ثمة ضرورة إلى عقد أيما معاهدات جديدة.

٣ – إن حلف بغداد طعنة للوحدة العربية لأنه يربط العرب بدول غير عربية، وهذا يضعف مقدرة العرب على العمل كجبهة دبلوماسية متراصة لتحقيق الأماني العربية.

وفوق هذا كله فقد جاء حلف بغداد يتحدى زعامة مصر للعالم العربي. لقد اعتبره المصريون محاولة من جانب الغرب لتقوية العراق في وجه مصر واستعدائه عليها. ولقد رأى عبد الناصر في ذلك برهاناً على كراهية الغرب لنظامه.

وشن عبد الناصر، بواسطة وزير الإرشاد القومي، صلاح سالم، حملة عنيفة على حلف بغداد هزت العالم العربي كله. وأعلنت الصحافة والإذاعة المصرية حرباً دعاوية ضد نوري السعيد ونظامه، لم تنته إلا بعد أن صرع نوري السعيد وسحبت الجماهير جثته في شوارع بغداد في منتصف شهر تموز (يوليو) من عام ١٩٥٨.

ودعا عبد الناصر جميع رؤساء الوزارات العرب إلى اجتماع خاص تعقده الجامعة العربية في القاهرة للمناقشة حول حلف بغداد. وتظاهر نوري السعيد بالمرض، وأحجم عن الحضور، ولكن رؤساء الوزارات الآخرين اشتركوا في الاجتماع. وفي ذلك الحين كان على رأس الحكم في لبنان والأردن وزارتان مواليتان للغرب، فأبى هذان البلدان أن يشجبا موقف العراق، ورفضا العرض المصري القائل بإنشاء حلف دفاعي عربي خالص كبديل عن حلف بغداد. وهكذا لم تخرج الجامعة العربية من اجتماعاتها بشيء راهن. ولكن مما ينبغي تسجيله هو أن أياً من الحكومات العربية الموالية للغرب لم تجرؤ على الانضمام إلى حلف بغداد.

***

وكانت الحادثة الثانية التي نسفت علاقات عبد الناصر بالغرب هي حادثة الهجوم الإسرائيلي على القوات المصرية في قطاع غزة الساحلي.

فحتى شباط (فبراير) عام ١٩٥٥ لم تول حكومة عبد الناصر الثورية المشكلة الفلسطينية غير اهتمام بسيط. صحيح إن الضباط الأحرار نظروا إلى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ نظرة جدية، وإن خيبة أملهم في فلسطين قادتهم إلى خلع فاروق عن عرشه، ولكن عبد الناصر كان في السنوات الأولى من عهد الثورة، في شغل شاغل بالقضايا المصرية الخالصة، بحيث لم يجد متسعاً من الوقت للاهتمام بالقضية الفلسطينية.

وحتى أوائل عام ١٩٥٥ كانت معظم الاصطدامات الناشئة عن المشكلة الفلسطينية تقع بين إسرائيل من ناحية، وسوريا أو الأردن من ناحية ثانية. فقد كانت هاتان الدولتان العربيتان تتاخمان إسرائيل، وكان في كل منهما عدد كبير من اللاجئين الفلسطينيين.

وفي عام ١٩٥٣ وأوائل عام ١٩٥٤ كان الأردن وإسرائيل دائماً على وشك الدخول في أتون حرب جديدة. كانت الهدنة المتزعزعة تُنتهك على نحو موصول، وكانت الغارات الدامية على الحدود أمراً مألوفاً. بيد أن رئيس وزراء إسرائيل الفظ، دافيد بن غوريون، ما لبث أن استقال فجأة، واعتزل الحياة السياسية مؤقتاً في النقب، فخلفه في رئاسة الوزارة موسى شاريت، وهو سياسي معتدل (نسبياً)، ومنذ ذلك الحين خفت وطأة التوتر على الحدود الأردنية في الحال، على الرغم من أن الحوادث الفردية لم تنقطع قط.

وفي مطلع عام ١٩٥٥ عاد دافيد بن غوريون إلى الحكم كوزير للدفاع. وأذكر أني قلت لأحد أصدقائي يومئذ:

- "أصبحت المسألة خطيرة الآن. وليس من ريب عندي في أن بن غوريون سوف يحاول أن يضرب ضربة قوية على الحدود. ولكني أتساءل أين ستكون ضربته هذه المرة؟".

وما انقضى غير أسبوعين حتى صحت تلك النبوءة. وهذه المرة كان الدور دور مصر، لا دور الأردن. فقد نصب الإسرائيليون كميناً لدورية مصرية على مبعدة بضعة أميال إلى الشمال من غزة. حتى إذا جاءت شاحنات ملأى بالإمدادات المصرية لنجدة

الدورية أوقعها الإسرائيليون في كمين جديد. وفي ذلك الهجوم الغادر قتل ٧٩ جندياً مصرياً. وثارت ثائرة اللاجئين في غزة، فهاجموا أبنية الأمم المتحدة، وحاولوا أن يصرعوا مراسلي الصحف الأميركية. كانوا يريدون أن يثأروا للجنود الصرعى.

وأسوأ من هذا كله، بالنسبة إلى **عبد الناصر**، ذلك الأثر السيئ الذي تركه هذا الحادث في جيشه بالذات. فقد كان من جملة الأسباب لخلع فاروق عدم استعداد جيشه الذي أرسله للقتال في فلسطين. وقد يتوهم بعض الناس، على إثر حادث غزة، أن **عبد الناصر** لم يعمل من أجل تقوية الجيش أكثر مما عمله فاروق...

وكان **عبد الناصر** ناقماً أشد النقمة بسبب حلف بغداد والهجوم على غزة عندما وصل السفير هنرى بايرود إلى مصر. وفي ذلك الحين، كان استياء **عبد الناصر** من الغرب قد أصبح واضحاً صريحاً. لقد حمل الغرب مسؤولية حلف بغداد، وحمل الغرب أيضاً مسؤولية الهجوم الإسرائيلي.

وكان بايرود في وضع حرج فيما يتعلق بحلف بغداد. فيوم كان مساعداً لوزير الخارجية الأميركية كان من أنصار إنشاء نظام دفاع خاص بدول "الحزام الشمالي" في الشرق الأوسط. وكانت هذه النظرية تقوم على هذا الاعتقاد: إن الدول العربية غير مستعدة للدخول في حلف دفاعي يموله الغرب ويقف من ورائه. وإذن فمن المعقول أن نركز جهودنا على إنشاء حلف دفاعي يضم الدول الواقعة شمالي العالم العربي والراغبة في التعاون مع الغرب عسكرياً.

إن ساسة الغرب كانوا يتوقعون ألا تنضم أيما دولة عربية إلى مثل هذا الحلف. ولكن نوري السعيد قلب حسابات الغرب رأساً على عقب وأدخل العراق في الحلف! ولم يكن في ميسور بايرود أن ينكر أنه كان قد أيد فكرة إنشاء حلف من دول الشرق الأوسط الشمالية، ومع ذلك فإنه لم يحاول أن يشق جبهة الدول العربية ويوقع الشقاق فيما بينها.

وكان شرح هذه المسألة لعبد الناصر أمراً عسيراً، خاصة بالنسبة إلى ما كان يعتلج في فؤاده آنذاك من استياء ونقمة.

* * *

وفي موضوع إسرائيل كان عبد الناصر شديد الاستياء من استمرار العون المالي الأميركي المتدفق على تلك البلاد. فقد كانت الولايات المتحدة الأميركية تقدم كل عام مساعدات اقتصادية إلى إسرائيل، البالغ عدد سكانها مليوناً وربع مليون ليس غير، أكثر مما تقدمه إلى جميع الدول العربية البالغ عدد سكانها أربعين مليوناً. وفي أوائل عام ١٩٥٥ كان ذلك يعني، بالنسبة إلى عبد الناصر، شيئاً واحداً، وهو أن الولايات المتحدة الأميركية كانت تدعم عدوه اللدود. ويوم وصل بايرود إلى مصر كان قد أصبح من المستحيل إقناع عبد الناصر بحسن نية أميركا نحوه. ولكن ذلك لم يفت في عضد بارود فعمل جاهداً حتى اكتسب آخر الأمر ثقة عبد الناصر وثقة الشعب المصري. أجل اكتسب ثقة عبد الناصر والشعب المصري بشخصه هو. ولكنه لم يوفق قط إلى اكتساب ثقتهما في الحكومة الأميركية.

وفي نيسان (إبريل) وقع حادث ثالث أبعد عبد الناصر أكثر فأكثر عن الغرب ودول الغرب. وكان ذلك الحدث هو المؤتمر الآسيوي – الأفريقي في باندونج.

والواقع أن عبد الناصر كان ولا يزال وثيق الاتصال، خلال السنوات الأخيرة، بجبهة الدول الآسيوية الأفريقية بحيث يبدو غريباً أن نقول اليوم إنه نظر إلى مؤتمر باندونج، بادئ الأمر، نظرة شك وريبة. فحين تلقت مصر الدعوة إلى حضور المؤتمر وافق عبد الناصر على الاشتراك في المؤتمر بتحفظ. كان يريد أن يتأكد من أن إسرائيل لن تدعى إلى المؤتمر. ثم كان عليه أن يتحقق من مسألة هامة: مَنْ كان وراء ذلك المؤتمر، ومن الذي يسيطر عليه؟ وفي آخر الأمر قبلَ الدعوة وقام بأطول رحلة قُدر له حتى الآن أن يقوم بها.

ورجع عبد الناصر من مؤتمر باندونج وقد عمرت صدرَهُ ثقةٌ جديدة بنفسه وبرسالته. كان قد قاس نفسه بالعملاقين الآسيويين – جواهر لال نهرو وشوان لاى – فخرج من ذلك وهو راضٍ عن نفسه. لقد اكتشف أن هذين السياسيين العالميين الضخمين كانا شخصين عاديين على أية حال، وأنه هو، فتى "بني مر" البلدي، لا يقل ذكاءً ولا مقدرة عن شووان لاى الذي نال ثقافته العالية في الاتحاد السوفييتي وعن نهرو خريج الجامعات الإنكليزية.

وأدرك عبد الناصر أن في استطاعة مصر أن ترفع، في العالم الآسيوى الأفريقي، رأسها عالياً، ومن يدرى فلعلها تصبح في يوم من الأيام زعيمة تلك الكتلة الهائلة. وإذا كان يستشعر أقصى المرارة تجاه الغرب، فقد كان من اليسير عليه آنذاك أن يأخذ بمبدأ الحياد الإيجابي الذي كان يتمسك به نهرو وغيره من الزعماء الآسيويين. وفي باندونج أيضاً، أجرى عبد الناصر أحاديث شخصية طويلة مع شووان لاى، وخرج من هذه الأحاديث وهو مقتنع بأن في استطاعة مصر أن تبحث عن المساعدة في مواطن أخرى غير الغرب.

***

ورجع عبد الناصر إلى القاهرة وهو مشبع بهذا التفكير السياسى الجديد. رجع لكى يواجه الأشهر الحرجة الصعبة التى كانت تنتظره.

لقد وجد قبل كل شيء أن متاعبه مع إسرائيل آخذه فى الاتساع والتضخم. وإنما نشأت المشكلة، فى أساسها، من الظروف التى وجد اللاجئون المحتشدون فى شقة غزة أنفسهم فيها. فقد كانت شقة غزة هذه لا يزيد عرضها على خمسة أميال؛ وكان طولها يبلغ عشرين ميلاً. وكان اللاجئون المحتشدون فى هذه الرقعة الضيقة يملكون قبل إنشاء إسرائيل أراض زراعية فى داخل فلسطين، وكانت هذه الأراضي واقعة الآن تحت

السيطرة الإسرائيلية. وفي عام ١٩٤٩ كان خط هدنةٍ قد رسم حول شقة غزة، ولكن من غير أن يُعقد أيما صلح بين الفريقين المتنازعين.

وكان من دأب اللاجئين الذين هدهم الفقر والشقاء أن يتسللوا إلى ما وراء الخط الذي رسمته الهدنة، وكانوا يفعلون ذلك - عادةً - تحت جنح الظلام، لكي يستولوا على بعض المحاصيل أو بعض أنابيب المياه من مزارعهم في إسرائيل. وكان من دأب الحرس الإسرائيلي أن يطلق النار على هؤلاء اللاجئين المتسللين إلى أراضٍ كانت من قبل ملكاً لهم. حتى إذا كان اليوم التالي، وأسدل الليل أستاره، رجع اللاجئون لينتقموا وليأخذوا بالثأر، فهم يلقون القنابل اليدوية، ويضعون المتفجرات أو يزرعون الألغام في طريق الدوريات الإسرائيلية. وحتى عام ١٩٥٥ كان يقوم بهذه الغارات أفراد من العرب بعد أن يغافلوا الحراس المصريين المرابطين على الجانب العربي من خط الهدنة. فكان الجيش الإسرائيلي يرد على هذه الغارات الفردية بغارات نظامية متواصلة. حتى إذا استمرت غارات اللاجئين الفردية عمدت إسرائيل إلى جعل انتقامها أضخم وأقسى على نحو موصول. وعندئذ لم يعد في ميسور عبد الناصر أن يتجاهل الوضع.

والواقع أن الغارات الإسرائيلية على غزة أدت إلى إحداث الشيء الوحيد الذي كان عبد الناصر يخشاه، وهو نشوء القلق والاضطراب في داخل قواته المحاربة. إن عدداً كبيراً من الضباط أعلنوا في صراحة إنهم مضطرون إلى القيام بانقلاب ضد عبد الناصر إذا لم يزودوا بالسلاح الذي يمكنهم ويمكن جنودهم من الوقوف في وجه إسرائيل وقفة الند للند. وفي داخل مجلس قيادة الثورة نفسه كان قلق واضطراب. كانت سياسة صلاح سالم في السودان ونشاطه في حقل الدعاية في العالم العربي قد اعتُبروا فاشلين. واختلف صلاح سالم مع زملائه، ثم استقال على نحو مفاجئ من الحكومة ومن مجلس الثورة...

ليس هذا فحسب، بل إن شقيق صلاح سالم - جمال سالم - كان يقوم برحلة في ربوع الشرق الأقصى، فما كان منه إلا أن مدّ أجل رحلته تلك وأرجأ ميعاد عودته إلى مصر.

وكان وزير الشؤون البلدية والقروية، عبد اللطيف البغدادي، يشكو إلى عبد الناصر دائماً من أن الحكومة لم تعمل شيئاً لتنفيذ ما وعدت به من إعادة الحياة البرلمانية إلى البلاد.

لقد قال عبد اللطيف البغدادي:

- "لقد وعدنا الشعب بأن نقدم إليه بعد ثلاث سنوات دستوراً جديداً. ولقد أدركنا الوقت، ولم يبق أمامنا وبين تنفيذ الوعد غير أشهر معدودات، ومع ذلك فنحن لا نفعل شيئاً من أجل إعداد هذا الدستور. متى سوف نبدأ بهذا الصنيع؟"

فما كان من جمال إلا أن دعا عبد اللطيف البغدادي إلى أن يخفف من غلوائه، ويفرغ جهده كله في أداء رسالته التعميرية والعمرانية.

وترك عبد اللطيف البغدادي مكتب جمال عبد الناصر وهو ساخط. لقد قصد إلى بيت نسيب من أنسبائه في الإسكندرية، وأخبر أصدقاءه أنه لن يحضر بعد اليوم جلسات مجلس الثورة. وكان كل من البغدادي وجمال سالم ضابطاً في سلاح الطيران، وكان كل منهما ذا شعبية، وكان ثمة إشاعات بأن كبار ضباط سلاح الطيران مستاؤون لعدم توفر السلاح الذي يستطيعون أن يواجهوا به الأزمة الإسرائيلية. وفكر عبد الناصر في هذا كله... فكر فيه وهو متألم إلى أبعد الحدود. فهو مضطر إلى الحصول على السلاح، وهو مضطر إلى الحصول عليه بأسرع ما يمكن لكي يرد على اليهود بلغتهم أولاً، ولكي يحول دون وقوع أي انشقاق في مجلس الثورة أو في صفوف الجيش ثانياً. وهكذا اتصل بالسفير الأميركي بايرود، وألح عليه بضرورة إقناع حكومته بالتعجيل بتزويد مصر بالسلاح، وكانت مصر قد تقدمت بطلب خاص بذلك منذ عهد بعيد، ولكن من غير أن تفوز بجواب ما من الحكومة الأميركية.

والحق إن مسألة تزويد مصر بالسلاح الأميركي تشكل فصلاً فاجعاً في تاريخ العلاقات المصرية الأميركية. إن هذه المسألة قد أقنعت عبد الناصر، أكثر مما أقنعته أيما مسألة أخرى، بأنه لا يستطيع أن يعتمد على الغرب في أي شيء يتصل بسلامة مصر.

والواقع أنه كان قد قدم إلى الولايات المتحدة أول طلب لتزويده بالسلاح في أواخر عام ١٩٥٢. ففي ذلك الحين أرسل عبد الناصر معاونه الموثوق، قائد الجناح علي صبري، على رأس بعثة لشراء السلاح من أميركا. وكان يساعد علي صبري في مفاوضاته هذه الملحق العسكري المصري في واشنطن اللواء عبد الحميد غالب. ولم تكن المسألة آنذاك مسألة الحصول على السلاح بصورة هبة تقدمها الولايات المتحدة إلى مصر. لا، فقد كان المصريون مستعدين لأن يدفعوا ثمن السلاح نقداً، وبالدولار أيضاً. ولم تكن المسألة مسألة زيادة قوى الجيش المصري، فقد كانت الأسلحة المطلوب شراؤها أسلحة بديلة تمكن الجيش المصري من الاحتفاظ بقوته التي كانت له آنذاك، ليس غير.

وما لبث علي صبري أن استاء من إحجام الأميركيين عن بيع السلاح ولو بكميات متواضعة للحكومة المصرية. وبعد مفاوضات متطاولة تم الوصول، من حيث المبدأ، إلى اتفاقية تستطيع مصر بواسطتها أن تشتري أسلحة أميركية بقيمة عشرة ملايين دولار. وكان ثمة تفاهم غامض على أن في إمكان مصر أن تعقد صفقات سلاح أخرى في المستقبل.

وبعد مفاوضات مرهقة للأعصاب، وبعد إجراء تعديلات كثيرة وتصحيحات متعددة، تمكن الفريقان من الوصول إلى اتفاق على لائحة الأسلحة المطلوبة. ولكن قبل أن يسار إلى توقيع وثيقة الاتفاق اقترح أحد المندوبين الأميركيين أن يأخذ هو اللائحة ويعد نسخة جديدة عنها، ذلك أن النسخة التي كانت بين أيدي الوفدين المتفاوضين كانت قد غُيرت وصححت عدة مرات حتى أصبح من المتعذر على المرء أن يقرأها، تقريباً. وقال المندوب الأميركي إن النسخة النهائية سوف تكون جاهزة في الساعة الرابعة بعد الظهر.

وفي اليوم التالي، عند الأصيل، تلقى اللواء عبد الحميد غالب مخابرة هاتفية من صديق له في وزارة الخارجية الأميركية. وقد روى اللواء غالب نفسه تلك الحادثة على الوجه التالي:

لقد سأل اللواء غالب صديقه على الهاتف:

- "هل أصبحت اللائحة جاهزة؟"

فأجاب الأميركي:

- "يسعدنا دائماً أن نراك، في أي وقت تستطيع أن تقوم فيه بزيارتنا هنا. ونحن نرجو أن نتمكن دائماً من الاحتفاظ بالعلاقات الطيبة التي جمعتنا في الماضي".

فصاح اللواء غالب:

- "ولكن اللائحة؟ هل أصبحت جاهزة؟ قل لي: نعم أو لا!".

- "أجل، أنت تدرك جيداً أن جميع الحكومات تعاني من الروتين ومن التأخر في إنجاز الأعمال تأخراً كبيراً...".

إن اللائحة لم تكن جاهزة. ولقد ألغيت الصفقة، ورجع قائد الجناح علي صبري إلى القاهرة وهو صفر اليدين. وفي السنوات الأخيرة بعد أن أمسى وزيراً لشؤون رئاسة الجمهورية، وُصف علي صبري في بعض الأحيان بأنه معادٍ للولايات المتحدة الأميركية.

***

وتكررت القصة نفسها كلما طلب عبد الناصر من الولايات المتحدة الأميركية تزويده بالسلاح. وكانت الحكومة الأميركية تحتج في كل مرة بحجة جديدة تتهرب بها من إجابة عبد الناصر إلى طلبه. فهي حيناً تزعم أنها تؤثر الانتظار حتى تنتهي المحادثات المصرية البريطانية حول مشكلة السويس. وهي حيناً تصر على عبد الناصر أن يوقع اتفاقية الأمن المتبادل، التي كانت تبدو في عيني عبد الناصر مثقلة بآلاف القيود والشروط. وهكذا استنتج عبد الناصر أن الولايات المتحدة لا تثق بمصر، وكان ذلك في نظر عبد الناصر، إهانة لمصر وإهانة لكرامته أيضاً.

وفي الوقت نفسه استمر تدفق المساعدة الأميركية على إسرائيل، وحكومة إسرائيل.

* * *

وفي تموز (يوليو) ١٩٥٥ دعي ديمتري شيبيلوف - رئيس تحرير البرافدا، وأحد الكواكب التي كانت قد أخذت تسطع في سماء موسكو - إلى زيارة القاهرة بوصفه ضيفاً على الحكومة المصرية. ولم يكد شيبيلوف يصل إلى العاصمة المصرية حتى عُين وزيراً لخارجية الاتحاد السوفيتي. وما هي إلا فترة يسيرة حتى شوهد عبد الناصر مستغرقاً في حديث مهموس مع السفير السوفييتي دانيال سولود، وذلك في إحدى الحفلات العامة.

وتسربت إلى واشنطن من شبكة التجسس الدولي تقارير مرعبة...

ثم انفجرت القنبلة...

هذه الجملة البسيطة كانت تاريخية حقاً. فلم يسبق قط من قبل لأيما زعيم عربي أن تحدى الغرب تحدياً مكشوفاً إلى هذا الحد، وفي قضية خطيرة إلى هذا الحد! وبهذه العبارة أثبت جمال عبد الناصر بما لا يقبل الشك على الإطلاق، أنه مستقل استقلالاً كاملاً عن الغرب في كل شيء. وبعد خمسة عشر قرناً من السيطرة الأجنبية أصبحت مصر، في نظر المصريين، حرة بالمعنى الصحيح.

* * *

أما في العالم العربي فكان رد الفعل هستيرياً. ففيما بين عشية وضحاها بلغت شعبية عبد الناصر ذروةً شامخة لم تبلغها من قبل شعبية أيما زعيم عربي حديث. لقد أصبح في نظر العرب صلاح الدين الجديد، والنبي الجديد، والبطل الكلي القدرة، ومنقذ العالم العربي. وابتهج اللاجئون العرب في مخيماتهم ابتهاجاً غامراً، وأقاموا الاحتفالات والأفراح، وارتفعت صور عبد الناصر في كل مكان. وفي شوارع عمان عاصمة الأردن، أخذ الباعة يبيعون كل صورة من صوره بقرش واحد، وكانوا يعجزون دائماً عن تأمين كمية الصور المتناسبة مع شدة الطلب عليها. وفي دكاكين دمشق وبيروت، وحتى في دكاكين بغداد، عُرضت صورة عبد الناصر في أبرز مكان، وأطلقت الأمهات على

مواليدهن اسم "جمال". واعتبره العرب جميعاً رمز القومية العربية والوحدة العربية. وبعد عقد صفقة الأسلحة التشيكية علق أحد الدبلوماسيين الأميركيين قائلاً:

- "لو أن جمال عبد الناصر رشح نفسه لانتخابات الرئاسة في لبنان أو في سورية، أو في الأردن اليوم، لانتخبه الناس هناك بالإجماع".

***

وتصرمت أيام... وتسربت أنباء عن ضخامة الصفقة، فإذا بالعرب أشد انشداهاً...

فقد تحدثت تلك الأنباء بأن الصفقة اشتملت على ثلاثمئة من طائرات "ميغ" الروسية، وخمسين قاذفة من القاذفات المعروفة باسم "إيليوشين"، وعلى عدد من دبابات ستالين الثقيلة يتراوح ما بين مئتين وثلاثمئة دبابة، وعلى مقادير كبيرة من الدبابات المتوسطة الحجم، ومن مدافع الميدان ومدافع البازوكا، والأسلحة الخفيفة، وكانسات الألغام، وغيرها وغيرها... وكان في ضخامة هذه الأعتدة ما أوقع في نفس المرء أن الشرق الأوسط قد زُود بقوة عسكرية جديدة كاملة.

لقد أصبح العرب مقتنعين الآن بأن جمال عبد الناصر قوي، وراود الأمل جموع اللاجئين الفلسطينيين بأن عبد الناصر سوف يقذف باليهود إلى البحر في مدة لا تتجاوز أشهراً معدودات.

وهتف أحد لاجئي غزة في ابتهاج غامر:

- "سوف نرجع إلى يافا، الصيف القادم!".

***

ولعل أكثر ما أثار العرب هو رد الفعل الذي أحدثته صفقة الأسلحة في واشنطن. لقد أصاب الذعر وزير الخارجية دالس، فسارع إلى إرسال مساعده، جورج آلين، إلى القاهرة في مهمة مستعجلة، ليس في استطاعة أحد حتى الآن أن يعرف حقيقتها.

وابتهجت الصحافة المصرية.

وعلقت الصحف العربية، فقالت:

- "في الأيام السالفة كان على المصريين أن يزحفوا إلى واشنطن لكي يلتمسوا رضاها... أما اليوم فإن واشنطن قد زحفت إلى القاهرة تسترضيها...".

ولم يكن آلين نفسه يعرف حقيقة مهمته تماماً. لقد كلفوه أن يذهب إلى القاهرة و"ينتظر تعليمات جديدة". حتى إذا وصل إلى هناك مكث في السفارة الأميركية ساعات طويلة قضاها في اجتماعات لا هدف لها ولا نهاية مع رجال تلك السفارة، منتظراً أن تأتيه التعليمات من واشنطن. وفي النهاية، اجتمع جورج آلين بعبد الناصر، وتحدث إلى عدد آخر من رجال الحكم في مصر، ثم مضى إلى سبيله. ولم يحقق شيئاً على الإطلاق.

* * *

وكان في مجيء جورج آلين إلى القاهرة ما أقنع العرب بأن عبد الناصر قد أكره الغرب على الركوع. وقد تأكدت هذه النظرة في أذهان العرب عندما تنادت الدول الغربية إلى عقد اجتماع لوزراء الخارجية في مدينة جنيف لدراسة هذا "التسرب السوفيتي الجديد إلى الشرق الأوسط". ولكن العرب أدركوا أن المؤتمر إنما اجتمع ليتخذ موقفاً من جمال عبد الناصر، من فتى "بني مر".

وحاول رجال السياسة الغربيون أن يحذروا المصريين من عبد الناصر... لقد قالوا لهم إن عبد الناصر قد "رهن" الاقتصاد المصري ليعقد صفقة سلاح مع الكتلة الشيوعية. ولكن الاقتصاد المصري الذي "أشفق" عليه الغربيون أثبت أنه قادر على احتمال تلك الصفقة. وحتى لو أنه لم يحتملها فما كان ذلك ليمنع المصريين والعرب من اعتبار صفقة السلاح كسباً لهم. لقد كانت قيمتها العاطفية عند العرب تتجاوز كل حد.

وإذا كانت صفقة الأسلحة التشيكية قد رفعت عبد الناصر إلى مرتبة "بطل الأبطال" أو Super – hero في العالم العربي، فإنها قد جعلت الغربيين ينظرون إليه نظرة ترشح بالحقد. فحتى ذلك الحين، كانت صحافة الغرب تقف من عبد الناصر موقفاً طيباً على العموم. ولكن ما إن عقد عبد الناصر صفقة الأسلحة تلك حتى أصبحت الصحافة الغربية تنظر إليه نظرتها إلى "شيوعي خفي أو مستتر". وفي الوقت نفسه كانت متاعب عبد الناصر مع إسرائيل قد جعلته هدفاً لحملة دعاية صهيونية كاسحة، حملة كان من الجائز أن تكون أقل نصيباً من النجاح لو لم يعقد عبد الناصر صفقة الأسلحة التشيكية.

إن صفقة الأسلحة أكسبت السوفييت أول انتصار دعاوي ضخم فازوا به في العالم العربي. فحتى عام ١٩٥٥ كان العرب ينظرون إلى روسيا بمثل الحذر والارتياب اللذين كانوا ينظرون بهما إلى الغرب. وحتى ذلك الحين لم تكن الأحزاب الشيوعية قد حظيت بأي تأييد من جماهير الشعب. صحيح إن الكثرة من العرب فقيرة، ولكن العرب كانوا محافظين من وجهة النظر الثقافية، وكانوا ينفرون من المذهب الماركسي بشعاراته الغريبة، غير المألوفة.

كان الاتحاد السوفييتي قد صوت، كما صوت الغرب، مؤيداً خلق دولة إسرائيل في عام ١٩٤٧ في أثناء مناقشة الجمعية العامة للأمم المتحدة للمسألة الفلسطينية. وخلال عهد ستالين كانت الحكومة العربية كلها تُعتبر دمى رجعية في أيدي الغرب، ولم يُبذل أيما جهد لإنشاء علاقات ودية بين العرب والاتحاد السوفييتي. وفي ذلك الحين كانت الدعاية الشيوعية تهاجم عبد الناصر وتعتبره فاشستياً وآلة مسخرة في يد الاستعمار. حتى إذا تمت صفقة الأسلحة التشيكية غير الاتحاد السوفيتي سياسته. فبدلاً من أن يحاول اكتساب صداقة الشرق الأوسط من أدنى، أي من طريق حمل الجماهير على الاقتناع بأيديولوجيته الثورية، راح يسعى إلى هذا الغرض من فوق، من طريق التقرب إلى أصحاب الحل والعقد. لقد حاول السوفييت هذه المرة أن ينشئوا صداقة جديدة مع الحكومات العربية بصرف النظر عن نظمها الاجتماعية.

***

وكان لهذه السياسة نتائجها السريعة. فبين عشية وضحاها أصبح الاتحاد السوفييتي هو الدولة الأكثر شعبية عند العرب. وكان في هذه السياسة السوفيتية الجديدة ما مكن الجماهير العربية من أن تصفق للاتحاد السوفييتي كصديق قوى من غير أن تفكر في الأيديولوجية الشيوعية. لقد مد الروس إلى العرب يد المعونة من غير أن يطلبوا أيما شيء لقاء ذلك، باستثناء النصر السياسي الذي جاء على أعقاب صنيعهم ذاك.

ولعل أبلغ مثل على الموقف الجديد الذي اتخذه العرب من السوفييت بعد صفقة الأسلحة، هو ذلك الذي ضربه صانع القمصان المصري الذي دعا مولوده باسم "محمد مولوتوف". طبعاً إن صانع القمصان لم يكن شيوعياً. لقد تشبث بعقيدته الإسلامية، وكان لا يزال يصلي الصلوات الخمس في المسجد. وهو بتسميته ابنه "محمد" قد أقام الدليل على إخلاصه للإسلام. ولكنه بإطلاقه عليه اسماً ثانياً، "مولوتوف"، قد أظهر من ناحية ثانية إعجابه بالاتحاد السوفييتي.

وأدرك عبد الناصر أنه قد غامر مغامرة خطرة بإقدامه على صفقة الأسلحة، ولكنه اعتبرها مغامرة مدروسة. لقد أرضت صفقة الأسلحة جيش عبد الناصر، وتناسى أعضاء مجلس الثورة خلافاتهم ووحدوا صفهم فأمسوا يداً واحدة. ومع ذلك فإن متاعب عبد الناصر لم تنته.

إن طائرات الميج ودبابات ستالين أعطت جيش عبد الناصر قوة ظاهرية، في نظر العرب. ولكن عبد الناصر نفسه كان يعلم أن جيشه لم يصبح بعد قادراً على الوقوف في وجه الجيش الإسرائيلي. صحيح إن هذا الجيش قد تلقى عتاداً كثيراً، ولكن كان لابد من تدريب أفراد الجيش على استعمال هذا السلاح الجديد، وهذا التدريب يحتاج إلى وقت طويل. ولقد كان عبد الناصر راغباً في أن يكسب الوقت لكي يتسنى له تدريب جيشه، بينما كانت الغارات العربية الفردية تتوالى على خط الهدنة.

وكانت إسرائيل ترد على هذه الغارات الفردية بغارات نظامية تقوم بها قواتها المسلحة نفسها. وراح المصريون يضغطون على عبد الناصر لحمله على القيام بعمل عسكري نظامي. وأعلنت إسرائيل سياسة انتقام منظم، فعبر جزء من جيشها النظامي شقة غزة، وهاجم قرية خان يونس، وحاصر المهاجمون الإسرائيليون مركز البوليس المصري هناك ونسفوه حتى لم يبق فيه حجر على حجر، وقتلوا أكثر من أربعين مصرياً وإسرائيلياً. وليلة هوجمت خان يونس كانت مصر على عتبة أن تخوض غمار الحرب. وفي القاهرة رفضت الإدارة الخاصة بفلسطين أن تقول أيما شيء عن الهجوم، معلنة في اختصار، "إن المسألة هي الآن في يد قيادة الجيش العامة".

كان عبد الناصر منصرفاً إلى عمله في ساعة متأخرة من تلك الليلة في مقر مجلس قيادة الثورة على نهر النيل. ورن جرس الهاتف. كان المتحدث هو اللواء عبد الحكيم عامر، وكان يروى لعبد الناصر تفاصيل الاعتداء.

وقال عامر:

– "أنا على استعداد. هل أقوم بهجوم معاكس؟"

فأجابه عبد الناصر:

– "لا تتحرك! أصدر أمرك بعدم إطلاق النار".

❋ ❋ ❋

وبعد فترة يسيرة من الزمن تحرك الإسرائيليون من جديد. وهذه المرة احتلوا منطقة العوجا الإستراتيجية الواقعة على الحدود، على الرغم من أن اتفاقية الهدنة المصرية الإسرائيلية تنص على أن العوجا منطقة مجردة من السلاح. وإنما اعتبرت هذه المنطقة مجردة من السلاح لكي يُحال بين أي من الفريقين، واكتساب أية ميزة عسكرية على الآخر. وتقع العوجا على مرتفع من الأرض وهي تُعد عقدة من عقد المواصلات الهامة. وفي

الأيام التي عقدت فيها الهدنة كانت تحتل العوجا في الدرجة الأولى قبيلة عربية بدوية، كانت تنتقل عادة ما بين مصر وفلسطين تبعاً للفصول والمراسم. وفي عام ١٩٥٣ طرد الإسرائيليون أفراد تلك القبيلة من العوجا وأنزلوا مكانهم جماعات من اليهود. وحتى عام ١٩٥٥ لم يكن الإسرائيليون قد احتلوا المنطقة احتلالاً عسكرياً.

والواقع إن هذا الاحتلال العسكري لمنطقة العوجا كان - كما لاحظ الأمين العام للأمم المتحدة السيد داغ همرشولد - خرقاً صريحاً لأحكام الهدنة، وقد حدث على الرغم من احتجاجات هيئة الرقابة التابعة للأمم المتحدة. ومما يذكر أن الإسرائيليين عندما احتلوا هذه المنطقة، في أواخر عام ١٩٥٥، حاصروا مراقبي الهدنة التابعين للأمم المتحدة في مقر قيادتهم في العوجا، وعطلوا وسائل اتصالاتهم اللاسلكية. حتى إذا أطلق سراح هؤلاء المراقبين كان الاحتلال الإسرائيلي قد أصبح أمراً واقعاً.

ولو أن عبد الناصر كان يبحث عن عذر لمهاجمة إسرائيل لكان هذا الهجوم الغادر هو الغدر. لقد كان هذا الاعتداء صريحاً، مكشوفاً، و"رسمياً". ولكنه هذه المرة أيضاً كبح جماح النفس وحبس نار الانتقام في زنادها. إنه لم يكن قد أكمل استعداداته، لقد كان يعرف هذه الحقيقة معرفة جيدة.

مثل هذه الهجمات الإسرائيلية كانت تعرض عبد الناصر لضغط متعاظم من جانب الرأي العام العربي كله. كان العرب يطالبون عبد الناصر بالانتقام والأخذ بالثأر. ولكن عبد الناصر لم يكن في وضع عسكري يمكنه من خوض الحرب. كان خوض الحرب ضد إسرائيل، آنذاك، لا يقل خطلاً وحماقة وخطراً من خوض فاروق غمارها في عام ١٩٤٨.

واختار عبد الناصر خطة وسطاً، لم تكن حرباً بالمعنى الدقيق، ولكنها كانت خليقة بأن ترضي شعبه.

وذات أصيل من عام ١٩٥٥ تلقيت مخابرة هاتفية من أحد موظفي دائرة الاستعلامات. كان الموظف المتكلم على الهاتف يتحدث في انفعال.

وصاح الموظف:

- "ههنا خبر لابد أن يهمك. إن الفدائيين المصريين (أو رجال الكوماندوس) قد نسفوا برجاً من أبراج الراديو عند أبواب تل أبيب مباشرة!".

وأصابني الذهول...

ذلك إن الحكومة المصرية كانت، حتى ذلك الحين، تتنصل من تحمل مسؤولية الغارات العربية الأفرادية على الحدود الإسرائيلية. وكان هذا التنصل يعتبر جزءاً من سياسة مصر الرسمية، بقدر ما كان إصرار اليهود على إذاعة أنباء الغارات الثأرية النظامية جزءاً من سياسة إسرائيل الرسمية. وها هو ناطق رسمي باسم الحكومة يذيع نبأ رسمياً عن هؤلاء الفدائيين أو رجال الكوماندوس، ويذيع كذلك نتيجة الهجوم الذي قاموا به!

وسألت الموظف:

- "هل أنت واثق من أنك تريد إذاعة هذا النبأ رسمياً؟"

فقال الموظف:

- "طبعاً، طبعاً. أرسله على أجنحة البرق. هذا هو جوابنا على إسرائيل!".

ووضعت صيغة برقية مستعجلة. وفي الحال حملتها وكالة الأسوشييتد برس إلى أرجاء العالم كله. لقد أذيعت بعشرات اللغات وطبعت على صفحات الصحف في كل قارة من القارات.

وبعد ثماني ساعات تقريباً تلقيت مخابرة هاتفية أخرى من الموظف نفسه، ولكنه هذه المرة كان أقل حماسة.

لقد قال لي:

- "ينبغي أن توقف إرسال تلك البرقية يا واين. لقد كان ذلك خطأ".

ولكن وقف إرسال البرقية، بعد ثماني ساعات، كان ضرباً من المستحيل. وأوضح لي الموظف أنه لم يكن مفروضاً فيه أن يذيع النبأ على الصحافة العالمية. لقد كان نبأ مخصصاً للصحف المحلية، لكي تنشره من غير أن تنسبه إلى أحد.

هذا النبأ كان أول تصريح مصري يدل على أن **عبد الناصر** قد سمح بضرب جديد من ضروب أخذ الثأر من إسرائيل: إرسال الفدائيين أو رجال الكوماندوس إلى أراضيها. وكلمة الفدائيين تعني، تقريباً، "المضحين بأنفسهم". وكان معظمهم فلسطينيين دربهم الضباط المصريون على أعمال الكوماندوس، وطلب إليهم أن يجتازوا الحدود لكي يزرعوا الرعب والذعر في أرض إسرائيل. وظل المصريون ينكرون — طوال فترة من الزمن — أن تكون لهم صلة رسمية بالفدائيين. وأخذت الصحف المصرية تنقل إلى قرائها يومياً تفاصيل عن أعمالهم في داخل إسرائيل، ولكن أنباء نشاط الفدائيين جاءت في الدرجة الأولى من إسرائيل نفسها — من طريق وكالات الأنباء أو من طريق إذاعات إسرائيل.

وفي بعض أحاديثه الشخصية صرح **عبد الناصر** بأنه قد وجه الفدائيين إلى إسرائيل.

لقد حدث صديقاً من أصدقائه عن ذلك فقال:

- "لقد كان إرسال الفدائيين إلى قلب إسرائيل هو وسيلة الانتقام الوحيدة التي استطعت أن أرد بها على اعتداءات بن غوريون. لأننا لو أقدمنا على القيام بغزو إسرائيل غزواً عسكرياً نظامياً، لأدى إقدامنا ذلك إلى نشوب حرب عالمية. ولقد كان من العبث أن ننصب المدافع ونقذف الأراضي التي تحتلها إسرائيل بالقنابل. لقد حاولنا ذلك مرة فلم تكن له أية نتيجة مرضية".

وفي حماسة بالغة، وانفعال واضح، أوضح **جمال عبد الناصر** لماذا عزم آخر الأمر على إرسال الفدائيين إلى قلب إسرائيل؟

لقد قال:

- "وهكذا عقدت النية على أننا، مقابل كل نفس عربية يزهقها بن غوريون، سوف نزهق نفساً إسرائيلية. ومقابل كل عربي يصيبه بن غوريون بجراح، سوف نجرح شخصاً يهودياً. أنا أريد أن أظهر لبن غوريون أن أرواح العرب ليست أرواحاً من الدرجة الثانية...".

ولكن عمل الفدائيين كان لا يزال "غير رسمي"، بمعنى أن الدولة كانت تتنصل من حمل مسؤوليته.

والواقع إن العمل الذي نهض به الفدائيون خفف ضغط الرأي العام العربي على عبد الناصر، إلى حد ما، ولكنه زاد في حرارة المسألة الفلسطينية وجعلها ترتفع أكثر فأكثر. فكلما قامت إسرائيل بهجوم أو اعتداء على العرب، عبر خط الهدنة، كان الفدائيون يتدفقون كالسيل إلى إسرائيل فيلقون القنابل ويزرعون الرعب والذعر. وكلما تحرك الفدائيون للأخذ بالثأر من إسرائيل كان الجيش الإسرائيلي يجيب بانتقام جديد. وكانت هذه حلقة مفرغة لابد أن تقود آخر الأمر إلى الحرب. ولقد ساءت الأحوال على الحدود، في ذلك الخريف، إلى حد بعيد جداً، حتى لقد تعين على عبد الناصر أن يلجأ إلى "صمام أمان" جديد يخفف عنه ضغط الرأي العام الذي لا يقدر حراجة الموقف.

❋ ❋ ❋

ففي ذات صباح أعلن أن القوات الإسرائيلية المتمركزة في العوجا قد اجتازت الحدود المصرية حتى وصلت إلى "الصبحا" في صحراء سيناء، حيث محت كتيبة مصرية كاملة. لقد قُتل في هذا الهجوم نحو مئة مصري، في حين لم يفقد الجانب الإسرائيلي غير أربع ضحايا كما قالت المصادر الإسرائيلية.

وعند الأصيل دعيت إلى مكتب القائمقام عبد القادر حاتم، مديرنا للاستعلامات. وقال لي حاتم:

- "لقد تلقينا أنباء سارة من الجبهة. لقد قامت قواتنا بهجوم معاكس، ولقد استرجعنا "الصبحا". إن هناك مئتي إسرائيلي قُتلوا في المعركة".

وبدا الرقم مرتفعاً جداً في نظري.

وقلت:

- "أليس من الأفضل أن نقول: مئتي إصابة، من غير تعيين لنوع الإصابة، وما إذا كان المصابون قتلى أم جرحى؟"

ولكن الأوان كان قد فات.

ذلك أن راديو القاهرة كان قد أذاع بلاغاً رسمياً أعلن إن مئتي إسرائيلي قد قتلوا.

وفي صباح اليوم التالي قمت برحلة طويلة إلى "الصبحا" مع نحو ثلاثين مراسلاً صحافياً آخرين. لقد حملتنا طائرة عسكرية مصرية إلى العريش، حيث يقوم أقرب مطار حربي إلى الحدود الإسرائيلية. ومن هناك نقلنا في الشاحنات على طريق ممهدة إلى القسيمة، وهي واحة كان للمصريين فيها مواقع دفاعية أمامية. ومن هناك امتطينا متن سيارات من نوع جيب، ورحنا نتخذ سبيلنا عبر الرمال، حيث لا طرق، إلى الموقع المعروف بـ"الصبحا".

كان الجيش المصري يحتل "الصبحا" الآن، من غير ريب. لقد رأينا ذلك بأنفسنا، وكانت ثمة آثار معركة. ولكن كان من العسير بعض الشيء إقامة الدليل على أن مئتين من الإسرائيليين قد قتلوا. وراح رجال الصحف، ومعظمهم جاء إلى مصر حديثاً، يمطر القائد المصري بوابل من الأسئلة:

قال المراسلون:

- "أين جثث المئتي إسرائيلي؟"

فأجاب القائد المصري:

- "إن الإسرائيليين يسحبون قتلاهم، دائماً، معهم. إن للجنود الإسرائيليين كلاليب معلقة في ملابسهم العسكرية، حتى إذا سقطوا صرعى كان في الإمكان سحبهم من مكان بعيد".

فسأله الصحافيون:

- "إذا كانوا قد سُحبوا بواسطة كلاليب، فكيف عرفتم إن مئتي جندي إسرائيلي قد قتلوا؟"

- "لقد رأيناهم محملين في شاحنات".

- "وكيف كان في إمكانكم أن تتأكدوا من العدد؟"

- لقد قمنا ببعض التقديرات فانتهينا إلى تحديد هذا الرقم".

وبعد يومين اثنين فهمت الحكمة التي حملت الحكومة المصرية على القول إن عدد ضحايا الإسرائيليين كان مئتين.

وفي العباسية إحدى ضواحي القاهرة، سارت جنازة رمزية لضحايا "الصبحا". كان ثمة جنديان يراد دفنهما في الكثبان الصحراوية القائمة إلى الشرق من القاهرة.وقد اتخذت جنازتهما تلك مناسبة لتكريم جميع أولئك الذين فقدوا حياتهم في المعركة.

ولحقتُ بموكب الجنازة في شوارع العباسية، وزاحمتُ بمنكبيَّ مناكب جماهير غفيرة من الشبان المصريين، المتقدة صدورهم بنار قومية متوثبة. لقد رأيت النعشين اللذين لُفا بالرايات الوطنية، وقد حملا من أقصى المدينة عبر جانب من الصحراء، إلى المقبرة، حيث كان في إمكان المرء أن يرى قباب القبور ترتفع وسط الضباب.

ولم أدرك إلا بعد انتهاء الجنازة مغزى رغبة المراجع المصرية في جعل عدد القتلى الإسرائيليين ضخماً إلى ذلك الحد، في معركة "الصبحا". ففي الأحوال العادية، كان

يكون من الجنون، ما دام التوتر على هذه الشدة، أن يمتزج الرجل الأجنبي بأيما حشد من الحشود المصرية في مناسبة كهذه. أما في ذلك اليوم، فإني لم أختلط بالجماهير المصرية فحسب، بل لقد رحب بي المصريون من جميع الجهات كلما لقيتهم وحيثما تلقيتهم. والواقع إن الفتيان الذين كان خليقاً بهم في عهد فاروق أن يمزقوني إرباً إرباً، بذلوا الآن جهدهم كي يوصلوني إلى أفضل الأمكنة التي أستطيع أن أرى الأشياء منها على الوجه الأمثل. إن بعض هؤلاء الفتيان قادوني إلى شرفة في طابق ثان لكي أتمكن من التقاط رسوم الجنازة.

وران الهدوء على القاهرة، بصورة تدعو إلى الدهشة، في ذلك اليوم. وصدرت افتتاحيات الصحف في لهجة معتدلة. ذلك أن الجمهور بدا وكأنه استشعر على العموم إن العدل أخذ مجراه، وإن صرعى اليهود قد أخذ بثأرهم. وهكذا خف التوتر على الحدود المصرية الإسرائيلية في اللحظة التي أوشكت فيها إسرائيل ومصر على خوض غمار حرب كاملة. وفي تلك اللحظات شعرت بأن في إمكاني أن أغفر لرجال الدعاية المصرية تضخيمهم للحقيقة بعض الشيء... لقد عرفوا كيف يواجهون جمهورهم وكيف يهدئون من ثائرته.

(٨)

زعامة العالم العربي

كان عام ١٩٥٥ عاماً حاسماً بالنسبة إلى جمال عبد الناصر. وما إن انقضى ذلك العام حتى كان عبد الناصر قد أصبح زعيم العالم العربي غير المنازع. والآن، وقد تم لعبد الناصر الفوز بهذه الزعامة الكلية المطلقة على العالم العربي، اشتدت حملة الدعاية المنطلقة من القاهرة، وبلغت أوجهاً من العنف والقوة. وبدأت بعض الحكومات العربية تشكو وتتذمر، زاعمة أن عبد الناصر يتدخل في شؤونها الداخلية.

إن الذي أزعج الزعماء العرب الآخرين وأثار حفيظتهم هو أن عبد الناصر كان يخاطب الشعوب العربية مباشرة، متجاهلاً الحكومات ومتجاوزاً إياها، وإنه كان يحظى بتأييد عظيم لدى شعوب تلك الحكومات بالذات. وكان رئيس الجمهورية اللبنانية كميل شمعون، والملك حسين ملك الأردن يغضبان كلما رأيا صورة عبد الناصر تُرفع في شوارع بيروت وعمان على نحو أضخم من صورهما. ولكن حتى أوائل عام ١٩٥٦ لم يكن أيما زعيم عربي يجرؤ على أن يقول كلمة واحدة ضد عبد الناصر. لقد كان عبد الناصر شعبياً إلى درجة جعلت كل معارضة له تعني الانتحار السياسي.

هذه الشعبية الواسعة العريضة كانت هي ورقة المساومة القوية الوحيدة التي أفاد منها عبد الناصر في تعامله مع الدول العظمى. كانت تجاربه مع الغرب قد علمته أن الغربيين لن يحترموه احتراماً كاملاً إلا إذا كان قوياً. وكان هو مدركاً لنقاط ضعفه في الميدانين العسكري والاقتصادي، ولكنه كان يعلم أن في استطاعته أن يصبح قوياً، في الميدان السياسي، من طريق نفوذه عند جماهير الشعب العربي التي تحتل الشرق الأوسط، ذا الموقع الإستراتيجي الحيوي، والينابيع النفطية التي لا تنضب.

***

وكان أشهر سلاح من أسلحة عبد الناصر الدعاوية إذاعة "صوت العرب" القوية، وكلما تعاظمت شهرة عبد الناصر، كانت الإذاعة تزداد شعبية يوماً بعد يوم في العالم

العربي. ومما يروى أن تاجراً سعودياً أراد أن يشتري ذات يوم جهازاً من أجهزة الراديو في جدة فاشترط على البائع أن يكون الجهاز "قادراً على التقاط صوت العرب". وكان اللاجئون الفلسطينيون في معسكرات غزة وأريحا يجتمعون جماعاتٍ جماعاتٍ في الأماكن العامة، كل يوم، لكي يسمعوا إذاعات "صوت العرب" النارية. واشتهرت تعليقات أحمد سعيد الإذاعية في طول العالم العربي وعرضه.

وفي أقصى السرعة الممكنة أخذ عبد الناصر يوسع نطاق صوت العرب ويقويه. لقد أخذت تلك الإذاعات تنطلق عبر شمال أفريقيا إلى الثوار الجزائريين. وباللهجة السواحلية أخذ "صوت العرب" يحرض الماو ماو في كينيا على الانتفاض على أسيادهم البيض. ليس هذا فحسب، بل لقد شرع "صوت العرب" يوجه الإذاعات إلى الإسرائيليين باللغة العبرية. ودعا أبناء الكويت والبحرين الغنيتين بالبترول إلى إخراج البريطانيين من البلاد. واستثيرت الحركة القومية في بلاد الصومال.

وكان رد الفعل قوياً عند البريطانيين والفرنسيين... لقد اعترفوا بأن لعبد الناصر مصالح مشروعة في العالم العربي، ولكن حين يصل الأمر إلى زنجبار، وكينيا، وأفريقيا الغربية الفرنسية، فإنهم كانوا يشعرون بأن عبد الناصر قد ذهب على أبعد مما ينبغي. وفي مطلع عام ١٩٥٦ بدأت هاتان الدولتان تعتبران عبد الناصر عدواً رئيسياً.

* * *

ووجد عبد الناصر في صحافة القاهرة وسيلة جاهزة من وسائل الدعاية القوية. فقد كانت القاهرة هي المركز الصحافي الأعظم في العالم العربي، وكانت كل من صحفها اليومية الرئيسية تطبع – مع شيء من التفاوت فيما بينها – نحواً من مئة ألف نسخة يومياً، في حين كانت الصحف في بغداد، أو دمشق، أو بيروت، أو القدس، تناضل نضالاً مريراً لكي ترتفع بمطبوعاتها إلى خمسة آلاف نسخة أو ستة آلاف نسخة. وكانت الصحف المصرية هي أسبق الصحف العربية إلى اقتناء آلات الينوتيب، وحفر الصور، وماكينات

الطباعة الحديثة. وكانت هى أسبق الصحف العربية أيضاً إلى الاشتراك بجميع وكالات الأخبار الكبرى في العالم، وأسبقها إلى التعاقد مع مراسلين خصوصيين يزودونها بالأنباء من مختلف العواصم العالمية. لقد درس محررو الصحف المصرية صحافة الغرب دراسة دقيقة، ولقد عرفوا كيف يقبسون الأساليب الفنية الأميركية والبريطانية في براعة، وكيف يكيفونها وفقاً للأذواق العربية.

فكانت نتيجة ذلك كله أن صحف القاهرة أصبحت هى الصحف المقروءة أكثر من غيرها في الكويت والخرطوم، وفي بيروت وبغداد. وحين زارت زوجتي "الحريم" في اليمن وجدت السيدات المعزولات هناك في بيوتهن مستغرقات في مطالعة الصحف المصرية اليومية.

وحين تولى عبد الناصر مقاليد السلطة في مصر لم يكن في حاجة إلا إلى أن يوجه بعض الإرشادات والتوجيهات حتى تجند هذه الإمبراطورية الصحافية نفسها لخدمة القضية التي يدافع عنها. وهكذا لم ينقض وقت طويل حتى منعت معظم الدول العربية دخول الصحف المصرية إلى أراضيها. ولكن هذه الصحف كانت تهرب إلى البلاد العربية في أعداد كبيرة إلى درجة كافية لأن تجعل كلمتها ذات أثر فعال.

وفي مطلع عام ١٩٥٦ أسس عبد الناصر وكالة أنباء رسمية، هى وكالة أنباء الشرق الأوسط. وفي بادئ الأمر أسندت إدارة هذه الوكالة إلى صحافي مصري قدير هو جلال الحمامصي. وبعد مدة وجيزة رُفع الحمامصي وجُعل رئيساً لمجلس الإدارة، وعُين سكرتير عبد الناصر الصحافي، القائمقام كمال الدين الحناوي، مديراً للوكالة، وكان الحناوي صحافياً في بغداد من قبل.

* * *

وكان التحرق إلى التعليم، هذا التحرق الذي تلمسه في أجزاء العالم العربي كله، قد زود عبد الناصر بسلاح آخر من أسلحة الدعاية القوية. وعندما استقلت الدول العربية

واحدة بعد أخرى اشتدت الحاجة إلى التعليم، وبلغت نسبة مرتفعة جداً. لقد كانت الأمية واسعة الانتشار في العالم العربي كله.

ولم تكن معالجة المشكلة أمراً هيناً يسيراً. فقد كان في ميسور الحكومات أن ترصد أموالاً طائلة على التعليم، ولكن من أين لها أن تأتي بالمعلمين؟ في حقل الدراسات العليا، كان في إمكان الدول العربية أن تستقدم الأساتذة من الغرب. ولكن في المدارس الابتدائية والثانوية، كان المعلمون العرب شيئاً ضرورياً لا يستغنى عنه. وكانت العراق، والأردن، والعربية السعودية، وليبيا محتاجة أعظم الاحتياج إلى معلمين عرب ينهضون بعبء التدريس في معاهدها. ولم يكن ثمة بلد عربي غير مصر قادراً على ملء هذا الفراغ وسد هذه الحاجة...

وهكذا وجدنا المعلمين المصريين يتجهون إلى كل رجا من أرجاء الشرق الأوسط، بل ويتجهون حتى إلى الحبشة وبلاد الصومال. وحتى العراق، الذي كانت حكومته تعادي عبد الناصر عداءً مريراً، اضطرت إلى الاستعانة بالمعلمين المصريين. ليس هذا فحسب، بل لقد نفذت البعثات التعليمية المصرية إلى بلاد اليمن والعربية السعودية المنعزلتين. كما استعانت الكويت، والبحرين، وعدن، الخاضعة كلها للنفوذ البريطاني، بالمدرسين المصريين.

خلال سنوات الثورة الناصرية الخمس الأولى بلغ عدد المعلمين المصريين العاملين في الدول العربية الأخرى ثلاثة أضعاف عدده السابق. وفي بعض الأحوال، كما هي الحال في اليمن مثلاً، كانت الحكومة المصرية تدفع الرواتب إلى معلميها بموجب اتفاقيات ثقافية ثنائية. وفي مواطن أخرى، كلبنان مثلاً، حيث لم تكن الحاجة ماسة إلى المعلمين المصريين، كانت الحكومة المصرية تدفع الرواتب إلى المدرسين المصريين العاملين في بعض المدارس الإسلامية الخاصة غير القادرة على دفع هذه الرواتب من ميزانياتها المتواضعة.

وحيثما قصد هؤلاء المعلمون، كانوا يحملون معهم شعلة القومية العربية التي أضرمها عبد الناصر. وبين الفينة والفينة، كانت بعض الحكومات العربية تخرجهم من ديارها لأسباب سياسية. ولكنهم كانوا لا يلبثون أن يرجعوا، لأن البلدان العربية كانت في أمس الحاجة إلى المعلمين.

* * *

وكما ذهب المعلمون المصريون إلى الدول العربية الأخرى، كذلك وفدت جموع الطلاب العرب على مصر من تلك الأقطار. والواقع إن اليمن، والعربية السعودية، والكويت، ترسل أبناءها إلى المعاهد المصرية بكثرة ملحوظة. وليس هذا عجيباً، فهذه البلدان لا تحب أن تعهد في شؤون طلابها إلى الكليات والجامعات القائمة في الديار الغربية، المسيحية. وهي تفضل إلى جانب ذلك أيضاً أن ينال طلابها ثقافتهم باللغة العربية. ومصر، ذات الجامعات الضخمة المتنامية والجهاز التعليمي العريض، هي المكان الوحيد الذي يستطيع فيه الطلاب أن يحققوا هذه الرغبة. وليس ثمة بلد آخر يستطيع هؤلاء الطلاب أن ينتجعوه طلباً للثقافة الرفيعة إلا لبنان. ولكن الجامعتين الرئيسيتين في لبنان أجنبيتان، فإحداهما أميركية والأخرى فرنسية!

ومما يجذب الطلاب إلى القاهرة، لا الطلاب العرب فحسب، بل الطلاب الوافدين من سائر أرجاء العالم الإسلامي، جامعة الأزهر الإسلامية البالغ عمرها الآن ألف سنة ونيِّفاً. والجامعة الأزهرية تقع في جامع قائم في وسط مدينة القاهرة الأصلية، حيث لا تزال الحياة تجري عبر شوارع عتيقة ضيقة كما فعلت قبل ألف عام. وإذا كانت الجامعة الأزهرية واحدة من أقدم الجامعات في العالم، فلا ريب في أنها ذات شخصية فريدة إلى حد بعيد. إن طرائقها التعليمية لم تختلف كثيراً عن طرائقها يوم كانت أعظم مركز من مراكز التعليم في العالم المتمدن.

أما في السنوات الأخيرة فقد جرت محاولات لصبغ برامج التعليم في الأزهر بصبغة القرن العشرين، فأدخلت في برامجها موضوعات جديدة كالكيمياء، وعلم الفلك. ومن التجديدات المدهشة التي طرأت على برامج التعليم في الأزهر إنشاء صف لتعليم فن الرسم. ولكي تعرف أهمية ذلك، يتعين عليك أن تدرك أن الأزهريين منذ جيل واحد فقط كانوا يعتبرون التصوير إثماً من الآثام ويرون فيه مخالفة لتعاليم القرآن.

ولكن هذه التعديلات البسيطة لم تغير وجه الأزهر تغييراً جوهرياً. فنواة الدراسة الرئيسية لا تزال تقوم على تعليم القرآن واللغة العربية، ولا يزال الأساتذة والطلاب يرتدون الجبة والعمامة ويتلقون الدروس وسط غابة من الأعمدة في الجامع الكبير.

ومنذ عهد بعيد تبنت الحكومة المصرية نظاماً أوروبياً لمدارسها، ابتداءً من المعاهد الأولية حتى الجامعة. وتستطيع مصر أن تفخر، اليوم، بأن لديها أربع جامعات عصرية منظمة كلها على الغرار الأوروبي. ولقد شجعت حكومة عبد الناصر الشباب المصري على الإفادة من نظم التعليم العصرية. ومع ذلك فإن الدولة لا تزال تدعم الأزهر وترعاه. والواقع إن المحافظين من المسلمين يعتبرون الأزهر أعظم مركز من مراكز التعليم في العالم الإسلامي، وهذا معناه أن الطلاب لا يزالون يفدون إليه من تركستان والصين، ومن أوزبكستان ونيجيريا، ومن أفغانستان وأندونيسيا. إن وجود الأزهر في العاصمة المصرية يخلع على هذه العاصمة صفة العاصمة الثقافية للعالم الإسلامي، وبكلمة، فإن في ميسور المرء أن يطلق عليها اسم عاصمة الإسلام، ومعظم الفضل في ذلك راجع إلى الأزهر.

والطلاب الذين يفدون إلى الأزهر من وراء البحار يُعطون إعانات مالية شهرية تساعدهم على العيش. وبعد أن يقضوا بضع سنوات في القاهرة يرجعون إلى بلادهم ليتولوا مناصب التوجيه والإرشاد في مجتمعاتهم الإسلامية المحافظة، وليصبحوا دعاة متحمسين لمصر وقضيتها.

وهكذا، لم تكد تطل سنة ١٩٥٦ حتى كان **عبد الناصر** قد أمسى زعيم العالم العربي. وبدأ بعض المراقبين يقولون إنه كان يعمل من أجل وحدة عربية شاملة. وبدأ بعضهم الآخر يتحدثون عن "نياته العدوانية". وفي حوالي هذا الوقت وقع عبد الناصر اتفاقات عسكرية مع سوريا، والمملكة العربية السعودية، واليمن. وفهم فريق من مراسلي الصحف من هذه الخطوة أن **عبد الناصر** يريد أن يخضع العالم العربي لسلطانه...

وفي ذلك الحين كنت أنا مقتنعاً بأن **عبد الناصر** لم يكن لديه مشروع خاص للوحدة العربية. وما هذه الآلة الدعاوية الضخمة التي أنشأها غير وسيلة يُراد بها أن تمكنه من أن يرد على كل ضربة يوجهها إليه الغرب بضربة مماثلة، وليس المقصود منها إذابة الدول العربية في وحدة كاملة. صحيح إن العالم العربي كله يغلي، آنذاك، من أقصاه إلى أقصاه، بالعاطفة القومية الجامحة، ولكن **عبد الناصر** لم يوجد تلك الحركة من العدم. إن هذه القومية العربية لم تبدأ مع **عبد الناصر**، وهي لن تنتهي معه. فالوطنيون الجزائريون استهلوا حربهم من أجل الاستقلال يوم كان **عبد الناصر** ما يزال طفلاً. والرئيس **شكري القوتلي**، رئيس سوريا السابق، استاقه الفرنسيون إلى غياهب السجن قبل أن يسمع الناس باسم عبد الناصر. وكان فريق من مفكري سوريا، ولبنان، والأردن، الشباب، قد ضُربوا أو سُجنوا بسبب دعوتهم إلى الوحدة العربية، قبل أن يعرف الناس شيئاً عن **عبد الناصر**. والواقع إن القومية العربية الحديثة نمت، أول ما نمت، في نهاية القرن الماضي، وأوائل القرن الحاضر، في أوساط بعض الشبان العرب الذين كانوا يتلقون دروسهم في الجامعة الأميركية في بيروت، وكانت الحركة قد أخذت تزداد قوةً منذ ذلك الحين، مع شيء من الفروق البسيطة في كل بلد عربي.

ولكن هذا لا ينفي، على أية حال، أن **عبد الناصر** هو اليوم رمز هذه الحركة، حركة القومية العربية، وإنه كان منذ نشأة الحركة إلى اليوم أكثر رجالها وزعمائها نجاحاً، وهكذا أمسى "علماً" على القومية العربية.

لقد خلعتُ على عبد الناصر آنذاك لقب "روبن هود النيل". وفي نظر معظم الوطنيين العرب، خارج مصر، كان عبد الناصر أشبه بزعيم شعبي مناضل اتخذت شهرته شكل أسطورة حلوة تُلهم الجماهير وتوحي إليهم بأسمى المعاني.

أجل، لقد أصبح عبد الناصر رمز القومية العربية، على نحو غير رسمي، في نظر رجل الشارع. أما بالنسبة إلى مجموعة من المفكرين الشباب، في دمشق وعمان، فكان عبد الناصر رمزاً للقومية العربية أيضاً، رمزاً يعيه هؤلاء المفكرون وعياً أقوى وأصح. وكان هؤلاء الشبان هم زعماء حزب "البعث العربي الاشتراكي". وكان قائد "البعث" الفكري رجلاً سورياً مسيحياً، رجلاً ضئيل الجسم غير واسع الشهرة، يدعى ميشال عفلق، وكان بعض معارفه يطلقون عليه لقب "غاندي القومية العربية". وكان يشاركه في زعامة الحزب كل من أكرم الحوراني، نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة اليوم، وصلاح الدين البيطار الذي كان فيما مضى وزيراً للخارجية السورية. أما في الأردن فكان يرأس الحزب عبد الله الريماوي، وزير الدولة السابق، وعبد الله نعواس عضو البرلمان الأردني السابق، وكانوا كلهم رجالاً في ريعان الشباب.

وكان المبدأ الأساسي الذي نادى به حزب "البعث" هو مبدأ الوحدة العربية. وهو يفهم من هذه الوحدة وحدة جميع الشعوب الناطقة بالعربية من المحيط الأطلسي إلى الخليج الفارسي، من مراكش إلى العراق. وحزب البعث حزب اشتراكي، ذلك أن عفلق قد آمن بأن العرب يجب أن يتحدوا لكي يحققوا الحرية والاستقلال، وبأن عليهم – إذا أرادوا الاحتفاظ بتلك الحرية وذلك الاستقلال – أن يعتنقوا الاشتراكية لكي يطوروا حياتهم الاقتصادية في سرعة بالغة. بيد أن الحزب لم يؤكد على الاشتراكية بقدر ما أكد على الوحدة العربية.

وانقضت ست عشرة سنة على تأسيس حزب البعث، ولاقى نجاحاً لا بأس به في العالم العربي. ففي سوريا مثلاً كان البعثيون يملكون عدداً من المقاعد في البرلمان السوري

- نتيجة الانتخابات عام ١٩٥٤ - يجعلهم القوة الحزبية الثالثة تحت قبة البرلمان. وقد تعاظمت قوتهم نتيجة التأييد الضخم الذي لاقوه من ضباط الجيش الذين كانوا يتولون بعض المناصب الأكثر حساسية. أما في الأردن فلم يفز الحزب بغير مقعدين في انتخابات عام ١٩٥٦ النيابية. أما في الدول العربية الأخرى فكان حزب البعث ذا أثر ضئيل في الحياة السياسية.

واستنتج عفلق من هذا كله أن الحزب في حاجة إلى زعيم ضخم جداً بحيث يستطيع أن يتخطى الحدود القائمة بين الدول العربية ويجذب جميع العرب إلى رايته. ولم يكن غير ثمة رجل واحد مؤهل لأداء هذه الرسالة، وكان ذلك الرجل هو جمال عبد الناصر.

ومنذ ذلك الحين أصبح عبد الناصر، عند البعثيين، رمزاً للقومية العربية. وتحت راية عبد الناصر حقق حزب البعث هدفاً ما كان يستطيع أن يحققه بطريقة أخرى إلا بعد انقضاء عشرات السنين، أعني وحدة سوريا ومصر.

لقد وجد القوميون العرب في عبد الناصر إماماً لهم يهتدون بهديه ويؤمنون بكل كلمة يقولها. لقد أصبح عبد الناصر، كما عبر أحد سائقي التاكس السعوديين، "الرجل الذي في القمر". لقد أصبحوا يتطلعون إليه ويسيرون على خطاه.

لقد اشتكت بعض الحكومات من "صوت العرب" زاعمة أن لها تأثيراً خطراً على رعاياها. ولكن عبد الناصر لا يحتكر أمواج الأثير في الشرق الأوسط. فالبريطانيون يملكون إذاعة عربية ضخمة ملحقة بهيئة الإذاعة البريطانية أو الـ "بي.بي.سي". وكذلك كان للبريطانيين محطة إذاعة من الدرجة الأولى قائمة في قبرص، وكانت هذه الإذاعة تذاع بالعربية للعرب بالذات، وتدعى محطة الشرق الأدنى للإذاعة العربية. وإسرائيل أيضاً تملك محطة تذيع برامجها باللغة العربية، كما أن لكل حكومة من الحكومات العربية محطة إذاعة رسمية. وكانت ثمة أيضاً عدة محطات سرية قوية تهاجم عبد الناصر في عنف شديد. وإذا كان "صوت العرب" قد تغلب على هذه المحطات كلها، فإن ذلك لم يتم لأن

المشـرفين عليها أصحاب براعة في الدعاية متفوقة، ولكن لأنه كان يقول للعرب ما يريـد العرب أن يسمعوه. إنه في إذاعاته لم يخلق بين العرب اتجاهات ومواقف. لا، لقـد اكتفـى بأن وضع التوكيد على اتجاهات ومواقف موجودة من قبل، واستثارها.

واتخذت الدعاية الناصرية، على العموم، شكل الهجوم على الغرب. فما أن يصدر عن الفرنسيين، مثلاً، عمل يسيء إلى العرب حتى تعمد أجهزة الدعاية المصـرية إلى تقوية حملة الإذاعة المضادة لفرنسا، الموجهة إلى شمالي أفريقيا، وجعلها أعنف من ذي قبـل. حتـى إذا انقضت على ذلك فترة من الزمن تراخت الحملة بعض الشيء ورُكزت على هدف آخر.

وكانت معظم الدول العربية قد أصبحت الآن مستقلة، اسـمياً، عـلى الأقـل، ولكـن عبد الناصـر ظل يهاجم ما تبقى من نفوذ غربي في العالم العربي. وعلى العموم فقـد كانـت دعاية عبد الناصـر تقسم الدول العربية إلى فـريقين: فريـق الـدول العربيـة الحـرة، مثـل مصـر، وسوريا، التي كانت تعمل بحرية وتتحـدى الغـرب في بعـض الأحيـان. وفريـق الدول المستعبدة التي اعتمدت على الغرب في الدفاع عن نفسها وفي المعونة الاقتصادية.

وكان خير مثل على الدول العربية المستعبدة الأردن والعراق. فالأردن كانـت تربطـه ببريطانيا معاهدة دفاع متبادل، ولموجب هذه المعاهدة، كانت بريطانيـا تـدفع، سـنوياً، إلى الأردن معونة مالية تمكنه مـن الإنفـاق عـلى جيشـه، الـذي كـان يـدعى آنـذاك "الفرقـة العربية". وكان الجيش الأردني هذا بقيادة القائد البريطاني الجنرال جون باغوت غلـوب، وكانت بريطانيا تحتفظ بقوة عسكرية محدودة في الأراضي الأردنية. أما العراق فقد سبق لي أن تحدثتُ عنه. كانت المعاهدة العراقية البريطانيـة قـد اسـتعيض عنهـا، في عـام ١٩٥٥، بحلف بغداد. وكان المشـرفون على أجهزة الدعاية في القاهرة يعتقـدون أن حلـف بغـداد يكبل العراق ويشده إلى الغرب أكثر مما كانت تكبله المعاهدة العراقية البريطانية القديمة.

وفي جبهة الدول العربية المتحررة كانت سوريا، والمملكة العربية السعودية، واليمن، هي حليفات عبد الناصـر الرئيسية. ثم إن المملكة العربيـة السـعودية تلكـأت وتعثـرت،

ولكن سوريا واليمن بقيتا تسيران مع عبد الناصر جنباً إلى جنب، بل ظلتا تزدادان اقتراباً من عبد الناصر حتى اتحدت الدول الثلاث، آخر الأمر، في اتحاد فيدرالي.

وخلال عام ١٩٥٥ وعام ١٩٥٦ لم يكن غريباً أو مدهشاً أن تزداد علاقات عبد الناصر مع الغرب سوءاً على سوء. كان كل شيء يعمل على توسيع الشقة التي تفصل ما بين الفريقين. وخلال هذه الفترة من الزمن اقترف الغرب حماقاتٍ وأخطاء كلاسيكية عجلت في حدوث القطيعة.

ومن هذه الحماقات والأخطاء تلك التي ارتكبها الغرب في موضوع تسليح إسرائيل. فبعد أن أعلن عبد الناصر عن عقده صفقة الأسلحة التشيكية، ضغط الإسرائيليون على الغرب ضغطاً شديداً التماساً للسلاح لكي يعيدوا توازن القوى إلى سابق عهده في الشرق الأوسط. ولكن الدول الغربية أدركت أن النزول عند هذا الضغط الإسرائيلي لن تكون له غير نتيجة واحدة: هي قيام سباق تسلح خطر في الشرق الأوسط، وهكذا امتنع الغرب عن تلبية رغبة إسرائيل طوال بضعة أشهر. بيد أن الدول الغربية ما لبثت أن اجتمعت، في ربيع عام ١٩٥٦، في باريس لمناسبة انعقاد حلف الأطلسي. وكان مصدر مجهول قد أحاط عبد الناصر علماً بأن الدول الغربية قد تبنت سياسة في التسلح جديدة، تتلخص في تقديم مزيد من السلاح إلى إسرائيل. فما كان من عبد الناصر إلا أن أذاع على العالم بياناً رسمياً أعلن أنه سوف يتخذ "الإجراءات المناسبة" لمواجهة هذه السياسة الجديدة التي تبناها الغرب.

وأنكرت الدول الغربية أن تكون قد اتفقت على أيما سياسة في التسليح جديدة، ولكن الأيام ما لبثت أن أثبتت صدق اتهام عبد الناصر للدول الغربية. فما هي إلا فترة قصيرة، حتى بدأت فرنسا تقدم إلى إسرائيل مقداراً إضافياً من الطائرات النفاثة. وبعد الهجوم الإسرائيلي على مصر، في أواخر عام ١٩٥٦ تبين بما لا يحتمل الشك أن المساعدة العسكرية الفرنسية المقدمة إلى إسرائيل كانت أضخم بكثير مما اعتُرف به من قبل. ورفض ناظر الخارجية الأميركية، جون فوستر دالس، أقول رفض في رياء ونفاق أن

يسمح للولايات المتحدة الأميركية، بأن تبيع السلاح لإسرائيل، ولكنه ضغط في الوقت نفسه ضغطاً شديداً على كندا لكي تقوم هي بهذه المهمة، فأذعنت كندا له ونزلت عند إرادته آخر الأمر.

وكان رد عبد الناصر على ذلك لطمة جديدة لطم بها وجه الغرب...

لقد أعلن فجأة اعترافه بالصين الشيوعية.

ولم يكن الاعتراف بالصين الشيوعية كبير صلة - ظاهرياً - بمسألة الحظر على السلاح. وتذهب إحدى النظريات إلى القول بأن عبد الناصر اعترف بالصين الشيوعية، وهي ليست عضواً في هيئة الأمم المتحدة، لكي يستطيع أن يشترى السلاح من الاتحاد السوفييتي، بواسطة الصين، إذا ما اتخذت الأمم المتحدة قراراً بحظر تصدير الأسلحة إلى الشرق الأوسط، وكانت ثمة محاولات إلى اتخاذ قرار بشأن هذا الحظر. ولكن التفسير المعقول أكثر هو أن الاعتراف بالصين الشيوعية كان صفعة ناصرية أخرى للغرب، وهي خطوة أكدت من جديد استقلال عبد الناصر عن الغرب وتحرره من سلطانه.

وكان الوقت الذي اختاره عبد الناصر لهذه الخطوة هو الذي خلع عليها معنى الصفعة للغرب، ولولا ذلك التوقيت الخاص لبدت معقولة جداً حتى على أساس من المقاييس الغربية. ذلك أن الصين الشيوعية كانت قد بدأت تشترى القطن المصري على نطاق واسع، وكان البلدان قد تبادلا البعثات التجارية منذ زمن.

وكانت الحماقة الغربية الثانية حماقة ارتكبها البريطانيون وحدهم.

فقد كانت للبريطانيين مصالح ضخمة في قاعدة منطقة قناة السويس، وكان من مصلحتهم أكثر من أية دولة أخرى أن تكون علاقتهم بمصر علاقات ودية. وفي خريف عام ١٩٥٥، بعد عقد صفقة السلاح التشيكية بقليل، قامت حكومة إيدن بمحاولة قوية لتحسين العلاقات بين بريطانيا وعبد الناصر، وكادت المحاولة أن تنجح.

لقد زار وزير الخارجية البريطانية سلوين لويد، القاهرة، وأجرى محادثات مرضية جداً مع عبد الناصر. ووعدت بريطانيا بأن تبدأ في إرسال شحنات من الأسلحة إلى مصر، ابتداء من كانون الثاني (يناير) عام ١٩٥٦. وقال كبار الرسميين البريطانيين، فيما بينهم، إنه إذا سار كل شيء على ما يرام فإن شحنة يناير الرمزية سوف تعقبها شحنات أكبر. وهكذا سعت بريطانيا إلى أن تستعيد من تشيكوسلوفاكيا مركزها كمصدر أعظم لتزويد مصر بالعتاد الحربي.

أما فيما يتعلق بحلف بغداد فقال البريطانيون لعبد الناصر، في صراحة، إنهم لا ينوون تجريد الحلف من السلاح، أو الانسحاب منه، أو تشجيع العراق على تركه. وعندئذ اقترح عبد الناصر أن يصار إلى عقد "هدنة" في موضوع حلف بغداد هذا، بحيث "يجمد" الحلف عند حدوده الحاضرة، فوعدت بريطانيا بألا تضغط على أية دولة عربية بضرورة الدخول في الحلف. ومقابل هذه التنازلات البريطانية طلب من عبد الناصر أن يخفف من لهجة دعايته المعادية لبريطانيا، وبصورة خاصة من لهجة تلك الإذاعات الموجهة إلى الأراضي الخاضعة للسيطرة البريطانية خارج العالم العربي. (وهذا المطلب الذي قدم إلى عبد الناصر في معرض هذه المفاوضات يشير إلى أهمية أجهزة الدعاية التي يملكها عبد الناصر في تعامله مع الغرب).

وهكذا كانت العلاقات المصرية البريطانية تتحسن في سرعة حتى أواخر شهر كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٥٥ تقريباً.

ثم إن الجنرال البريطاني تامبلر وصل إلى عمان عاصمة الأردن، في مهمة خطيرة. وغضب عبد الناصر غضباً شديداً عندما علم بالحقيقة العارية، التي لا تكاد تصدق، عن مهمة تامبلر في الأردن. كان الجنرال تامبلر قد شخص إلى الأردن لكي يفاوض الحكومة الأردنية في مسألة الانضمام إلى حلف بغداد. ومنذ ذلك الحين أصرت بريطانيا على أن رئيس الوزراء الأردني، سعيد المفتي، والملك حسين، هما اللذان طلبا إدخال الأردن في حلف بغداد، وقدما الدعوة إلى تامبلر لزيارة عمان. ولكن لم يكن ثمة سبيل إلى إنكار

حقيقة راهنة: هي أن بريطانيا كانت الدولة الأعظم نفوذاً في الأردن، آنذاك. لقد كان في ميسورها – على الأقل – أن تستعمل نفوذها هذا عند الملك حسين فلا يدعو تامبلر.

ورأى عبد الناصر – وقد استبد به الحنق والغضب – أن ذهاب تامبلر إلى الأردن مثلٌ نموذجي على غدر الغرب وإخلافه للعهود. وأياً ما كانت المبررات التي حاول البريطانيون أن يفسروا بها خطوتهم تلك، فالأمر الراهن هو أنهم ندموا على تلك الخطوة بقدر ما ندموا على أيما حماقة قدر لهم أن يرتكبوها في الشرق الأوسط.

وحين وصل تامبلر إلى عمان سارع إلى الاجتماع بالوزارة الأردنية في الحال. ولقد تحدث إلى أعضاء تلك الوزارة باللهجة التي لا يجوز للمرء أن يتحدث بها إلى العرب.

لقد قال تامبلر، الرجل العسكري:

- "أيها السادة، سوف أغادركم في يوم كذا، في الساعة الرابعة بعد الظهر. ومن الآن حتى ذلك الحين أتوقع أن أحصل على جوابكم!".

وحصل تامبلر على الجواب...

فما إن غادر عمان حتى تمكنت مصر والسعودية وسوريا من أن تثير نقمة الشعب الأردني على حكامه. ولم تكن هذه الدول الثلاث في حاجة، لكي تحقق ذلك، إلى أكثر من إخبار الشعب الأردني بما كان يحدث في المسرح السياسي. فما كان من هذا الشعب المتألم المكبوت، المغلوب على أمره بواسطة الجيش العربي الخاضع لسيطرة الضباط البريطانيين، إلا أن انتفض انتفاضة يائسة. وفي القدس، ونابلس، وبيت لحم، وأريحا، والسلط، وعمان، وأربد، وفي كل مدينة من مدن الأردن تقريباً، انطلقت المظاهرات الصاخبة في الشوارع، واهتاجت معسكرات اللاجئين، وأخذت تغلي غليان القدر على النار.

وفي الحال أدرك السياسيون خطورة الموقف، فسارع أربعة من أعضاء الوزارة إلى الاستقالة. وما لبثت الوزارة أن قدمت استقالتها بعد ذلك إلى الملك. فأقنع الملك حسين

هزاع المجالي، وهو وزير سابق، بأن يؤلف الوزارة الجديدة، وأن يعمل على تنفيذ الاتفاقية الخاصة بالحلف. ولكن محاولته منيت بالفشل منذ البدء. كان ثلثا سكان الأردن من الفلسطينيين لاجئين يعيشون على ما تقدمه إليهم وكالة الغوث التابعة للأمم المتحدة من أقوات. وفي نظر هؤلاء اللاجئين كان الانضمام إلى حلف بغداد يعني ربط أنفسهم، في يأس، بعجلة الغرب. واعتقدوا إنهم، بانضمامهم إلى الحلف، سوف يُستعملون للمساعدة في الدفاع عن الغرب ضد روسيا. كذلك آمنوا بأن الغرب سوف يحول بينهم وبين القيام بأيما عمل من الأعمال ضد إسرائيل.

والواقع إن النقمة على الحلف كانت قوية، في الأردن، إلى حد يجعلنا واثقين كل الثقة من أن الانفجار كان محتم الحدوث، حتى ولو لم تكن ثمة دعاية مصرية قوية ضده. بيد أنه ليس ثمة ريب في أن "صوت العرب" كان له تأثير في هذا الموضوع، فكل يوم كانت الجماهير في المدن الرئيسية تجتمع في زوايا الشوارع أو قرب المقاهي لكي تستمع إلى إذاعات تلك المحطة.

وخفت حدة التظاهر خلال الأعياد المسيحية، لكي يتمكن الحجاج من القيام بشعائرهم الدينية في الأرض المقدسة من غير أن يتعرضوا إلى أي انزعاج أو أذى. ولكن الاضطرابات ما لبثت أن نشبت من جديد، في أوائل كانون الثاني (يناير). وهذه المرة انهار النظام انهياراً واضحاً. وتخلى الجيش العربي عن كل محاولة لإقرار الأمن في البلاد ككلٍ، مركزاً قواته على تهدئة الحال جهد الإمكان في عمان والقدس.

وحوالي هذا الوقت طرتُ من القاهرة إلى الأردن. كانت الطائرة الوحيدة التي استطعت العثور عليها متجهة إلى القدس، وكنت أعتزم أن أمتطي متن إحدى السيارات من هناك إلى عمان، الواقعة على مسافة ساعتين بالسيارة في الضفة الأخرى من النهر. وهبطت طائرتنا على الأرض الأردنية، ثم رجعت إلى القاهرة في الحال. كان المطار مقفلاً، وسألت الشرطي أين أستطيع أن أجد سيارة تنقلني إلى عمان؟

وضحك الشـرطي.

وقال لي:

- "سوف يكون حظاً عظيماً إذا استطعت أن تجد سيارة تنقلك من المطـار إلى القـدس. إن الطريق إلى عمان مغلقة، والسيارات العسكرية وحدها هى التي تستطيع أن تمر".

وسألت:

- "هل أستطيع أن أتصل بعمان هاتفياً؟"

فجاءني الجواب:

- "لا. إن خطوط الهاتف كلها مقطوعة".

وأخيراً فاز موظفو المطار بإذن يجيز لهم أن يستقدموا سيارة تنقل المسارفين إلى المدينة. وفي طريقنا إلى المدينة، أوقفنا عدة مرات في بعـض المراكـز، وراح رجـال الجيش العـربي يفحصون جوازات سفرنا، مصوبين غداراتهم إلى وجوهنا.

وفي داخل القدس كانت الحجارة تملأ الشوارع، وفي ذلك دليل على أن المتظاهرين قد قاموا بعملهم على وجه حسن. وكانت بعض الشـوارع مسـدودة بـأكوام مـن الحجـارة. وتظاهر الفتيان في الشوارع، حاملين تماثيل نصفية طينيـة للجنـرال غلـوب عـلى قضـبان طويلة. وكانوا في بعض الأحيان يرجمون التماثيل بكتل من الطين.

وأنزلونا في أحد الفنادق، وأحطنا علماً من قبل الشـرطة بأن علينا أن نبقى هناك حتى إشعار آخر. كان منع تجول مدته أربعاً وعشـرين سـاعة مفروضـاً عـلى المدينـة. وكانـت شاحنات الجيش العربي تطوف في المدينة محذرة المدنيين من النزول إلى الشوارع، قائلـة إن كل من يُرى في الشارع يُقتل في الحال. ومن فندقنا، كان في إمكاننا أن نرى أفـراد الجـيش العربي، وقد تطايرت "عقالاتهم" الحمراء مع اتجاه الريح، واقفين بباب هيرود عند سـور المدينة القديمة، مطلقين النار على جماهير المتظاهرين في المدينة القديمة.

وحاولت أن أبرق إلى مكتب الوكالة الرئيسي، ولكن دائرة البرق كانت مقفلة. وحاولت أن أجري بعض المخابرات الهاتفية، ولكن جميع الخطوط الهاتفية كانت معطلة، سواء المحلية منها أو البعيدة المدى. لا برقيات، ولا هواتف، لا طائرت تطير، لا سيارات تتحرك... ولأول مرة في حياتي وجدت نفسي منقطعاً عن العالم الخارجي انقطاعاً كاملاً. ولن أنسى أبداً ذلك الرجل الإنكليزي المغتبط الجالس في زاوية صالون الفندق، في ذلك اليوم التعيس، وهو يقول لأحد أصدقائه، في هدوء:

– "المشكلة في حالة مثل هذه هي أن الصحافة تميل دائماً إلى تصويرها تصويراً مبالغاً فيه!".

وبذل رئيس الوزارة، هزاع المجالي، محاولة أخيرة يائسة لكي يحصل على شيء من التأييد لحلف بغداد...

لقد دعا إلى ديوانه رؤساء تحرير الصحف الأردنية اليومية الأربع، وتوسل إليهم، والدموع تتدحرج على خديه، أن يساعدوه في شن حملة دعاية شاملة تكون في صالح حلف بغداد. ولكن أياً من رؤساء تحرير تلك الصحف لم يوافق على ذلك. إن بعضهم كان يؤيد الحلف شخصياً، ولكن كان خليقاً به، لو عمد إلى تأييد المجالي، في تلك اللحظات، أن يخسر قراءه كلهم من غير ريب.

تلك كانت هي النهاية...

واستقال المجالي. ودعى السياسي العتيق، سمير الرفاعي، إلى تأليف الحكومة. وفي رسالة أذاعها بالراديو على الشعب الأردني، وعد الرفاعي بأن الأردن لن ينضم إلى حلف بغداد أو إلى أي حلف آخر. وصفقت الجماهير لانتصارها، وانفرط عقد المتظاهرين.

كانت جبهة عبد الناصر العربية المتحررة قد انتصرت نصراً ساحقاً. فأيما دولة عربية لن تجرؤ بعد اليوم على التفكير بالانضمام إلى حلف بغداد.

وخلال المظاهرات الأردنية، كان قد اتضح لي أن حلف بغداد لم يكن هو المسألة الرئيسية المتنازع عليها، بقدر ما يتعلق بالجمهور الأردني. كانت الجماهير المتظاهرة في شوارع عمان والقدس تسعى إلى أكثر من ذلك. كانت تريد أن ينضم الأردن إلى جبهة عبد الناصر المتحررة انضماماً كاملاً. ولكي تبلغ الجماهير هذا الهدف، ركزت نيرانها على شخص ذلك الجندي البريطاني الضئيل الجسم الذي كان قائداً عاماً للجيش الأردني: الجنرال غلوب.

إن جون باغوت كلوب، المشهور بغلوب باشا، هو مثلٌ نموذجيٌ كلاسيكي على أولئك البريطانيين الذين يعرفون كل شيء عن العرب، ولكنهم لا يفهمون شيئاً. لقد تعلم غلوب أساليب الحياة العربية على ظهر الجمل وحول نار الخيام البدوية في الصحراء. كان يتكلم العربية بمثل الطلاقة التي يتكلم بها الإنكليزية، ولقد تعلم اللغة العربية من عرب الصحراء أنفسهم...

وذات مرة، قام غلوب بالرحلة الطويلة من العراق إلى عمان، عبر خمسمئة ميل من الصحراء، على ظهر الجمل. وكان يألف الملابس البدوية ويرتديها في سهولة ويسر ويشعر وهو يرتديها بارتياح، وكانت أعظم لحظاته السعيدة تلك التي كان يجلس فيها حول النار، في ساعة متأخرة من الليل، أمام خيمة من خيام البدو. ولقد قضى غلوب أكثر من ثلاثين سنة في الأردن، وكان يتوقع أن يموت ويدفن هناك.

كيف كانت نظرة العرب إلى غلوب؟

لقد عرفت، منذ عام ١٩٥٥ كثيراً من الفلسطينيين العرب، على اختلاف اتجاهاتهم واختصاصاتهم. وأستطيع أن أقول، من غير أن أتهم بالمبالغة، بأني نادراً ما عرفت فلسطينياً واحداً يطرى غلوب، أو يعبر عن إعجابه به كقائد للجيش الأردني. أما في الضفة الشرقية، فيما كان يعرف فيما مضى بشرق الأردن، فكان الشعور متفاوتاً بعض الشيء. كان بدو الصحراء هناك معجبين بغلوب، ولكن هؤلاء البدو أقلية في البلاد. إن

الكثرة من سكان المدن في الضفة الشرقية كانوا معادين لغلوب. لقد نظر الجمهور الأردني إلى غلوب نظرته إلى عميل للحكومة البريطانية، أو قل نظرته إلى الرجل الذي أبقى الأردن خاضعاً للسيطرة البريطانية. أما غلوب نفسه فكان يصر دائماً على أنه "مجرد خادم مخلص للحكومة الأردنية". بيد أن الاستياء المرير الذي أظهرته الحكومة البريطانية عند إقالته من قيادة الجيش الأردني يجعل المرء يعتقد بأن شكوك العرب كانت في محلها.

أما فيما يتعلق بموقف الجيش الأردني في أثناء حرب فلسطين، فإن الأردنيين على العموم يتهمون غلوب بأنه خان الجيوش العربية الأخرى. إنهم يقولون إنه فيما كان المصريون يواجهون هجوماً إسرائيلياً عنيفاً في النقب، رفض الجيش الأردني أن يقوم بهجوم يخفف الضغط عن كاهل الجيش المصري. والعرب يتهمون غلوب بأنه سلم، عن رغبة وطواعية، اللد والرملة وشقة عريضة من الأرض على طول خط الهدنة إلى الإسرائيليين. وإلى هذا، فإنهم يتهمونه بتسليم القدس الجديدة إلى إسرائيل أيضاً. وعلى الجملة فإنهم يلقون عليه مسؤولية خسارتهم للحرب الفلسطينية، ومسؤولية بقاء إسرائيل على قيد الحياة.

وقد يبدو هذا كله غريباً في نظر المراقب الغربي، ولكن علينا أن نقر ونعترف بأنه حقيقة واقعة. إن موقف العرب من غلوب يظهر لنا بوضوح إنهم ما عادوا يستطيعون أن يهضموا أياً من مظاهر "الوصاية" الغربية عليهم. لقد عرف غلوب أشياء كثيرة عن العرب، ولكنه لم يستطع أن يفهم أن مجرد وجوده كان ينطوي على إهانة للعرب. إن مجرد إسناد قيادة أحد الجيوش العربية إلى رجل أجنبي، يعني أنه ليس ثمة عربي قادراً على النهوض بهذه المهمة.

وقد يقال إن غلوب أحب العرب...

ولكن أي العرب أحبهم غلوب؟ لقد أحب عرب الصحراء، البدو البدائيين الشبيهين بالأطفال. لقد أحب تقاليد القبائل الصحراوية، والشرائع البسيطة التي ترجع

إلى أقدم العصور والتي لا تزال مرعية الإجراء عند البدو. ولكن الجيل الجديد من العرب لا يكره شيئاً مثل كراهيته لأن تعتبره الناس بدائياً أو متخلفاً. إن أبناء الجيل الجديد يريدون منك أن تعتبرهم كما تعتبر أبناء القرن العشرين، وأن تحترمهم كما تحترم أبناء ألمانيا أو كندا أو بلجيكا. وكلباس رأس لجنود جيشه، اختار غلوب الكوفية والعقال، أو لباس الرأس البدوى ذا الأطراف المتطايرة من هنا وهناك. وكان حرس الحدود التابعون لقواته يركبون الجمال ويرتدون ملابس طويلة شبيهة بملابسهم الأهلية. والواقع إن العربي العصري كان يعتبر هذا النوع من اللباس العسكري إهانة لبني قومه. ولقد استشعر الشبان العرب أن غلوب البريطاني كان يستعرضهم كما تُستعرض جماعةٌ من البدو، لكي تثير سخرية الأجانب وضحكهم.

وبكلمة موجزة: كان غلوب ينظر إلى العرب كما كانوا. والوطنيون العرب يريدون أن ينظروا إلى أنفسهم كما سيكونون.

هذه الحقيقة البسيطة، التي لا يزال غلوب عاجزاً عن فهمها، تفسر لماذا كان عرب الأردن مستعدين ذلك الاستعداد كله لتأييد أيما حملة تنطلق ضد غلوب. كانوا، في صميم قلوبهم، يكرهونه ويكرهون كل ما كان يمثله ويركز إليه. وهذا يُظهر مرة ثانية أن الأجانب لا علاقة لهم بإدارة شؤون العرب، ولا يحق لهم أن يقدموا على ذلك. وينبغي أن يقوم العرب بذلك بأنفسهم.

وجاءت مغادرة غلوب للمسرح الأردني على نحو مفاجيء.

فحوالي نهاية شباط (فبراير)، عام ١٩٥٦ قام سلوين لويد بزيارة ثانية لعبد الناصر في القاهرة...

وبعد فشل تامبلر، كانت العلاقات قد تدهورت بين مصر وبريطانيا عما كانت عليه منذ زيارة لويد الأولى، قبل بضعة أشهر. وفي أثناء مأدبة العشاء في قصر عابدين استبد

الغضب بسلوين لويد، بعض الشيء، وراح يلقى على عبد الناصر "محاضرة" في قوة بريطانيا في العالم العربي.

قال لويد:

- "مثلاً، إننا لا نزال نحتفظ بغلوب في الأردن".

وكاد عبد الناصر يغص بريقه، وسعل، وحبس أنفاسه.

وقال عبد الناصر:

- "عفواً، لعله يهمك أن تعلم أن غلوب أقيل من منصبه اليوم بعد الظهر".

على هذا النحو علم سلوين لويد بأن دعامة النفوذ البريطاني في الأردن قد أخرجت من البلاد. ففي ذلك الأصيل بالذات كان الملك حسين قد دعا وزراءه إلى الاجتماع، وأصدر إليهم أمره بإقالة غلوب من منصبه كقائد عام للجيش الأردني. واستدعى رئيس الوزراء سمير الرفاعي، الجنرال غلوب ونقل إليه النبأ، وسأله أن يغادر البلاد في ساعتين.

فقال غلوب:

- "لقد عشت هنا ثلاثين عاماً. فكيف أستطيع أن أحزم أمتعتي وأعد نفسي وأسرتي للرحيل خلال ساعتين؟"

عندئذ أجاز الرفاعي لغلوب أن يبقى في البلاد إلى صباح اليوم التالي.

وعند الضحى، ركب غلوب إحدى طائرات الجيش الأردني إلى قبرص. وبزواله، زالت السيطرة البريطانية عن دولة عربية أخرى.

إن خطوة الملك حسين هذه التي خطاها ضد غلوب كانت بوحي من مجموعة من الضباط الوطنيين الشباب المعجبين بجمال عبد الناصر. والواقع أن تلك الخطوة حظيت بتأييد شعبي كبير، وكانت في نظر الشعب الأردني أعظم عمل مفرد قام به الملك حسين في

حياته كلها. واندفعت الجماهير إلى الشوارع تتظاهر، وترقص رقصاً هستيرياً، هاتفة بحياة الملك.

وبعد إقصاء غلوب كتب صحافي أردني فقال:

– "يتعين علينا الآن أن نتخلص من الكوفية والعقال ونلغي اسم "الفرقة العربية" ونستعيض عنه باسم "الجيش الأردني" لكي ننزع من جيشنا آخر أثر من آثار النفوذ البريطاني".

وبعد فترة قصيرة حل الملك حسين البرلمان.

وفي الخريف أجريت انتخابات حرة حقاً، فكانت النتيجة فوزاً ساحقاً أحرزه المرشحون المؤيدون لسياسة الرئيس عبد الناصر. وأسندت رئاسة الوزارة إلى سليمان النابلسي، الموالى لعبد الناصر، وكانت مهمة حكومته الأولى هى إلغاء المعاهدة الأردنية البريطانية.

وهكذا انضم الأردن إلى جبهة الدول العربية المتحررة.

إن أحداث الأردن قد وضعت حداً لحملة التقارب بين الحكومة البريطانية وعبد الناصر. وأصدرت وزارة الخارجية البريطانية بيانات شجبت فيها مواقف عبد الناصر "غير الودية" من بريطانيا، خاصة في حقل الدعاية.

ونزعت الصحف البريطانية الآن قفازاتها، وشنت حملة ضخمة مناوئة لعبد الناصر. وهاجمت صحيفة اللورد بيفربروك "الدايلي اكسبريس" الرئيس المصري واتهمته بالديكتاتورية، وطالبت الحكومة البريطانية بأن توجه مدمرة إلى قناة السويس لكي تشق الطريق في وجه الملاحة الإسرائيلية...

وشبهت الصحافة البريطانية عبد الناصر بهتلر. لقد صورته وكأنه ديكتاتور عسكري ليس له من هم غير إنشاء امبراطورية بقوة الفتح والسلاح. لقد نظرت إليه نظرتها إلى عدو لدود لبريطانيا...

وفي فرنسا، سارت الصحف على غرار الصحف البريطانية، بل لقد اصطنعت لهجة أشد وأقسى. وهناك اعتُبر عبد الناصر مسؤولاً عن عجز الحكومات الفرنسية المتعاقبة وعدم تمكنها من إخضاع الثورة الجزائرية. وقد حاولت البيانات الرسمية الفرنسية، آنذاك، أن تُظهر أن جميع الأسلحة – والتوجيه العسكري أيضاً – التي يملكها جيش التحرير الجزائري إنما جاءته من عند عبد الناصر.

إن الزعماء الفرنسيين والبريطانيين لم يدركوا أنهم بمسلكهم هذا كانوا يرفعون عبد الناصر إلى منزلة شامخة لم يسبقه إلى مثلها أي زعيم في العالم الآسيوي الأفريقي. ذلك أن الغرب، كان يعامل عبد الناصر – وهو قائد لشعب فقير وبلد ضعيف – معاملته لدولة عظمى من مستوى روسيا السوفيتية نفسها.

وفي أعين الشعوب الآسيوية الأفريقية كانت الهجمات البريطانية الفرنسية هذه، تشكل أعظم إطراء وتمجيد وُجها إلى زعيم عربي في القرن العشرين.

(٩)

أزمة السويس



كانت بريطانيا قد فشلت في محاولتها أن تفوز من جديد بمركز مفضل في مصر عبد الناصر، وعرضت الولايات المتحدة الآن أن تقوم بمسعى إعادة التقارب.

ولقد بدأت محاولة الأميركيين، شأن محاولة البريطانيين، في أواخر عام ١٩٥٥، أي بعد قليل من صفقة الأسلحة التشيكية. وبينما كان الغربُ ينتفض لنجاح روسيا في أن تصبح الممونة الأولى لمصر بالسلاح، سُمعت إشاعة تقول بأن الاتحاد السوفييتي كان يستعد للقيام بعرض ضخم في الحقل الاقتصادي، وأن الروس كانوا يعرضون على عبد الناصر تمويل المشروع الذي كان يعتبره حلمه: مشروع سد أسوان العالي.

كانت مجرد شائعة، ولم أستطع التحقق من صحتها ولذلك لم أبرق بالقصة. ولكنني ذكرت الشائعة أمام أحد الزملاء، فأرسل برقية مستعجلة إلى صحيفته قال فيها:

"تقول الأوساط المطلعة" إن الروس يعرضون على عبد الناصر تمويل السد العالي، وما لم تتحرك أميركا بسرعة وتتقدم بعرض أفضل من العرض الروسي، فإن الكتلة الشيوعية ستسيطر على اقتصاد مصر وآلتها العسكرية أيضاً.

واجتذب النبأ الرأي العام في أميركا، وأقبل مراسلو واشنطن فوراً على السفير المصري يستوضحونه الخبر. وكم كان عجبي (وقلقي مهنياً كما يجب أن أعترف) حين أكد دكتور حسين شائعتي الصغيرة قائلاً إنها كانت صحيحة تماماً. كان الروس يعرضون تمويل المشروع الحلم.

ولقد أحدثت هذه التقارير في الظاهر ذعراً جديداً في واشنطن. لقد أخذ يبدو أن مصر كانت تنزلق في المدار السوفييتي بسرعة أكبر حتى مما كانت وزارة الخارجية الأميركية تخشاه. وفي وقت قصير جداً تحركت واشنطن للتغلب على العرض الروسي، وعبر البنك

الدولي عن اهتمامه بمشروع السد العالي، وأعلنت الحكومة الأميركية عن رغبتها واستعدادها لتقديم الأموال اللازمة التي تزيد عن المبالغ التي سيقدمها البنك الدولي.

ودعي وزير المالية المصري عبد المنعم القيسوني إلى واشنطن، مع دكتور محمد سالم وسائر خبراء السد العالي المصري. وبعد قليل من المفاوضات تقدمت الولايات المتحدة الأميركية والحكومة البريطانية والبنك الدولي بالعرض التالي:

للمرحلة الأولى من المشروع (السنوات الخمس الأولى) عرضت الولايات المتحدة وبريطانيا أن تمنحا مصر سبعين مليون دولار: ٥٤ مليون دولار من الولايات المتحدة و١٦ مليوناً من بريطانيا، أما البنك الدولي فيقرض مصر ٢٠٠ مليون دولار تقريباً.

وللمرحلة الثانية وعدت الولايات المتحدة وبريطانيا، بصورة غير رسمية بتقديم الأموال الكافية لإنجاز المشروع، وقدرت هذه الأموال بحوالي ١٣٠ مليون دولار.

كان هذا يعني أن باستطاعة مصر أن تعتمد على ٤٠٠ مليون دولار تقريباً من الغرب. وفي ذلك الوقت، قُدِّر أن المشروع كله يكلف ١.٣ بليون دولار، بما في ذلك جهاز الري. وهكذا كان ينتظر من مصر أن تقدم ما يعادل ٩٠٠ ألف دولار، القسم الأعظم منها بالعملة المصرية، وأن يسقط هذا المبلغ على مدةٍ قدرت بخمس عشرة سنة.

ونظر خبراء البنك الدولي إلى المشروع، وأصدروا حكمهم بأن توظيف أموال البنك فيه كان سليماً من الناحية الاقتصادية، ولو أنهم ذكروا أن مصر يجب أن تركز جميع طاقاتها الاقتصادية في المشروع. ولقد وجد القيسوني الشروط مرضية، ولكن عبد الناصر وسائر أعضاء الوزارة غضبوا لما دعوه بالشروط التي أرفقت بقرض البنك الدولي.

إن البنك الدولي يعمل وكأنه مؤسسة تجارية صرف. فعندما يُقدم قرضاً ما يجب أن يستوثق من أنه سيعاد إليه. ومن هنا طلب البنك الدولي من مصر أن تزوده بصورة منتظمة بالمعلومات عن أوضاعها من حيث العملة الأجنبية، وعن أوضاعها الاقتصادية العامة كشرط لتقديم القرض. ولكن عبد الناصر اعتبر أن مثل هذه الشروط لا تتفق

وسيادة مصر وكرامتها، وكادت الصفقة أن تفشل هنا وهناك، وقام مدير البنك الدولي، يوجين بلاك، بزيارة لمصر لتدبير ما يمكن تدبيره.

وبعد مفاوضات عسيرة وصل يوجين بلاك والمصريون إلى مأزق. ولكن عبد الناصر، في اللحظة الأخيرة، تقدم بحل فريد من نوعه.

كان حله يقضي بألا يطلب البنك الدولي من مصر تزويده بمعلومات اقتصادية جدلية كشرط للقرض، ولكن الحكومة المصرية، تسهيلاً منها لعمل البنك، تقدم المعلومات اللازمة بصورة طواعية. ولقد قبل بلاك هذه الصيغة وعاد إلى واشنطن، وظهر كأن الغرب وعبد الناصر مستعدان للتعاون في أكبر مشروع اقتصادي في تاريخ وادي النيل.

ولم يبق إلا تطبيق العرضين الأميركي والبريطاني بتقديم المساعدة الاقتصادية. وتوقع السفير بايرود كلمة من واشنطن بعد وقت قصير من مغادرة بلاك كيما يشرع في مفاوضاته حول هذه النقطة، ولكن مر الأسبوع تلو الأسبوع دون أن تصله هذه الكلمة.

ودلت الأنباء الواردة من واشنطن على أن الولايات المتحدة تعيد التفكير في عرضها لتمويل السد العالي. لقد اعترض الشيوخ الجنوبيون على تمويل المشروع الذي من شأنه أن يمكن مصر من زيادة إنتاجها من القطن بحيث تزاحم منتجي القطن في مسيسيبي وألاباما (الواقع أنه لم يكن في النية زراعة أي قطن في الأراضي التي سيستصلحها السد العالي)، وكان الشعور العام في الكونجرس الأميركي قد غدا الآن مناوئاً لعبد الناصر، لأن حملات الصهيونية على عبد الناصر كانت شديدة في الولايات المتحدة، وكان الموقف العدائي البريطاني الفرنسي يُعدي بصورة سريعة أوساط واشنطن الرسمية.

وهناك سبب آخر لاستياء الأميركيين، هو محاولات عبد الناصر الظاهرة لاستعمال الروس للحصول على شروط أفضل. وقد بلغت هذه الحملة ذروتها في شهر حزيران (يونيو) ١٩٥٦، عندما عاد ديمتري سيبيلوف إلى القاهرة في زيارته الثانية. لقد دعى

شيبيلوف بوصفه صحافياً، ورئيساً لتحرير جريدة البرافدا. وبين الوقت الذي دعى فيه شيبيلوف لزيارة مصر والوقت الذي كان يستعد فيه للمجيء إليها رقي إلى منصب وزارة الخارجية، ولكن هذا التبدل في وضعه لم يؤخره عن المجيء إلى القاهرة، ولم يبدُ أن المصريين مانعوا في ذلك.

وهكذا كان شيبيلوف أكبر زائر أجنبي رسمي لاحتفالات مصر عام ١٩٥٦، ففي الثامن عشر من شهر حزيران (يونيو)، كان على آخر جندي بريطاني أن يغادر قناة السويس، وفي الثالث والعشرين منه، كان الناخبون المصريون سيدلون بأصواتهم للموافقة على دستور عبد الناصر الجديد وانتخابه رئيساً للجمهورية.

وأفسد البريطانيون الاحتفالات بالانسحاب من منطقة القنال قبل بضعة أيام من الوقت المحدد.

قال القائد البريطاني للصحافيين: "لم نرد أن تودعنا فرقة الخوذ النحاسية المصرية".

ومهما يكن فقد سافر عبد الناصر إلى بورسعيد في اليوم الثامن عشر من شهر حزيران (يونيو) كيما يشهد احتفالات الجلاء. كان مرتدياً ثيابه العسكرية (وكانت تلك آخر مرة رأيته فيها)، وركب سيارة جيب مكشوفة إلى ميناء بورسعيد، إلى آخر نقطة تجلو عنها القوات البريطانية. وما إن اقترب من الميناء حتى هجم الشباب المتحمسون على السيارات الجيب واختفى عبد الناصر بينهم وهم يمطرونه بوابل من القبلات، وعندما ظهر عبد الناصر آخر الأمر وأخذ يتنشق الهواء بدا قلقاً. كان الآن محط الأنظار جميعاً، ولكنه لم يكن قد تعلم فن تقبيل الأطفال وسياسة مصافحة الأيدي.

وانحدرت الدموع على خدى عبد الناصر، وهو يقبل العلم المصري الأخضر، ويرفعه متمهلاً فوق ميناء بورسعيد، ولأول مرة منذ الغزو الفارسي قبل الميلاد بزمن طويل خلت مصر من أي جندي أجنبي.

وبعد ذلك بخمسة أيام انتخب عبد **الناصر** رئيساً للجمهورية، ونصبت في شوارع القاهرة أقواس النصر، وحملت السيارات الشباب المتحمسين وهم يهتفون: عاش جمال، بطل الثورة. كان هناك عرض عسكري ألقى فيه **عبد الناصر** خطاباً دام ثلاث ساعات في حشد هائل أمام قصر عابدين. كان خطابه في تلك الليلة مخصصاً كله للشؤون الداخلية. لقد أصبح الآن رئيساً دستورياً، وكانت الجيوش البريطانية قد غادرت مصر، وهكذا انتشر الأمل بأن يستطيع عبد **الناصر** مرة أخرى أن يركز اهتمامه في إصلاحاته الداخلية، وكان خطابه يشير إلى هذا الاتجاه.

غير أن وجود شيبيلوف ألقى ظلاً على هذه الآمال. إن أحداً لم يستطع أن ينسى أن زيارته في السنة السابقة قد أعقبتها صفقة الأسلحة. فماذا سيحدث في أعقاب هذه الزيارة الجديدة! وبينما كان شيبيلوف ما يزال في القاهرة انتشرت شائعة تقول إن السوفييت قد تقدموا بعرض جديد لبناء السد العالي، "أفضل كثيراً" من عرض الولايات المتحدة.

وزرت صديقاً حمياً لعبد **الناصر** لأتحقق من صحة ذلك، فأنبأني الصديق بأن القصة كلها كانت بكليتها صحيحة جداً، وقال لي إن السوفييت قد عرضوا تمويل السد العالي مئة بالمئة.

وفي اليوم التالي التقيت صديقي مرة ثانية، وكان خارجاً من زيارة عبد الناصر نفسه.

قال لي صديقي: "إليك بالمزيد من التفاصيل عن العرض السوفييتي. قرض يبلغ ما يساوي ٤٠٠ مليون جنيه إسترليني (يكفي تقريباً لبناء السد بأكمله مع جهاز الري)، دون فائدة، يسدد في خلال ستين سنة".

والواقع إن عبد **الناصر** كان الآن يتحدى الغرب كيما يرفع عرضه كمحاولة للمزايدة على الروس، مما صعب كثيراً على الأميركيين. وعندئذ تحفز دالس للرد...

ففي أواخر تموز (يوليو) ١٩٥٦، بينما كان عبد **الناصر** في يوغوسلافيا مجتمعاً بنهرو وتيتو، قام السفير أحمد حسين بزيارة لدالس في واشنطن. كان قد مضى أشهر على زيارة

بلاك للقاهرة، وكان حسين مهتماً بأن يعرف ما إذا كانت الولايات المتحدة ما تزال تنوى أن تمنح مصر الأربعة والخمسين مليون دولار. وأخذ دالس نفساً عميقاً وأعطى جواباً تاريخياً. قال دالس: لا، إن الولايات المتحدة لم تعد راغبة في الإسهام بتمويل مشروع السد العالي، وإن حكومة الولايات المتحدة قد اقتنعت بأن اقتصاد مصر لم يكن سليماً بحيث يستطيع أن يتحمل مثل هذا المشروع.

وأحدث إعلان دالس سلسلة من ردود الفعل، إذ سُحبت العروض الأخرى، فقد ألغت الحكومة البريطانية بسرعة عرضها البالغ ١٦ مليوناً من الدولارات، كذلك سحب البنك الدولي عرضه لأنه كان متصلاً بالمنحة البريطانية الأميركية.

ثم حدثت المفاجأة الكبرى، فقد تنصل الاتحاد السوفييتي أيضاً. وفي موسكو أنكر وزير الخارجية بسرعة أن يكون الاتحاد السوفييتي قد عرض تمويل السد العالي، وأعلن إنه لم تكن لديه أية نية لذلك.

وبدا الآن وكأن عبد الناصر قد وقع في ورطة. لقد أخفق في أن يجد تأييداً لحجر الزاوية في منهاجه الرامي إلى الإصلاح الاقتصادي. وأسوأ من كل ذلك أنه كان قد تلقى إهانة مُذلة من الغرب. كان هنالك كثيرون في ذلك الوقت ممن تنبأوا بنهاية عبد الناصر، ومن هؤلاء صحيفة أميركية بارزة أعلنت إن سحب عرض السد العالي قد يعني سقوط عبد الناصر عن الحكم.

كان عبد الناصر قد تلقى اللطمة التي وجهها دالس إلى مصر، ولكنه أخذ على نفسه العهد دائماً بأن يرد اللطمة بمثلها، ولذلك أعاد لدالس لطمته بقوة لم يتمكن الغرب من أن ينساها بسرعة. لقد عاد عبد الناصر مزمجراً من يوغوسلافيا وهو في سورة غضب، وكان ظهوره أمام الجماهير لأول مرة عند افتتاح خط أنابيب جديد. هنا قال للشعب المصري إنه سيقوم فوراً بالعمل اللازم لمقابلة التصرف الغربي الأخير.

وأعدت العدة لاجتماع سياسي كبير في الإسكندرية مساء ٢٦ تموز (يوليو) ١٩٥٦، أي بعد أربع سنوات من إبحار فاروق من أكبر ميناء مصري. كان على **عبد الناصر** أن يتكلم من الشرفة نفسها التي نجا منها من الرصاصات التي أطلقها عليه **محمد عبد اللطيف** عضو جماعة الإخوان المسلمين. وانتشر الخبر بأن **عبد الناصر** سيذيع "نبأ هاماً"، وقد فعل.

عندما شرع **عبد الناصر** في إلقاء خطابه تلك الليلة، جلس أحد ضباط الجيش في المقر العام في القاهرة يصغي إلى إذاعة الحديث. كان الضابط يمسك بيديه مظروفاً مختوماً كتبت عليه الكلمة الرمز (ديلسيبس). وكان **عبد الناصر** يقدم ما بدا خطاباً روتينياً، يُفصل مداخل متاعب مصر ومخارجها من الغرب منذ الثورة قبل ذلك بأربع سنوات. أما الضابط فقد كاد النعاس يستولى عليه، ولكن رأسه ارتفع فجأة عندما سمع قول **عبد الناصر**:

"... وعندئذ فكرنا بديلسيبس".

ففض الضابط المظروف وتلا أوامره:

"احتلوا حالاً مقر شركة قناة السويس وجميع منشآتها...".

لقد أعطى الضابط الأوامر بسرعة البرق، فتحركت القوات وأحاطت بمقر شركة القناة في جاردن سيتي في القاهرة، كما استولت قوات أخرى بسرعة على منشآت الشركة في بورسعيد والإسماعيلية والسويس ونقاط أخرى على طول القناة.

في هذا الوقت، كان **عبد الناصر** قد بلغ ذروة خطابه.

"لذلك، فقد أممنا شركة قناة السويس...".

وما إن نطق **عبد الناصر** بهذه الكلمة حتى كان التأميم حقيقة واقعة. لم يكن هناك رجوع، فالعمل كان قد أنجز، وأصبحت شركة قناة السويس التي كان يملك معظمها الفرنسيون والبريطانيون، وتعتبر شريان بريطانيا الحيوي ملكاً للحكومة المصرية. وقال

عبد الناصر للجماهير الهاتفية إن أرباح القناة منذ الآن فصاعداً ستستخدم في تطوير اقتصاد مصر، وأعلن بصورة خاصة أن السد العالي سيبنى من أرباح القناة.

وصرخ عبد الناصر: "لقد تعلمنا أننا لا نستطيع أن نعتمد على الآخرين لمساعدتنا. إننا من الآن فصاعداً لن نعتمد إلا على أنفسنا".

هذا كان رد عبد الناصر على دالس. وإذا كانت المفاجآت السابقة قد وصفت بالقنابل، فإن هذه المفاجأة الأخيرة، كانت قنبلة هيدروجينية. إنها لم تحدث انفجاراً عظيماً واسعاً فحسب، بل أدت إلى سلسلة من ردود الفعل والأحداث أدت إلى نشوب الحرب في الشرق الأوسط.

وجن الشعب المصري من الفرح. لقد أخذ المصريون الذين يعملون في مكتب الأسوشيتد برس يهتفون بأعلى صوتهم: "عاش جمال!"، وانتابهم حبور عظيم لم يستطيعوا معه أن يهدأوا للشروع في ترجمة الخطاب.

وفي اليوم التالي، عندما عاد جمال إلى القاهرة، اقتضاه الوصول إلى مقر الرئاسة من محطة السكة الحديدية أكثر من ساعتين؛ ذلك أن مئات الألوف من المصريين الذين كانت هتافاتهم تشق عنان السماء أوقفوا حركة المرور في جميع أنحاء القاهرة، ولم يستطع البوليس أن يردهم. كانت هذه المظاهرة تختلف اختلافاً كبيراً عن معظم المظاهرات التي سبقتها منذ الثورة، ذلك أن هذه كانت تلقائية، ولم تكن كغيرها من المظاهرات الفارغة المصطنعة، لأنها قامت تحية لعبد الناصر البطل.

وفي جميع أنحاء العالم العربي، كانت هناك موجة عارمة من الحماس لعبد الناصر. إن البطل الذي كان قد تحدى الغرب بصفقة الأسلحة التشيكية أكد مرة أخرى استقلاله وقوته. والفلسطينيون، والعراقيون، والسوريون، واللبنانيون، والأردنيون، كالوا الثناء العاطر على جمال.

وهذه المرة، كان هناك شكوك وهواجس كثيرة وخطيرة خالجت الحكام العرب الآخرين. إن كثيرين من الملوك والرؤساء العرب استاءوا في سرهم من إقدام عبد الناصر على اتخاذ مثل هذه الخطوة العنيفة دون أن يستشير الجامعة العربية أولاً. والزعماء الموالون للغرب من مثل كميل شمعون رئيس جمهورية لبنان ونوري السعيد رئيس وزراء العراق سخطوا على عبد الناصر لإقدامه على وضع وتدٍ آخر بين العرب والغرب، في حين أن بعض الزعماء العرب الآخرين قلقوا لأسباب اقتصادية. وكان حليف عبد الناصر – الملك سعود – يعتمد كثيراً على قناة السويس في تصدير نفطه، فلو أن شيئاً حدث للقناة لأصبح اقتصاد سعود كله في خطر.

هذا السخط والقلق زادا من الشعور المتزايد بالحسد الذي كان يشعر به معظم هؤلاء الحكام لعبد الناصر. ولكن من مقاييس شعبية عبد الناصر أن نلاحظ أنه ما من حاكم عربي تجرأ على أن يخالف عبد الناصر علناً في ذلك الوقت، بل إن كل زعيم عربي أيد عبد الناصر في العلن تأييداً غير مشروط في قضية قناة السويس.

أما في الغرب فقد كان رد الفعل شديداً. لقد خلق عمل عبد الناصر أكبر أزمة دولية منذ الحرب الكورية، فأسرع إيدن إلى دعوة البرلمان لجلسة خاصة، وأرسل تعزيزات عسكرية إلى قبرص. وطالبت الصحافة البريطانية باستعمال القوة لسحق عبد الناصر. أما الفرنسيون فقد كانوا أكثر هياجاً وغضباً من البريطانيين، وكان رد الفعل في الصحافة الفرنسية كأنما عبد الناصر هاجم فرنسا نفسها. ولقد وعد رئيس الوزراء غي موليه بالقيام بعمل قوي، وأسرع إلى الاجتماع بإيدن، ووجد الرجلان نفسيهما على اتفاق تام. لقد اتفقا الآن على أن عبد الناصر قد ذهب إلى أبعد مما ينبغي، فصمما على ألا يتركاه يفلت من أيديهما. كان الرجلان مستعدين وتواقين إلى استعمال القوة.

وبالرغم من أن عمل عبد الناصر كان جواباً على خطوة من دالس، فإن البريطانيين والفرنسيين هم الذين أصابتهم الصفعة الكبرى من جراء تأميم القناة.

فبالنسبة إلى الفرنسيين كانت القناة دائماً ملكاً رابحاً وورومنطقياً فيما وراء البحار. وكانت أكثرية أسهم القناة ملكاً لمواطنين فرنسيين، فضلاً عن أن صاحب مشروع القناة، فرديناند ديلسيبس، كان رجلاً فرنسياً، وأن الإمبراطورة الفرنسية أوجيني كانت ضيفة الشرف في حفلة افتتاح القناة. وإذا كان التأميم قد أصاب المساهمين الفرنسيين بضرر بالغ من الوجهة المالية، فإنه أضر بالأمة الفرنسية كلها من الوجهة الاقتصادية. ولما كان الفرنسيون قد اعتادوا حتى الآن أن يفكروا بعبد الناصر على إنه "هتلر الصغير" الذي سبق له أن ارتكب عدواناً على فرنسا في الجزائر، فإن تأميم القناة بدا في نظرهم الآن وكأنه عمل عدواني آخر. وكان السكوت عن عبد الناصر وكأنه تهدئة لدكتاتور آخر، أو "مونيخ أخرى".

ولقد كان للبريطانيين في قناة السويس مصلحة أكبر حتى من مصلحة الفرنسيين أنفسهم. فبالرغم من أن البريطانيين قد عارضوا أصلاً حفر قناة السويس، فإن الحكومة البريطانية سرعان ما أصبحت أكبر مساهم في الشركة. كانت الحكومة البريطانية تملك ٤٤ بالمئة من الأسهم، وكان البريطانيون قد حصلوا على هذه الأسهم عن طريق صفقة ماكرة بين دزرائيلي والخديوي إسماعيل المبذر، حاكم مصر عندما حفرت القناة. كان إسماعيل دائماً بحاجة إلى المال، ولذلك باع أسهمه من دزرائيلي بثمن بخس. ولكن أسهم الحكومة لم تكن إلا جزءاً يسيراً من المصلحة البريطانية في القناة، ذلك أن اقتصاد بريطانيا كان ما يزال يعتمد اعتماداً كبيراً على التجارة مع الشرق، وكانت تجارتها في معظمها تمر عبر قناة السويس. فلما لم تستطع بريطانيا استعمال القناة بحرية فإن اقتصادها كله يصاب بالخطر.

قال أحد المسؤولين البريطانيين، وهو متجهم الوجه:

"إننا لن نسمح لعبد الناصر بالجلوس على شرياننا الحيوي".

وحركت أزمة السويس الرأي العام البريطاني والرأي العام الفرنسي بأكثر مما حركتهما أية أزمة أخرى منذ عام ١٩٣٩، وهكذا كان لإيدن وغي موليه صلاحيات مطلقة لإرسال الجيوش والدبابات والطائرات إلى السويس لإنقاذ القناة من عبد الناصر، وكان كلٌ من الرئيسين مصمماً على استعمال القوة، ولكنهما لم يتحركا.

فما الذي أخرهما عن ذلك؟

إن حقائق الوضع العسكري البسيطة هى التي أخرتهما. فقد أدرك إيدن وموليه فجأة أن بريطانيا وفرنسا العظيمتين في أوروبا، لم تكونا تملكان القوة الكافية في المكان الصحيح لضرب بلد شرقي ضعيف كمصر. في ذلك الوقت لم تكن لبريطانيا قوة كافية في قبرص لشن غزو على مصر، وكانت قوة فرنسا متجمعة في معظمها في شمالي أفريقيا. ومن هنا كان الأمر يتطلب وقتاً – لعله يمتد إلى أشهر – لبناء قوة كافية لضرب عبد الناصر.

هذا الافتقار إلى الاستعداد كلف بريطانيا وفرنسا قناة السويس. فلو أنهما استطاعتا أن تضربا عبد الناصر خلال أيام من التأميم، لكان النجاح حليفهما على الأرجح. كان الرأي العام في كل من البلدين مستعداً لقبول الفكرة، وكان عذرهما في الهجوم على عبد الناصر واضحاً.

ولكن أياً من الدولتين لم تكن مستعدة. وهذا التأخر أعطى عبد الناصر الوقت لاكتساب التأييد الدولي لشرعية مركزه، ومن الناحية العملية كي يثبت أنه يستطيع إدارة القناة بنجاح (كان جزءاً من حجة بريطانيا وفرنسا أن المصريين لم يكونوا يستطيعون إدارة القناة وصيانتها كما ينبغي).

كان عبد الناصر يصرخ غاضباً ومنفعلاً في الليلة التي أعلن فيها تأميم القناة. ولكنه اصطنع فوراً اتجاهاً هادئاً من التعقل اللطيف، قلب الاستراتيجية الإنكليزية الفرنسية

رأساً على عقب. لقد أظهر عبد الناصر رغبته في المفاوضة، في البحث، في التسوية، لم يكن متفقاً أبداً مع الاتجاه السلبي الذي اعتاد العرب أن يصطنعوه. فعندما كان يتسلم المقترحات كان يقدم مقترحات مقابلة، بدلاً من أن يرفضها رأساً. كانت برودته مناقضة بصورة واضحة للانفجارات الانفعالية التي كانت تصدر عن القادة البريطانيين والفرنسيين.

قال أحد العراقيين: "إن عبد الناصر يتصرف كإيدن، وإيدن يتصرف كعبد الناصر".

ومن أسباب هذا التناقض في الاتجاهين أن عبد الناصر كانت عنده قضية قوية لم تكن لإيدن، وإليك الآن أسلحة عبد الناصر:

أولاً: شرعية إجرائه. منذ البداية لم يجادل أحد – حتى بريطانيا وفرنسا – في حق عبد الناصر بتأميم الشركة. والفرنسيون والبريطانيون أنفسهم كانوا قد استنوا التأميم الواسع النطاق لشركات عديدة في بلادهم بالذات. وقصة تأميم المكسيك لشركات النفط الأميركية كانت أيضاً سابقة بارزة.

هناك شرط واحد يوضع عادة لتأميم الشركات الدولية، شرط التعويض عليها تعويضاً كافياً. كان عبد الناصر قد توقع هذا الطلب، ولذلك نص في قانون التأميم الأصلي أن حملة أسهم قناة السويس سيعوض عليهم على أساس سعر الإقفال للأسهم في بورصة باريس يوم ٢٥ تموز (يوليو) ١٩٥٦، أي اليوم الذي سبق التأميم.

وإذن فمن حيث القانون الدولي كان وضع مصر لا غبار عليه، حتى إن البريطانيين والفرنسيين لم يحاولوا مهاجمة عبد الناصر على أساس قانوني، بل اكتفوا بالصراخ قائلين إن القناة كانت مهمة جداً بحيث لم يكن بالإمكان أن توضع تحت سيطرة دولة واحدة (بصورة خاصة تحت سيطرة عبد الناصر).

ولكن عبد الناصر رد على هذا القول ببراعة مدهشة. لقد وافق على بحث السيطرة الدولية على قناة السويس، شرط أن يتم ذلك في مناقشة عامة للسيطرة الدولية على جميع الممرات المائية، بما في ذلك قناة بنما، ومضيق جبل طارق، والدردنيل... إلخ، فلم توافق على هذا المقترح أية دولة غربية!

والسلاح الثاني هو أن عبد الناصر قد تحاشى تماماً أي اصطدام بينه وبين البريطانيين والفرنسيين بعد التأميم. وعندما لم يتمكن البريطانيون والفرنسيون من اغتنام فرصتهم للهجوم على عبد الناصر وقت التأميم، اضطروا إلى انتظار عمل آخر من عبد الناصر يبرر هجوماً عليه.

مثل هذا المبرر لابد أن يكون قد حصل لو أن عبد الناصر: (١) عرقل حركة المرور في القناة بأية طريقة من الطرق، أو: (٢) اتخذ أي إجراء بحق الرعايا البريطانيين والفرنسيين في مصر.

وفي الحالتين معاً تصرف عبد الناصر ببراعة ومهارة.

لقد أدلى بعض المسؤولين المصريين ببعض التصريحات الطائشة في بدء أزمة التأميم، وهذه التصريحات جعلت البريطانيين والفرنسيين يعتقدون أنهم سيعطون الفرصة "لشق طريقهم عبر القناة بالقوة".

قال أحد المسؤولين المصريين للصحافيين إن جميع السفن سيطلب إليها أن تدفع رسوم القناة إلى السلطة المصرية الجديدة لقناة السويس، وبعد ذلك قال المسؤولون المصريون إن هذه القاعدة ستطبق بعد أسبوع.

وأعلن البريطانيون والفرنسيون معاً أن سفنهم لن تدفع الرسوم إلا إلى الشركة السابقة للقناة، وكان هذا يعني أن السفن الفرنسية والبريطانية – بعد أسبوع – ستمتنع من المرور في القناة. واستمرت حمى الاستعدادات الحربية البريطانية والفرنسية، وانتظر العالم

ساعة الصفر. فلو أن سفينة واحدة بريطانية أو فرنسية منعت من المرور لاندلعت نيران الحرب.

وحلت ساعة الصفر، واستمرت جميع السفن بالمرور في قناة السويس! لقد قطع عبد الناصر الطريق على البريطانيين والفرنسيين بأن غير قواعده وقوانينه. لقد أمر بأن جميع السفن يجب أن يسمح لها بالمرور في القناة، وبوجوب الانتباه التام إلى منع أقل تأخر ممكن. أما تلك السفن التي ترفض أن تدفع الرسوم إلى السلطات المصرية فقد سمح لها بالمرور دونما تأخير، فالسلطات المصرية تحتفظ بحقها على هذه السفن، أملاً في تحصيل الرسوم منها في تاريخ مقبل.

وكانت مصر قد منعت السفن الإسرائيلية من المرور منذ الحرب الفلسطينية عام ١٩٤٨، وهذا المنع ظل قائماً. وفي خلال هذه الفترة المتوترة لم تحاول أية سفينة إسرائيلية المرور، ولكن السفن التي تحمل شحنات مدنية لإسرائيل كان يسمح لها بالمرور.

وأما فيما يتعلق بالرعايا البريطانيين والفرنسيين فقد اهتم عبد الناصر بألا يصابوا بأي انزعاج أو ضيق. عندما ألقى عبد الناصر خطاب التأميم هدد بحبس كل مستخدم من مستخدمي القناة إذا ما ترك عمله. ورد البريطانيون والفرنسيون على ذلك بأن وجهوا تهمة "السخرة"، وألمحوا إلى أنهم لن يقفوا مكتوفي الأيدي إذا سجن عبد الناصر، أو أوقف أي مستخدم بريطاني أو فرنسي يحاول أن يترك عمله. والواقع أن عبد الناصر لم يطق أبداً هذا التهديد، بل سمح لكل من أراد أن يترك عمله بأن يتركه، واستمر ألوف الرعايا البريطانيين والفرنسيين ممن كانوا في مصر يحيون حياتهم العادية في أمن تام، كأنما لم يكن هناك أية أزمة على الإطلاق. لقد هدد البريطانيون والفرنسيون باحتلال مصر بالقوة، إذا كانت هناك أية دلائل تشير إلى أن الجموع المصرية الثائرة ستكرر مأساة "السبت الأسود" في شهر شباط (فبراير) ١٩٥٢.

كان على البريطانيين والفرنسيين أن يتعلموا أن مصر عام ١٩٥٦ كانت تختلف اختلافاً كبيراً عن مصر عام ١٩٥٢. لم تعد هناك جموع غير مسؤولة تجوب الشوارع وتنزل الأذى بالأجانب. لقد أعطى عبد الناصر أوامره الصارمة بعدم إيذاء الأجانب، فنفذت هذه الأوامر بحذافيرها.

وبينما كان البريطانيون والفرنسيون يصوبون مدافعهم إلى مصر، لم تكن هناك أية فتنة، أو مظاهرة، أوعمل جماهيري من أي نوع، ولم يظهر أي فرد مصري أيما شعورٍ معادٍ للأجانب.

واستمرت السفارة البريطانية في القاهرة بالقيام بأعمالها. كان ضابط الاستعلامات في السفارة يعقد مؤتمرات صحافية يومية، كان يحمل فيها بشدة على عبد الناصر والمصريين. وكانت الصحف البريطانية تنشر يومياً قصصاً ضد عبد الناصر يسوقها إليها مراسلون بريطانيون أعطوا حرية العمل التام في القاهرة، ولكن بضعة مراسلين بريطانيين أتوا أخيراً بأفعال اقتضت طردهم، ومنحت السلطات المصرية سمات لأولئك الذين أرسلتهم صحفهم بدلاً منهم.

لقد رثيت للمراسلين البريطانيين في القاهرة في ذلك الوقت. كان رؤساء التحرير يطلبون منهم أن يرسلوا تقارير عن الرعايا البريطانيين المهددين بالجموع الغاضبة التي "يحركها ديكتاتورها الديماجوجي"، ولكن الحقيقة البسيطة هي أنه لم يكن هناك ما يكتب عنه أي تقرير. كانت القاهرة منصرفة إلى أعمالها كالعادة. حتى أكثر الصحافيين خيالاً لم يكن يستطيع أن يرسم صورة خطر محدق بالجالية البريطانية في القاهرة في أيام شهر آب (أغسطس) اللاذعة من صيف عام ١٩٥٦.

وهنا كان عبد الناصر أبرع وأذكى من البريطانيين والفرنسيين.

والسلاح الثالث الذي استخدمه عبد الناصر هو ما أدعوه عقدته الشمشونية. كان على الدول الغربية أن تكون حذرة في معالجتها لأزمة قناة السويس. كان عليها أن تتأكد

من أن تصرفاتها لن تسبب حرباً عالمية ثالثة. أما عبد الناصر فلم يكن لديه مثل هذه المخاوف، كان يثق ثقة مطلقة في صواب قضيته، وكان مستعداً لأن يهدم الأعمدة على نفسه وعلى أعدائه في سبيل تلك القضية.

أما الإنكليز والفرنسيون فقد كانت لديهم الأسلحة التالية:

أولاً: قوتهم العسكرية. فسواء استخدم البريطانيون والفرنسيون استعداداتهم العسكرية في قبرص أو لم يستخدموها، فإن هذه الاستعدادات قد كانت دائماً خطراً يتهدد مصر، ولعبت دوراً مهماً في المفاوضات بشأن مستقبل القناة.

ثانياً: الضغط الاقتصادي على مصر. لقد وجهت بريطانيا ضربة قوية إلى مصر من الوجهة الاقتصادية عندما جمدت أرصدتها الإسترلينية البالغة ١٠٥ ملايين جنيه إسترليني. كذلك جمد الفرنسيون الممتلكات المصرية، ولكن هذه الممتلكات في فرنسا كانت ضئيلة. أما الولايات المتحدة فقد دعمت حليفتيها الغربيتين بأن جمدت ممتلكات مصر البالغة ٤٢ مليون دولار.

وكان السلاح الثالث في أيدي البريطانيين التخريب الداخلي. كان العرب يحترمون احتراماً شديداً أجهزة الاستخبارات البريطانية في الشرق الأوسط، وكان هنالك شعور قديم مزعج بين العرب بأن البريطانيين حالما يقررون "التخلص" من رجلٍ ما، فإنهم يتخلصون منه دون شك. والبريطانيون قد قرروا الآن "التخلص" من عبد الناصر. ولكن البريطانيين لم يكونوا يوماً يملكون هذه القوة التي تنسب إليهم، في حين أن كثيرين جداً من العرب اعتقدوا بأنهم كانوا يملكونها، مما أعطى البريطانيين سلاحاً نفسانياً حاولوا الآن أن يستخدموه ضد عبد الناصر. كانوا يشيرون من طرف خفي إلى مصدق إيران، ويبذلوا جهودهم لإحياء آمال الوفديين والإخوان المسلمين والاشتراكيين، وكل من كان له في مصر شكوى من عبد الناصر.

وافتتحت محطة سرية قوية كانت تدعو المصريين وتوجه إليهم نداءات حارة كي يخلعوا عبد الناصر، و"يلجأوا مرة أخرى إلى مصطفى النحاس"، زعيم حزب الوفد الشيخ.

ولقد كان البريطانيون يأملون، دون ريب، في أن يستطيعوا أن يستخدموا ضغطاً كافياً للتسبب في انقلاب داخلي. وكانوا يعتقدون أنه كان بوسعهم - إذا لم يكن هناك شيء آخر يحملُ على مثل هذا الانقلاب - خلق انقلاب باستعمال القوة ضد عبد الناصر. وهكذا اعتقدوا بأن "ضربة" واحدة تكون كافية، وأن بعض العناصر في مصر، كما ظنوا، ستنهض فوراً لخلع عبد الناصر.

قال لي مسؤول بريطاني في ذلك الوقت: "إليك ما سيحدث إذا قررنا استخدام القوة. سنقوم بحركة عسكرية باتجاه القناة. لن يكون من الضروري أن تحتل القاهرة، لأن المصريين أنفسهم سيتخلصون من عبد الناصر. وسينصّب شخصٌ معتبر ولكن عديم الأهمية على رأس الحكومة، وسيعقد اتفاقية مرضية مع البريطانيين حول إدارة القناة.

"وبعد الوصول إلى الاتفاق نقوم نحن بسحب قواتنا، وعندئذ يعود السياسيون المصريون القدماء إلى المسرح، ويطرد الشخص المعتبر العديم الأهمية من الحكومة، وتعود مصر إلى الحياة السياسية الطبيعية، ولكن مصلحة بريطانيا في القناة تكون مصونة".

وكان السلاح البريطاني الفرنسي الرابع، المرشدين البريطانيين والفرنسيين والفنيين الآخرين المستخدمين في إدارة قناة السويس. هؤلاء الفنيون والمرشدون، الذين كانوا في خدمة الشركة السابقة، ظلوا في مناصبهم بصورة مؤقتة بعد التأميم. ومن فرنسا أصدرت الشركة القديمة بيانات نصحتهم فيها بالاستمرار في العمل إلى أن تأتيهم الإشارة بمغادرته.

عندما تمر إحدى السفن بالقناة التي يبلغ طولها مئة ميل وميل واحد، يجب أن تأخذ معها مرشداً من مرشدي الشركة. وفي أيام الشركة القديمة كان المرشدون يعملون ست ساعات في اليوم، مما يعني أن مرشدين اثنين كانا لازمين للمرور بالسفينة عبر القناة في رحلة تدوم اثنتي عشرة ساعة. وبموجب هذا النظام كانت السفن تقاد عبر القنال بأربع قوافل يومية: قافلتين تسيران إلى الجنوب وآخرتين تسيران إلى الشمال.

ولقد أصر مسؤولو الشركة طويلاً على أن قيادة السفن عبر القناة كانت عملية دقيقة جداً لا يمكن أن يعهد بها إلا إلى مرشدين مدربين وذوي خبرة طويلة، وأن هؤلاء المرشدين يجب أن يدربوا على أيدي الشركة نفسها. وقدّر المسؤولون في الشركة أن إدارة القنال بأكبر قدر من الفعالية تتطلب ٢٥٠ مرشداً على الأقل، ولكن أعمال الشركة كانت تسير بمئتين وخمسة من المرشدين المدربين في شهر تموز (يوليو) ١٩٥٦، كان منهم ١٧٩ مرشداً بريطانياً وفرنسياً.

على أساس هذا المنطق أمسكت بريطانيا وفرنسا بخناق عبد الناصر في مسألة المرشدين. فإذا سحبتا مرشديهما من القنال تعين على المصريين أن يعترفوا بعجزهم عن إدارة الممر المائي، وعندئذ يجبر الضغط الدولي عبد الناصر على أن يقبل شكلاً ما من أشكال الرقابة الدولية على القنال.

وبينما كانت بريطانيا وفرنسا تنتظران الفرصة لاستخدام القوة العسكرية عمدتا إلى كسب قضيتهما دبلوماسياً، فدعا البريطانيون إلى مؤتمر لقناة السويس في لندن يتألف افتراضاً من البلدان التي كانت تستخدم القنال بكثرة، أو التي كانت اقتصادياتها تعتمد على القناة.

وقد انتظمت لائحة الدول المدعوّة إلى المؤتمر الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. كذلك انتظمت الدول المحايدة مثل الهند وإندونيسيا، ودعيت مصر نفسها إلى المؤتمر، ولكن المملكة العربية السعودية، التي يعتمد اقتصادها اعتماداً كبيراً على القناة، استثنيت من الدعوة.

ولقد أحرز عبد الناصر في رده على الدعوة البريطانية انتصاراً دعائياً كبيراً. ولكي يعلن ردّه دعا عبد الناصر إلى مؤتمر صحافي، وكان من الواجب أن يعقد المؤتمر في مبنى البرلمان كي يتسع للصحافيين الثلاثمئة الذين حضروه. وكانت جميع شركات الإذاعة والتلفاز، ووكالات الأنباء والصحف والمجلات في العالم أجمع ممثلة في المؤتمر.

وجلس عبد الناصر على منصة رئاسة المجلس وقرأ بيانه الطويل بهدوء. لقد كرر شرعية إجراء مصر، وشدّد على أن مصر لم "تسلب" القناة. كانت القناة دائماً أرضاً مصرية، ولم يشك أحد أبداً في هذه الحقيقة. إن ما فعله هو أنه أمم الشركة التي كانت تدير القناة، ولم يكن هناك تأميم للقناة نفسها. كذلك أشار إلى أن امتياز الشركة سينتهي، على أية حال، في عام ١٩٧٨، والتأميم لم يكن سوى تقديم للوضع الذي كان ضمناً مقبولاً من جميع الفرقاء المعنيين اثنتي عشرة سنة.

أما بشأن اعتراض بريطانيا على إدارة القناة من جانب دولة واحدة، فقد ذكر عبد الناصر أن القناة كانت دائماً تحت رقابة الحكومة المصرية وإشرافها. وأوضح قائلاً إنه مهما كانت الشركة التي تدير القناة فإن هذه الشركة لم يكن لها أي تأثير على سيادة مصر على الممر المائي. ثم أعلن عبد الناصر إنه لم يستطع قبول دعوة بريطانيا إلى مؤتمر السويس في لندن، ولكنه عرض اقتراحاً مقابلاً يقضي بعقد مؤتمر لجميع الدول التي استخدمت القناة في سنة ١٨٥٥. هذا المؤتمر يؤكد من جديد اتفاقية القسطنطينية لعام ١٨٨٨ التي تضمن استخدام القناة لجميع الدول في السلم والحرب، ثم تسجل قرارات هذا المؤتمر في الأمم المتحدة.

وبالرغم من رفض مصر الحضور، فقد عقد مؤتمر السويس في لندن في ميعاده. واتفقت بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ومعظم الدول الممثلة فيه بسرعة على مشروع لتعديل الإشراف على القناة. واقترحت الهند بدلاً من ذلك لجنة دولية استشارية (وهو مشروع كان يمكن أن يقبله عبد الناصر في ذلك الحين)، ولكن الأغلبية الساحقة رفضت المشروع الهندي.

في ذلك الحين كتبتُ أقول إن "عبد الناصر لن يقبل الإشراف الدولي على القناة إلا على رؤوس الحراب". إن أي شخص في القاهرة في إبان ذلك الشهر اللاذع (آب – أغسطس) لابد أن يكون قد فهم تلك النقطة. ومع ذلك فإن مؤتمر لندن أرسل لجنة على رأسها رئيس وزراء أستراليا روبرت منزيس لتقديم مشروع التدويل إلى عبد الناصر.

وواضحٌ إن البريطانيين والفرنسيين لم يتوقعوا نجاح منزيس. كان يحمل مشروعاً لا يمكن أن يقبل به عبد الناصر، ومع ذلك فلم يعط صلاحيات تمكنه من المفاوضة للوصول إلى أي اتفاق آخر. كان عليه فقط أن يقدم المشروع وينقل كلمة "نعم" أو "لا" من فم عبد الناصر إلى لندن. إن أي فرد، حتى ولو كان بعيد الصلة بالوضع، كان يجب أن يعلم الجواب، فقد بدا أن المشروع البريطاني الفرنسي إنما قصد إجبار عبد الناصر على تحدى مستخدمي القناة، وأن يعطيهم بذلك العذر للقيام بإجراء أقسى وأعنف.

وصلت بعثة منزيس إلى القاهرة، وأمضت عدة أيام في محادثة عبد الناصر والمسؤولين المصريين. وفي نهاية اليوم الرابع أكد لي شخص وثيق الصلة بعبد الناصر الخبر السيئ:.

قال: لقد انتهى كل شيء. فالمحادثات قد فشلت، والتدخل الأميركي القوى وحده هو الذي يستطيع أن يمنع البريطانيين والفرنسيين من استخدام القوة ضدنا".

وبدلاً من أن يكتفي عبد الناصر برفض المشروع قدم اقتراحاً مقابلاً. هذه المرة اقترح "لجنة مفاوضة" من جميع الدول المستخدمة للقناة لوضع مشروع لإدارة الممر المائي، ولكن الدول الغربية ضربت بهذا العرض عرض الحائط، دون أن تجشم نفسها حتى عناء بحثه.

كان الوقت يمضي بسرعة. وبالرغم من كل مهارة عبد الناصر الدبلوماسية، فقد بدا أن البريطانيين والفرنسيين كانوا مصممين على إجباره على الاختصام. أما وقد أخفق مؤتمر لندن الآن فقد فركوا أيديهم واستخدموا أفضل أسلحتهم: المرشدين.

وأعلن مقر الشـركة القديمة الرئيسي في باريس أن المرشدين الفرنسيين والبريطانيين سيتركون أعمالهم، ابتداء من منتصف ليل ١٤ أيلول (ديسمبر) ١٩٥٦، بصـورة إجمالية. ولما كان المصـريون عـاجزين عـن إدارة القناة فـإنهم سيشـهدون قنـاتهم تصـبح كعنق الزجاجة المسدود، وسيرون العديد من السفن متراصة عند كل من طرفيها غير قادرة على المرور. وكان رد فعل عبد الناصـر لكل هذا ببرودة مدهشة تؤيد من جديد النظرية القائلة إن له أعصاباً من حديد. وأقبل المسؤولون المصـريون القلقون على عبد الناصـر يسـألونه عما ينوى أن يفعله عند مغادرة المرشدين البريطانيين والفرنسيين.

وأجاب عبد الناصـر ضاحكاً: "سآمر بتسهيل سمات خروجهم، وسألح كذلك عـلى شـركات الطيران بإعطاء الأفضلية للمرشدين عندما يريدون مغادرة البلاد".

وسأله مسؤول مروع قائلاً: "هل هذا كل ما ستفعله؟"

وفكر عبد الناصـر دقيقة ثم قال:

"شـيء آخر... سأطلب إلى فرقة موسيقى الجيش أن تعزف "المارسيلياز" أو "صـان الله الملك" عندما يرحل المرشدون".

لم تكن روح عبد الناصـر المرحة الساخرة مصطنعة. كان واثقاً من أنـه سيسـتطيع أن يربح هذه الجولة. كان واثقاً لأنه كان لديه رجـل يـدير القنـاة، رجـل يسـتطيع أن يقـوم بالعمل، مهما كان قاسياً. وهذا الأمر لم يكن يعرفه البريطانيون والفرنسيون.

كان الرجل الذي وثق به عبد الناصـر لمواجهة أزمة القناة الكولونيل محمـود يـونس، الرجل الذي لا يدخن ولا يشـرب الخمر، والذي كان عبد الناصـر قد عينه مديراً لسلطة قناة السويس المؤممة. كان يونس يختلف عن أي مدير آخر عرفته قناة السويس. ففـي أيـام الشـركة السابقة كانت مكاتب المسؤولين في باريس، وكانوا لا يزورون القنـاة نفسـها إلا من حين إلى آخر. أما يونس فقد نقل مقـره الرئيسـي إلى الإسـماعيلية، البلـدة الصـغيرة الواقعة عند منتصف القناة.

في تلك الأيام العسيرة من عام ١٩٥٦ كان يونس يصعد ويهبط القناة أربعاً وعشرين ساعة تقريباً في اليوم. كان له سرير عسكري في كل مكتب من مكاتب القناة ينام فيه ساعتين أو ثلاث ساعات كلما سقط صريع الإعياء. وعندما أنبئ بقرار سحب المرشدين الأجانب لم يُحفل ثانية واحدة، وقبل بضعة أيام من خروج المرشدين بالجملة واجه يونس حشداً من المراسلين طلبوا منه عقد اجتماع صحافي مستعجل في بورسعيد. كان يبدو متعباً مكدوداً، وكان أحد خديه يرتعش بعصبية، ولكنه لم يكن يفتقر إلى الثقة بالنفس.

وسأله أحد المراسلين: "كم مرشداً سيبقى لديك عندما يرحل البريطانيون والفرنسيون؟"

وأجاب يونس بتجهم: "دعك من عدد المرشدين الذين سيكونون لدينا، يا سيدي. إن ما تحتاج إلى معرفته، يا سيدي، هو أن القناة ستبقى مفتوحة وأنها ستعمل بكل طاقتها. لست بحاجة إلى أن تعرف، ياسيدي، عدد المرشدين العاملين لدينا".

وعندما ألح المراسلون عليه بالإفاضة في الحديث عن الطريقة التي كان ينوي بها إبقاء القناة مفتوحة، أجاب يونس بأنه كان لديه خطة، وأنه يعرف أن خطته ستنجح. ولقد ضحك معظم الصحافيين من وراء ظهره وسخروا من "صفيره في الظلام"، ولكن يونس كان هو الذي ضحك أخيراً.

كانت أعين العالم مركزة على قناة السويس عندما اقتربت ساعة الصفر في ١٤ أيلول (سبتمبر). كان السلم أو الحرب معلقين فعلاً في الميزان تلك الليلة، وكانا يتوقفان على ما إذا كان باستطاعة المصريين أن يرتفعوا إلى مستوى المناسبة.

وبعد الساعة السادسة بقليل من ذلك المساء، غادرت القوافل الليلية بورسعيد والسويس. كان يقودها المرشدون البريطانيون والفرنسيون كالعادة، ولكن عندما ينهى هؤلاء المرشدون دورتهم حوالي منتصف الليل، فإنهم سيخرجون ويغادورن لأعمالهم، ومنذ ذلك الحين كان يتعين على المصريين أن يتدبروا أمرهم بأنفسهم دون مساعدة من أحد.

وقبل منتصف الليل بدأت الأمور تحدث. ومن مقره في الإسماعيلية أصدر يونس تعليماته العاجلة إلى قبضة من المرشدين الذين بقوا لديه. فبدلاً من أن يعملوا ست ساعات فحسب، كان عليهم أن يعملوا اثنتي عشرة ساعة، أي أنه كان على مرشد واحد أن يقود سفينته من أول القناة إلى آخرها، ولن تكون ثمة أية عطلة، أو أي عيد، حتى انتهاء الأزمة.

وفي الحادية عشرة جاءت النجدة من مصدر غير متوقع. فقد وصل القنصل الروسي إلى مكتب يونس في الإسماعيلية، وقال إن خمسة عشر مرشداً روسياً كانوا ينتظرون في الخارج، مستعدين للعمل فوراً مع سلطات القناة المصرية.

وعند منتصف الليل، مرت القافلة المتجهة إلى الجنوب بالإسماعيلية وألقت مراسيها في بحيرة التمساح، وهى في منتصف الطريق بين طرفي القناة، وغادر جميع المرشدين البريطانيين والفرنسيين السفن وتركوا خدمة القناة، وتحرك فوج من المرشدين المصريين كان ينتظر في الزوارق البخارية لقيادة القافلة. كانوا متجهمي الوجوه تلك الليلة، وكان بوسع المرء أن يسمعهم يتمتمون وهم يقتربون من السفن:

- "يجب أن تبقى القناة مفتوحة".

وسحبت السفينة الأولى مراسيها، وشرعت القافلة بالتحرك خلال الليل نحو مقصدها في مكان ما إلى الشرق من السويس. في هذا الوقت كانت القافلة المتجهة إلى الشمال يقودها المصريون أيضاً، وكانت كلتا القافلتين تتقدم دونما حادث. وما إن انبلج الصباح حتى كانت الأنباء الطيبة قد وصلت إلى القاهرة: إن كلتا القافلتين قد وصلت سالمة إلى طرفي القناة، دون أي تأخر أو حادث. وفي ذلك الصباح تحركت قافلتان أخرتان في موعدهما، وتكرر الشيء نفسه في المساء.

ومع ذلك فقد ظل الساخرون يقولون إن القبضة الضئيلة من المرشدين لم يكن باستطاعتها أن تصمد طويلاً. ولكنهم فعلوا. وبمضي الأيام بدأ المتطوعون يتدفقون من

جميع أنحاء العالم. لم يكن هناك الآن مرشدون روسيون فحسب، بل أميركيون ويونانيون وإيرانيون وهنود.. مرشدون من جميع الكرة الأرضية وصلوا كي يعملوا في قناة السويس. وبعد سنة واحدة أطلعني المسؤولون في إدارة القناة على عدد المرشدين الذين كانوا لدى يونس عند رحيل البريطانيين والفرنسيين، بدلاً من المئتين وخمسين مرشداً لم يبق لدى يونس سوى ٢٦ مرشداً مدرباً و٣٠ مرشداً في طور التدريب.

لعل محمود يونس عرف كيف يبقي القناة مفتوحة في تلك الأسابيع من خريف عام ١٩٥٦، ولكن ما عرفه العالم فعلاً هو أن البريطانيين والفرنسيين قد استخدموا أثقل أسلحتهم بعد القوة العسكرية، وأن السلاح لم يصب الهدف.

كان عبد الناصر قد ربح جولة أخرى ضد الغرب.

(١٠)

حرب السويس



انتصار عبد الناصر فى الصراع الدائر حول المرشدين فى قناه السويس، لم يضع حداً لأزمة قناة السويس بحال من الأحوال. كان المصريون قد أقاموا الدليل، وفى سرعة بالغة، على أن فى استطاعتهم أن يديروا القناة إدارة فعالة، ولم يبق ثمة أى تجريح لشرعية التأميم. كانت السفن البريطانية والفرنسية تستعمل القناة فى حرية كتلك التى تستعمل بها من قبل. وبدا كأنه لم يبق ما يستحق أن يكون موضوعاً للنزاع.

ولكن عنصراً مشؤماً كان لا يزال، برغم ذلك كله، ماثلاً للعيان. كان ذلك هو القوى العسكرية البريطانية والفرنسية الضخمة التى كانت تحشد فى قبرص. كان كل يوم يمر يحمل معه مزيداً من الجند ومزيداً من الأعتدة الحربية إلى هنالك. وكان قد أمسى عسيراً على أنطونى إيدن أن يبرر احتفاظه بهذه القوات في تلك الجزيرة. لقد تعين عليه إما أن يستعملها فى سرعة، وإما أن يعيدها إلى أرض الوطن.

وكان أحد البريطانيين -- الذين تشبعوا بوجهة نظر وزارة الخارجية البريطانية -- قد وصل إلى القاهرة فى شهر أيلول (سبتمبر)، وأوضح موقف إيدن على الشكل التالى:

- "إن تأميم عبد الناصر لقناة السويس قد غير إيدن تغييراً كاملاً. لقد كان إيدن قبل التأميم، شخصية ضعيفة، مترددة، متذبذبة. أما الآن فقد أصبح رجلاً ذا حزم وعزم. لقد عقد النية على الزحف إلى قناة السويس، وهو يريد أن يقوم بذلك ولو اضطر إلى أن يخوض بحراً من الدماء".

وقال بريطانى آخر معبراً عن وجهة نظر بريطانية نموذجية فى ذلك الحين:

- " يجب علينا أن نشكر عبد الناصر لهذه الفرصة التى أتاحها لنا لاستعادة مركزنا اللائق كدولة عالمية. إنه وقد "اغتصب" القناة، الآن، قد قدم إلينا مبرراً للعودة إلى

السويس. إننا إذا احتللنا السويس، كرة أخرى، فعندئذ نصبح من جديد الدولة المهيمنة على الشرق الأوسط. والدولة التى تهيمن على الشرق الأوسط سوف تكون واحدة من أعظم الدول فى العالم. لقد خسرنا نحن البريطانيين كثيراً من مكانتنا الدولية والعسكرية فى السنوات الماضية، ولكن هذا قد انتهى الآن. إننا عائدون".

بيد أن براعة عبد الناصر الدبلوماسية استطاعت، فى أواخر شهر أيلول (سبتمبر) أن تفسد على بريطانيا كل ذريعة كان يمكن لها أن تتذرع بها للزحف على السويس. ولسبب ما، اختارت بريطانيا وفرنسا تلك الظروف بالذات لعرض قضيتهما على مجلس الأمن الدولى.

ومرة ثانية، استطاعت مصر أن تتفوق على الدولتين الأوربيتين فى حقل الدبلوماسية والدهاء. وإنما كان بطل هذه القصة وزير خارجية عبد الناصر المتواضع العبقرى، محمود فوزى. والواقع أن محمود فوزى، منذ أن تولى وزارة الخارجية فى ظل عبد الناصر، لم يكن ذا أثر قوى فى رسم السياسة المصرية. ولكن ما يعتزم عبد الناصر انتهاج سياسة ما فى الشؤون الدولية حتى يتمها فوزى فى براعة تدعو إلى الإعجاب. وكما قال بعضهم: "إن عبد الناصر يعمل، ثم يجىء محمود فوزى فيضفى على ذلك العمل الصفة الشرعية".

ومحمود فوزى يستحق أعظم التقدير لهذه الحقيقة: وهى أن مصر لم تخسر أيما جولة فى الأمم المتحدة أن تولى عبد الناصر مقإليد الأمر فى بلاده. ولقد قال لى وزير خارجية الدول العربية ذات يوم أنه اعتزم أن يكف عن إجراء أيما محادثة شخصية مع محمود فوزى لأن "هذا الرجل قوى الحجة شديد القدرة على الإقناع بشكل خطير".

وحين حملت بريطانيا وفرنسا شكواهما على مصر إلى مجلس الأمن وصل محمود فوزى إلى لندن، وصدر عن سياسة تعاونية تفل كل سلاح. لقد أظهر رغبة شديدة فى الوصول إلى تسوية، حتى لقد بات من الضرورى إخراج المسألة كلها من مجلس الأمن ومناقشتها فى محادثات بين وزراء الخارجية. والحق أن فوزى تكشف عن قدر عظيم من

حسن النية ومن الاعتدال بحيث أكرهت بريطانيا وفرنسا - تحت ضغط الولايات المتحدة، والأمين العام للأمم المتحدة داغ هامرشولد، وغيرهما - إلى أن تتفاوضا مع عبد الناصر مباشرة. لقد خسرتا كل أمل لهما فى أن تحملا الأمم المتحدة على إدانة مصر.

ومن المحادثات التى دارت فى أروقة مجلس الأمن، توصل البريطانيون والفرنسيون والمصريون إلى اتفاق على ستة مبادئ رئيسية فى موضوع القنال. صحيح أن تلك النقاط الست كانت غامضة وعرضة تأويلات متفاوتة غير أنها كانت تمثل خطوة واسعة فى سبيل التقريب ما بين وجهتى النظر المتصارعتين. والواقع أن تبنى هذه المبادئ قطع الطريق على بريطانيا وفرنسا. وهكذا لم يعد لهما الآن أيما عذر لاستعمال القوة ضد عبد الناصر. وجدت بريطانيا وفرنسا نفسيهما، بدلاً من ذلك، مضطرتين إلى التفاوض مع الرجل الذى أطلقتا عليه لقب "هتلر الصغير"!

ومن طريق وساطة هامرشولد، اتفق على أن تجتمع بريطانيا، وفرنسا، ومصر، للتفاوض فى عقد تسوية نهائية لمشكلة القناة. ووافق المصريون على الالتقاء بالبريطانيين والفرنسيين فى جنيف فى إليوم التاسع والعشرون من شهر تشرين الأول (أكتوبر). وبدا للناس جميعاً وكان سجل أزمة السويس عام ١٩٥٦ قد طوى...

بيد أن اجتماع التاسع والعشرون من تشرين الأول (أكتوبر) لم يعقد قط...

لقد حدث شيء أهم من ذلك بكثير فى ذلك النهار!

لقد أصبح بديهياً فى السنوات الأخيرة، أنه ما إن تسوى أزمة من الأزمات فى بلد من بلدان الشرق الأوسط، حتى تنفجر أزمة أخرى في بلد آخر من بلدان تلك المنطقة...

وقد صح ذلك فى تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٥٦.

فما إن خف التوتر فى مصر حتى ارتفع فى الأردن. كانت أحداث خطيرة تقع على الحدود الأردنية الإسرائيلية.

فطوال بضعة أشهر كان كل شيء هادئاً، تقريباً بين مصر وإسرائيل. وخلال أزمة السويس كان عبد الناصر يحاول جهده أن يجتنب الاحتكاك بإسرائيل، لأنه لم يكن يريد أن يخوض الحرب على جهتين اثنتين. بيد أن الإسرائيليين بدأوا، منذ أوائل تشرين الأول (أكتوبر) يشكون من غارات الفدائيين على الأراضي الإسرائيلية. ولكن الإسرائيليين قالوا هذه المرة إن الغزاة كانوا يجتازون الحدود من ناحية الأردن.

وأثر بن غوريون إن تجاهل جهاز الهدنة التابع لمنظمة الأمم المتحدة، واصطنع سياسته القديمة فى التعامل مع العرب - سياسة الغارات النظامية التى تقوم بها كتائب من الجيش الإسرائيلى نفسه. وفى مدى شهر واحد، كان الجيش الإسرائيلى قد قام أربع مرات متوإلية بالهجوم النظامى على المدن العربية المتاخمة للحدود الأردنية. كانت "حملات الانتقام" الإسرائيلية لا تتناسب قط مع غارات الفدائيين على إسرائيل.

لقد بدا وكأن إسرائيل قد تشن هجوماً ماحقاً على الأردن، فى وقت قريب جداً. وفى يأس، طلب الملك حسين النجدة. فوجهت الحكومة العراقية اثنى عشر ألف مقاتل إلى الحدود العراقية، وأبدت استعدادها لأن تبعث بهم إلى الأردن. وكان فى استطاعة القوات العراقية أن تحتل الضفة الشرقية من الأردن، وبذلك ينصرف الجيش الأردنى إلى الدفاع عن الضفة الغربية، على طول الحدود الأردنية الإسرائيلية.

وهددت إسرائيل الأردن بأنها سوف تهجم فى الحال إذا دخلت القوات العراقية الأراضى الأردنية. وبلغ التوتر ذروة أصبح الانفجار بعدها قاب قوسين أو أدنى. ثم إن الحكومة الأردنية أعلنت فجأة أن الجيوش العراقية لن تدخل الأراضى الأردنية، ذلك لأن القوات العراقية كانت قد رفضت التقدم عندما أصر الجنرال على أبو ذوار، القائد الشاب الذى حل محل غلوب فى قيادة الجيش العربى، على أن توضع القوات العراقية العاملة فى الأردن تحت قيادة.

ولكن ذلك لم يضع حداً للتوتر إلا مؤقتاً...

وأجريت فى الأردن انتخابات نيابية. كانت هى أول انتخابات تُجرى منذ إقالة غلوب...

وجاء إلى الندوة النيابية برلمان معظم أعضائه مؤيد لمصر، وعندئذ تطلع الأردن إلى مصر يلتمس منها النجدة. وما هى إلا فترة قصيرة انقضت على الانتخابات النيابية، حتى وصلت إلى عمان طائرتان مصريتان تقلان بعثة عسكرية على رأسها قائد الجيش المصرى العام، اللواء عبد الحكيم عامر. وفى الوقت نفسه وصلت عمان بعثة سورية عسكرية يرأسها رئيس أركان حرب الجيش السورى، الجنرال توفيق نظام الدين.

وانتهت المحادثات بإنشاء قيادة موحدة للجيوش الثلاثة، المصرية والسورية، والأردنية، برئاسة عبد الحكيم عامر. وتم الاتفاق على اعتبار أيما هجوم على أى من هذه الدول الثلاث هجوماً على الدول الثلاث، تتولى القيادة الموحدة الرد عليه فى الحال.

وهكذا عُهد إلى مصر فى أمر الدفاع عن الأردن.

وبعد المحادثات التي دارت فى عمان شخصت البعثة العسكرية المصرية إلى دمشق فى زيارة مجاملة. وفى ٢٩ تشرين الأول (أكتوبر) غادر أعضاء البعثة دمشق غائدين إلى القاهرة. ومن المفروض أن يكونوا قد طاروا فى اتجاه البحر، ومن ثم اتجهوا جنوباً نحو مصر، متخذين سبيلهم غربى إسرائيل. وفى ساعة متأخرة من ذلك ذاع نبأ يقول إن الطائرة التى كانت تقل اللواء عبد الحكيم عامر قد تأخر موعد وصولها المقرر. ولكن هذه الإشاعة ما لبثت أن صُححت. كانت الطائرة المقلة للواء عبد الحكيم عامر قد وصلت إلى مصر، ولكن الطائرة الثانية كانت قد فُقدت.

ولم يذع عن ذلك بيان ما. وحتى هذه اللحظة ليس هناك أية رواية رسمية لما حدث. ولكن كثيراً من المراقبين يذهبون إلى أن الإسرائيليين أطلقوا النار على تلك الطائرة، وهم يحسبون أنهم إنما يسقطون طائرة عبد الحكيم عامر.

وفى تلك إليوم كان الإسرائيليون فى مزاج أشبة بمزاج الحرب. كانت أمارات الاستعداد المحموم للحرب بادية فى إسرائيل منذ بضعة أيام. وكان بن غوريون قد أصدر أمراً بالتعبئة العامة، وصودرت وسائل المواصلات المدنية، واتخذت إجراءات أمن صارمة، وفرضت على الشؤون العسكرية سرية كاملة.

وفى صباح إليوم التاسع من تشرين الأول (أكتوبر) أصدر الرئيس أيزنهاور أمره - على نحو مسرحي دراماتيكي - إلى جميع الأميركيين الذين لا يتولون مهاماً أساسية ذات صفة رسمية بأن يرحلوا عن الأردن، وسوريا، ومصر، وإسرائيل.

وأعد الأردن نفسه للهجوم المنتظر، شبه المؤكد...

وشرعت السفارة الأميركية في عمان ترحل الرعايا الأميركيين عن الأراضي الأردنية في سرعة مثل سرعة البرق.

وما إن أعلنت الساعة الرابعة من ذلك النهار، حتى لم يكن قد بقى في السفارة الأميركية في عمان غير السفير ليستر مالورى وبضعة نفر أخرين.

وعند هبوط الليل، اتصلت السفارة الأميركية، هاتفياً، عدة مرات، بالضفة الغربية لتسأل: هل سُددت الضربة؟ وحوإلى الساعة العاشرة ليلاً جاء الجواب:

كان الهجوم قد بدأ. لقد شن الإسرائيليون هجوماً على نطاق واسع في منطقة الكونتيلا.

وكان وجه الغرابة في الخبر هو أن الكونتيلا ليست في الأردن، على الإطلاق. إنها أرض مصرية. ذلك أن الإسرائيليين كانوا قد خدعوا العالم كله عندما أداروا ظهرهم للأردن، وألقوا بكامل قوتهم العسكرية ضد مصر وعبد الناصر.

إن الكونتيلا قرية مصرية نائية واقعة جنوبي صحراء سيناء. ولم يكن للمصريين فيها غير قوة اسمية هى عبارة عن بعض الدوريات التي تتعقب مهربي المخدرات، والتي تتخذ

الجمال وسيلة للانتقال. كانت إذن منطقة محرومة من كل دفاع، وكانت بهذا الوصف نقطة وثوب صالحة بالنسبة إلى الإسرائيليين.

وما إن وصلت أنباء الهجوم الإسرائيلي إلى العالم الخارجي حتى كانوا قد اجتازوا سبعين ميلاً عبر صحراء سيناء، وانطلقت فرقة إسرائيلية أخرى من العوجا، تلك المنطقة التي كان النزاع ناشباً حولها بين المصريين والإسرائيليين، والتي كان الإسرائيليون قد احتلوها قبل عام واحد. وشن الإسرائيليون هجوماً ثالثاً في الشمال زعزع مراكز الدفاع المصرية في العريش، وكان القصد من هذا الهجوم الأخير عزل شقة غزة.

كان المصريون قد أخذوا على حين غرة. ووجدت الوحدات المصرية المتمركزة على الحدود أنها أمام قوات إسرائيلية أكثر منها عدداً وأقوى عُدة، ووقع خمسة آلاف مصري في الأسر.

وفى أبى عجيلة وحدها صمد المصريون. كان عبد الناصر قد أصدر أمره إلى حاميتها بالثبات حتى آخر رجل. وهكذا صُد الهجوم الإسرائيلي مؤقتاً، وتمكن عبد الناصر من إنقاذ قواته التى كانت قد شرعت الآن تخلي شبه جزيرة سيناء بكاملها.

وفيما الإسرائيليون يواصلون هجومهم نحو القناة، أقدمت بريطانيا على ارتكاب أضخم حماقة أقدمت عليها في تاريخها كله.

لقد قرر أنطوني إيدن أن يتدخل.

وإلى أنطوني إيدن انضم الفرنسيون.

ومن ذلك الحين لم يعد عبد الناصر يواجه إسرائيل وحدها، وإنما أصبح يواجه ثلاث دول، اثنتان منها تعتبران أقوى دولتين فى أوروبا الغربية كلها.

ومنذ تلك اللحظة تقرر النصر، وكتبت الغلبة لعبد الناصر.

كان الهجوم الإسرائيلي قد أتاح لإيدن ومواليه تلك الفرصة التي طالما بحثا عنها منذ ٢٦ تموز (يوليو). وهكذا لم تعد قواتها المحتشدة فى قبرص عاطلة عن العمل الآن.

ولن أحاول هنا أن أسهب فى الكلام على مسألة ما إذا كانت بريطانيا وفرنسا قد تواطأتا مع إسرائيل على غزو مصر أم لا. كل ما أريد أن أقوله هو هذه الحقيقة: إن هجوم إسرائيل ما لبث أن أتبع بتدخل بريطانيا وفرنسا.

وفي ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر) أعلن إيدن أن بريطانيا وفرنسا اعتزمتا "الفصل ما بين قوات" إسرائيل ومصر. ثم إنه وجه إنذاراً يقضي بأن يتراجع كل من الفريقين المتحاربين حتى تصبح قواته على بعد عشرة أميال من جانبي قناة السويس. وأعلن إيدن أنه لم ترضخ الدولتان للإنذار فإن بريطانيا وفرنسا سوف تتدخلان في الحال.

وقبلت إسرائيل الإنذار في ابتهاج، لأن ذلك كان يبقى فى حوزة قواتها شبه جزيرة سيناء كلها.

أما عبد الناصر فقد رفض الإنذار، الذي تجاهل الاحتلال الإسرائيلي وأقره، والذي ذهب إلى أبعد من ذلك، فراح يطلب إلى عبد الناصر أن يتخلى عن جزء آخر من الأراضي المصرية.

والواقع أن صيغة الإنذار أفقدت العمل الذي أقدمت عليه بريطانيا وفرنسا كل صفة شرعية، وأثارت عليهما نقمة العالم كله تقريباً.

لقد كان في وسع الدولتين أن تتدخلا، شرعياً، لو أنهما أقدمتا على ذلك بموجب البيان الثلاثي الإنكليزي الفرنسي الأميركي الضامن للحدود القائمة ما بين دول الشرق الأوسط. ولكن ينبغي ألا ننسى أنه لو أقدمت بريطانيا وفرنسا على التدخل بموجب هذا البيان الثلاثي، لكان عليهما أن تطلبا إلى الإسرائيليين الانسحاب إلى ما وراء حدودهم كجزء من الإنذار. إن مثال هذا الإنذار لو تقدمت به بريطانيا وفرنسا كان خليقاً بأن يضفي عليهما صفة البوليس فى الشرق الأوسط، وصفة حماة السلام فيه... وليس من ريب في أنه كان خليقاً بأن يحظى بتأييد الولايات المتحدة، وربما بتأييد الأمم المتحدة أيضاً.

أما الأسلوب والصيغة اللذان اختارهما إيدان لإنذاره، فقد جعلاه إنذاراً أحمق لا يستند إلى أساس من المنطق على الإطلاق. ليس هذا فحسب، بل لقد كان الإنذار خلواً من الصفة الشرعية، ولم يكن ثمة أيما مبرر شرعي لتوجيهه. وهكذا اعتقد معظم الناس في طول العالم وعرضه أن الإنذار لم يكن غير عذر تذرعت به بريطانيا وفرنسا لاستعمال قوتهما المحتشدة فى قبرص في محاولة أخيرة للقضاء على عبد الناصر.

وحين رفض عبد الناصر الإنذار البريطانى الفرنسي لم يخطىء فى تقدير قوة بريطانيا وفرنسا العسكرية، ولكنه أخطأ في تقدير نصيبهما فى الحماقه والبلاهة! إنه ما كان يعتقد قط إنهما من الحماقة والبلاهة بمكان يجعلهما تقدمان على استعمال القوة ضد مصر.

وحتى بعد إنذار إيدن، قال عبد الناصر إنه كان واثقاً من أن البريطانيين والفرنسيين لن يهاجموا مصر. وهو لم يصدق أذنيه عندما رن جرس الهاتف فى منزله بالعباسية، في ذلك الأصيل، وأعلمه المتحدث أن طائرات بريطانية كانت تحلق فى سماء القاهرة.

وقال عبد الناصر:

- "ومع ذلك، فإنى لم أستطع أن أصدق النبأ. وفى الحال هرعت إلى سطح منزلي. كنت أريد أن أري بنفسي. ولكن النبأ كان صحيحاً. لقد كانت الطائرات هناك. كانت الطائرات البريطانية تقذف بقنابلها مطار القاهرة الدولي".

وفى خلال الأيام القليلة التالية أخذت الطائرات البريطانية والفرنسية تقذف بقنابلها المطارات المصرية والمرافئ المصرية وسكك الحديد ومراكز المواصلات فى مصر. ودُمرت أبراج إذاعة "صوت العرب" وأضرمت فيها النار. وبذلك صمت، مؤقتاً، لسان من أقوى ألسنة الدعاية الناصرية وأبلغها.

وكان البريطانيون يحاولون أن يغزوا مصر بأقل قدر ممكن من الخسائر في الأرواح، سواء أكانت هذه الأرواح مصرية أم بريطانية، وقد سعوا على نحو نظامي إلى أن يدمروا سلاح مصر الجوي قبل أن ينزلوا قواتهم إلى اليابسة المصرية.

ولكن أين كان سلاح عبد الناصر الجوي، بطائراته الميغ والإيليوشين السوفيتية؟ إن ذلك السلاح الجوي لم يشارك في الحرب إلا قليلاً. فقد كان عدد غير معروف من تلك الطائرات قد انطلق سراً إلى سوريا وإلى المملكة العربية السعودية ابتغاء إنقاذه من التدمير. ودمر القصف البريطاني عدداً غير يسير من الطائرات المصرية وهي جاثمة على الأرض، ولكن عبد الناصر حاول أن ينقذ ما هو أنفس عنده وأثمن حاول أن ينقذ طياريه المدربين القليلى العدد مع أكبر قدر يمكن إنقاذه من الطائرات. وحين أصر بعض ضباط سلاحه الجوي على ضرورة الانطلاق إلى الجو في محاولة يائسة للدفاع عن مصر، أجاب عبد الناصر:

- "لن أسمح بذلك أبداً. أصدروا الأمر إلى جميع طياريكم بالذهاب إلى بيوتهم، وبالابتعاد عن الأنظار. إن في استطاعتنا أن نشتري طائرات إضافية، ولكننا نحتاج إلى سنوات وسنوات حتى ندرب الطيارين على قيادتها. إننا لا نستطيع أن نفرط بالطيارين الذين نملكهم".

وأخيراً ضرب البريطانيون والفرنسيون ضربتهم. واشتد القصف اشتداداً عظيماً فى منطقة بور سعيد على طول الشاطئ الواقع على البحر الأبيض المتوسط. وبدأ جند المظلات البريطانيون يهبطون إلى إليابسة، يتبعهم جنود أقبلوا على الحاملات البحرية.

واحتلت القوات الفرنسية بور فؤاد، على الضفة الشرقية من القنال المواجهة لبور سعيد.

وفيما كان الغزاة يوطدون أقدامهم، كان أنطوانى إيدن يعترف بالهزيمة.

لقد أخبر مجلسَ العموم إن بريطانيا وفرنسا قد وافقتا على موقف إطلاق النار.

ما الذى كان حدث؟

قبل كل شيء، لقد وجدت الدول الثلاث المهاجمة لمصر أنفسها في عزلة دبلوماسية مطلقة. فقد أصرت الولايات المتحدة الأمريكية على وقف إطلاق النار والانسحاب من

مصر. وباستثناء أستراليا ونيوزيلندة، تخلى حتى شركاء بريطانيا فى الكومونولث عنها. وللمرة الأولى عارضت كندا الحكومة البريطانية معارضة عنيفة في مسألة من المسائل الكبرى. واستعلمت بريطانيا وفرنسا حق النقض (الفيتو) في مجلس الأمن، ولكن الجمعية العمومية ما لبثت أن انعقدت وطلبت إلى القوات البريطانية، والفرنسية، والإسرائيلية، الانسحاب دون قيد ولا شرط من جميع الأراضى التي احتلتها.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فإن رئيس وزراء الاتحاد السوفييتي وجه فى الوقت المناسب مذكرة إلى بريطانيا وفرنسا لمح فيها إلى أنهما إذا لم يوقفا الهجوم فقد يجدان نفسيهما ضحية هجوم ذري يوجه إليهما من الاتحاد السوفييتي.

وكثيراً ما سُخر من الإنذار السوفييتي واعتبر خدعة. من يدري!؟ فمن الجائز أنه كان كذلك. ولكن الأمر الثابت الذي لا نزاع فيه هو أن الإنذار السوفييتي ذكر الملايين من الناس بأن أيا حرب محلية في الشرق الأوسط - أو أي مكان آخر - تحمل في طياتها إمكانية التوسع ثم التحول إلى حرب عالمية ثالثة.

والشىء الثالث هو أن الخبراء الماليين البريطانيين حذروا المسؤولين قائلين إن الجنيه الإسترليني مهدد بخطر الانهيار إذا لم تسارع بريطانيا إلى إيقاف حربها ضد مصر.

والشىء الرابع هو أن النقمة البرلمانية كانت شديدة جداً على حكومة إيدن، وإن الكثرة النيابية كان في إمكانها أن تنزع الثقة من تلك الحكومة إذا لم تعمد إلى وقف إطلاق النار.

وأخيراً، وربما كان هذا أهم هذه الأسباب كلها، أن العسكريين البريطانيين أخطأوا كثيراً في تقديرهم لقوة عبد الناصر.

لقد انتشرت في أوروبا إشاعات تقول إن عبد الناصر قد استقال. وتحدث القوم في أوروبا حديثاً مسهباً عن انقلاب عسكري حدث في مصر، وعن حملات داخلية طالبت

عبد الناصر بالاستقالة... ونشرت إحدي الصحف البريطانية رسماً كاريكاتيرياً يمثل الملك فاروق واقفاً بباب رقم ١٠ داوننغ ستريت يسأل والأمل يعمر صدره:

- "هل هناك أي شيء أستطيع أن أقوم به إليوم؟"

ولكن الواقع كان خلاف ذلك تماماً.

ذلك أن عبد الناصر جابه الموقف في براعة وأصالة رأي. لقد صمد في وجه المحنة. صحيح أنه كان يقاوم قوات دولية جبارة، ولكنه كان يعلم أن في استطاعته أن يتكل على دول أشد بأساً وقوة. لقد كان يتمتع بمركز نادر يتمثل في أن كلاً من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة كان يؤيده ويقف في صفه.

ونادراً ما تقف هاتان الدولتان إلى جانب قضية واحدة.

ومما هو جدير بالذكر أن السكان المدنيين المصريين قد أبلوا بلاءً حسناً في حرب السويس. كانت معنوياتهم وروحهم الانضباطية قوية إلى حد لا يكاد المرء يصدقه. وكثير من الشبان الذين كانوا ينظرون قبل سنوات إلى الخدمة العسكرية وكأنها شيء لا يليق بهم، راحوا يتطوعون الآن للانضمام إلى وحدات جيش التحرير غير النظامية. وكان قرار التعتيم وإنذارات صفارات الخطر تنفذ تنفيذاً دقيقا جداً. كانت المخالفات نادرة، وكانت الاضطرابات وأمارات الذعر مفقودة فقداً كاملاً.

ولكي تسهل الأمم المتحدة انسحاب القوات البريطانية والفرنسية والإسرائيلية، شكلت قوة طوارئ مؤلفة في الدرجة الأولى من جنود ينتسبون إلى بعض الدول الصغرى. واحتلت قوة الطوارئ الدولية هذه مراكزها بين المصريين والقوات المحتلة، فيما كانت هذه القوات الأخيرة تنسحب من الأراضي المصرية.

وحاول البريطانيون والفرنسيون أن يرفعوا رؤوسهم وهم ينسحبون من مصر.

لقد تحدثوا بعض التحدث عن الانسحاب على شرط أن يصار إلى إنشاء هيئة دولية تشرف على إدارة القنال. ولقد حاولوا بادئ الأمر أن يظهروا إنهم إنما يسلمون منطقة

القنال – فيما هم ينسحبون منها – إلى الأمم المتحدة لا إلى مصر. ولكنهم اضطروا، آخر الأمر، إلى مواجهة الحقيقة الصارخة: وهي أنهم كانوا ينسحبون من الأراضي المصرية من غير قيد ولا شرط، ومن غير أن يكونوا قد حققوا أي شيء على الإطلاق من حملتهم العسكرية تلك ضد عبد الناصر. لقد كانت هزيمة شنعاء لأقوى دولتين من دول أوروبا الغربية.

وفي نهاية العام كان آخر جندي بريطاني وآخر جندي فرنسي قد غادرا مصر.

أما الإسرائيليون فكانوا أبطأ في مغادرة الأراضي المصرية. لقد قاموا بمحاولات يائسة ليجعلوا انسحابهم مشروطاً، ولكنهم اضطروا آخر الأمر، تحت ضغط عنيف من الأمم المتحدة ومن الولايات المتحدة الأميركية، إلى إكمال انسحابهم من الأراضي التي احتلوها.

وهكذا تحررت مصر، وتحررت شقة غزة أيضاً من القوات الأجنبية.

إننا حين نرجع إلى أحداث عام ١٩٥٦ نستعرضها وندرسها نجد أنفسنا في كثير من الأحيان أمام هذا السؤال:

"من الذي انتصر في حرب السويس؟"

إن عبد الناصر لم يكسب أية معركة من معارك تلك الحرب، ولكنه انتصر في الحرب.

والواقع إن الحروب في الدول الصغيرة، في القرن العشرين، نادراً ما تقرر نتائجها على أساس من القوة والبراعة العسكرية. إن الذي يقرر مصير الحرب في هذه الأيام هو مدى التأييد الدولي الذي يُوفَّق كل من الفريقين إلى اكتسابه. ولقد كان التأييد الدولي الضخم الذي فاز به عبد الناصر هو الذي جعله ينتصر في حرب السويس عام ١٩٥٦.

وكان البريطانيون والفرنسيون هما الذين خسروا أكثر ما يكون في هذه الحرب. إنهم، بمهاجمتهم عبد الناصر، كانوا يطمعون في انتزاع القنال منه، ولكنهم بدلاً من ذلك

خرجوا من الحرب وسلطة عبد الناصر هي العليا على القنال. وليس ثمة أحد، إليوم، يجادل في هذه السلطة أو ينافسه عليها.

وقبل الهجوم البريطاني الفرنسي كانت مصر مستعدة للمفاوضة من أجل الوصول إلى تسوية لمسألة القنال مع البريطانيين والفرنسيين، تأخذ وجهة نظرهم بعين الاعتبار. لقد أظهر عبد الناصر استعداداً للقبول بضرب من المجلس الدولي الاستشاري للقنال. أما بعد الهجوم، فلم يكن أحد ينتظر من عبد الناصر أن يتفاوض مع أعدائه الذين تسربلوا بالخزى والعار: الفرنسيين والبريطانيين. كما أن أحداً لم يحاول الضغط عليه للقبول بأي ضرب من الاشراف الدولي على القناة.....

وفي نيسان (أبريل) عام ١٩٥٧ نشر عبد الناصر مذكرة بتنظيم إدارة القناة. ولم يكن لأحد غير مصر، الآن، الحق في أن تقول كيف ينبغي للقناة أن تدار، وكيف ينبغي للرسوم أن تدفع. وفي الواقع، لقد كان عبد الناصر قادراً على أن يقول للبريطانيين والفرنسيين إما أن تقبلوها وإما أن ترفضوها. ودمدمت الدولتان وهدرتا بعض الشيء، وهددتا في بادئ الأمر بأنهما سوف يقاطعان القناة. ولكن لم تنقض غير فترة قصيرة حتى أثرت كل منهما أن "تبتلع كبرياءها"، ووافقت على الشروط التي فرضها عبد الناصر.

وأصيبت جميع الدول الغربية بخسائر فادحة عندما تعطلت الملاحة طوال أربعة أشهر، بسبب السفن التي أدى الهجوم على السويس إلى إغراقها في القناة. وكانت بريطانيا وفرنسا بين الدول التي منيت بأعظم الخسارة.

وقبل الاعتداء على السويس كانت بريطانيا تملك قاعدة عسكرية ضخمة في منطقة القنال، يشرف عليها مدنيون بريطانيون بموجب أحكام الاتفاقية المعقودة عام ١٩٥٤. وكان سلاح الطيران الملكي البريطاني يتمتع بحق الهبوط في منطقة القنال، وكان لبريطانيا الحق في العودة إلى احتلال تلك المنطقة إذا ما وقعت حرب كبرى.

أما بعد الاعتداء، فلم يعد للقاعدة البريطانية وجود. ذلك أن المصريين صادروا، في أثناء القتال، جميع المستودعات البريطانية الموجودة فى المنطقة، وحاصروا جميع الفنيين المدنيين ورحلوهم إلى بريطانيا. وبعد فترة قصيرة أعلن جمال عبد الناصر إلغاء اتفاقية عام ١٩٥٤ رسمياً.

وهكذا خسرت بريطانيا مرتكزاً حيوياً كان لها فى الشرق الأوسط .

ومنيت بريطانيا وفرنسا بخسارة كبيرة في الحقل الدبلوماسي، لا تقل عن الخسارة التي مُنيتا بها في الحقل الاقتصادي، نتيجة لهجومها الغادر على السويس. فليس مصر فحسب، بل المملكة العربية السعودية، والأردن، والعراق، وسوريا، سارعت إلى قطع العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا. وانضمت سوريا والمملكة العربية السعودية إلى مصر في قطعها العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا أيضاً. وهكذا أصبحت الدولتان معزولتين إلى حد كبير جداً عن منطقة كانت لهما فيها مصالح اقتصادية، وتجارية، وثقافية ضخمة. وفى مصر صودرت الممتلكات الفرنسية البريطانية، ومُصر عدد كبير من الشركات بعد الاعتداء على القنال. كان نفوذهما في العالم العربي - وهو منطقة كانت هاتان الدولتان تحكمانها في يوم من الأيام - قد تدنى حتى الصفر تقريباً منذ الهجوم العقيم على السويس.

أنا أكتب هذه السطور في أواخر صيف عام ١٩٥٨ . إن جمال عبد الناصر هو اليوم أقوى مما كان قبل حرب السويس بكثير جداً.

إنه ليس رئيس مصر وحدها، ولكنه رئيس سوريا أيضاً ذلك إن مصر وسوريا اتحدتا منذ مطلع هذا العام في دولة واحدة هي الجمهورية العربية المتحدة. ومنذ ذلك الحين دخلت إليمن في اتحاد فيدرإلى مع الجمهورية العربية المتحدة. وفي لبنان زال حكم كميل شمعون المغإلى في موالاة الغرب وحل محله نظام جديد، على رأسه الجنرال شهاب. وهذا النظام الجديد قد عقد النية على الوقوف من عبد الناصر موقفاً ودياً. ولكن أعظم هذه الانتصارات على الإطلاق هو الانتصار الذى تم في ١٤ تموز (يوليو) في بغداد، عندما

تمكنت عناصر تؤيد سياسة عبد الناصر من أن تقضي على عدوه اللدود، نوري السعيد. لقد خلعت الأسرة الهاشمية عن العريش، وقامت في العراق جمهورية أعلنت على رؤوس الأشهاد، في الحال، أنها تقف في صف جبهة عبد الناصر العربية المتحررة.

ذات يوم من أيام آذار (مارس) كنت أقف في المدخل المؤدي إلى شقة غزة، أتأمل اللاجئين العائدين إلى غزة فيما كان الجيش الإسرائيلي ينسحب من الأراضي التي احتلها في أثناء الهجوم الغادر. كان هؤلاء اللاجئون راكبين في شاحنات مكشوفة، وكانوا يحملون صوراً ضخمة لجمال عبد الناصر، ويهتفون ويضحكون بينما ينطلقون عبر الخط من شبه جزيرة سيناء إلى شقة غزة...

وتحدثتُ إلى جماعة من أولئك الفلسطينين كانوا على ظهر إحدى الشاحنات، وكانوا من قبل قد عاشوا في يافا إلى أن احتلها الإسرائيلون عام ١٩٤٨، ومنذ ذلك الحين عاشوا في غزة. وكانوا قد فروا من غزة عندما غادرها الإسرائيليون عام ١٩٥٦.

وصحتُ مخاطباً واحداً منهم :

- "هل أنت عائد إلى غزة؟"

فرد على صائحاً في ابتهاج غامر:

- "اليوم إلى غزة، وغداً إلى يافا. تعال وقم بزيارتنا في يافا في السنه القادمة!".

واقتربت نحو شاحنه أخرى مثقلة باللاجئين الفلسطينين العائدين إلى غزة. كان جميع الشبان الذين اشتملت عليهم تلك الشاحنة يهتفون:

- "عاش جمال عبد الناصر!".

وكان على الشاحنة أن تتوقف قليلاً على الحدود

وتحدثت مع من فيها من الشباب، فإذا بي أجدهم أيضاً واثقين من أنهم سوف يستردون قريباً وطنهم الذي اغتصبه إليهود.

لقد قالوا لي ووجوههم طافحة بالسعادة:

- "إن جمال عبد الناصر يجمع السلاح من أي مكان يجده فيه. والعرب قد اتخذوا سبيلهم إلى الوحدة، وهم يزدادون قوة يوماً بعد يوم. ولن تنقضي فترة طويلة حتى يكونوا قد أصبحوا أقوياء إلى درجة تمكنهم من أن يلقوا بإسرائيل في البحر".

وانطلقت الشاحنات المنشدة، المغنية، الهاتفة بحياة عبد الناصر متخذةً سبيلها إلى غزة. وراقبتُها وهي تنطلق، وتذكرت أن هؤلاء اللاجئين العرب قد اضطروا مرتين اثنتين إلى الفرار في ذعر من وجه الإسرائيليين: الأولى عام ١٩٤٨، والثانية عام ١٩٥٦. ومع ذلك فلا يزالون واثقين من أن النصر النهائى سوف يكون لهم.

من الذي ربح حرب السويس؟

جمال عبد الناصر.



(١١)

مصر تصبح ملكاً لأبنائها



إن حرب السويس قد أتاحت لجمال عبد الناصر الفرصة التي تمكنه من أن يُكمل إنقاذ مصر من الاحتلال الأجنبي ذي الشُعب الثلاث. ذلك الاحتلال الذي جثم على صدرها منذ عهد بعيد.

وكان عبد الناصر قد بدأ هذه المهمة الخطيرة بالقضاء على الأسرة المالكة وعلى أمراء الإقطاع. ثم جاءت حرب السويس فأنهت الاحتلال البريطاني وانتهت القاعدة البريطانية في منطقة القنال. وها هي حكومة عبد الناصر الآن تسارع إلى الإفادة من الأزمة وتنشط لتخليص البلاد من النوع الثالث من المحتلين الأجانب - أعني تلك الجاليات الأجنبية التي عاشت في مصر منذ قرون عديدة، والتي هيمنت على حياتها التجارية والثقافية هيمنة شبه كاملة.

فعلى أثر الهجوم على السويس شن جمال عبد الناصر حملة على رعايا الأعداء - البريطانيين والفرنسيين واليهود-، فأدى ذلك إلى خروج جماعي من مصر شمل الأجانب من مختلف الجنسيات، مع العلم أن عدد الأشخاص الذين خرجوا، فعلياً، كان صغيراً نسبياً.

وصادرت الحكومة المصرية الممتلكات البريطانية والفرنسية، ووضعت يدها على الأموال البريطانية والفرنسية في المصارف المصرية. وصارعت النقابات المهنية إلى إسقاط الرعايا البريطانيين والفرنسيين من عضويتها. وهكذا حالت بين الأطباء والمحامين والمهندسين البريطانيين والفرنسيين من ناحية والعمل في مصر من ناحية أخرى وأعطى اليهود في البنك الأهلي - وهو بنك الدولة المركزي - إجازات طويلة الأمد. وقرر كثير منهم مغادرة مصر آخر الأمر.

والواقع أن عدد هؤلاء الذين أخرجوا من مصر على هذا النحو يبلغ حوإلى ألف شخص، نصفهم تقريباً من البريطانيين والفرنسيين ونصفهم الآخر من إليهود غير المصريين. ولكن هذا التدبير أوقع الذعر في نفوس الجإليات الأجنبية القديمة النازلة في مصر، فبدأت ترحل عن البلاد على نطاق واسع. لقد توهم الآلاف من أفراد هؤلاء الجإليات أن حياتهم في مصر لم تعد محتملة.

وتولت السفارة السويسرية فى القاهرة رعاية المصالح البريطانية والفرنسية، بعد أن انقطعت العلاقات الدبلوماسية بين مصر وبريطانيا وفرنسا. وسرعان ما تعين على السفارة السويسرية أن تزيد عدد العاملين فيها لكي تتمكن من مواجهة ذلك السيل من الرعايا البريطانيين والفرنسيين الراغبين في الخروج من مصر بأسرع وقت ممكن. وكل يوم كان يتدفق على السفارات الأجنبية مئات من الرعايا الأجانب المزمعين مغادرة مصر.

ذلك إن حمى الخروج من مصر لم تستول على رعاية الدول العدوة فحسب، بل استولت على جاليات أجنبية أخرى في مصر. إن بعض الإيطإليين الذين لم يقدر لهم فى حياتهم أن يروا وجه إيطاليا بدأوا يتدفقون على سفارتهم فى القاهرة طالبين العودة إلى الوطن الأول. وكان على إيطاليا أن تقبلهم، لأنهم يحملون جوازات سفر إيطاليا. ولكن الحصول على عمل فى إيطاليا المزدحمة بالسكان أمرٌ غير يسير، ومعظم أولئك الذين غادروا مصر إلى إيطاليا لا يزالون إلى إليوم يبحثون عن عمل يكسبون به رزقهم.

وبدأت طائرات خاصة تنقل إليونانيين من الإسكندرية إلى أسترإليا. وحتى اللبنانيون الذين أثْرُوا فى مصر وازدهروا قرروا العودة إلى لبنان الذى يحبونه، والذى لم يقدر لهم أن يروه من قبل إلا نادراً. والألمان، والأسترإليون، والبلغاريون، والبولنديون، والروس البيض – كل هؤلاء شرعوا يبحثون عن مكان جديد يعيشون فيه. وأنشئت فى القاهرة

صفوف لتعليم اللغة البرتغالية كان يقبل عليها المرشحون للهجرة إلى البرازيل إقبالاً شديداً.

ولا نبالغ إذا قلنا إنه لم تنقض سنة واحدة على أزمة السويس حتى كان ما لا يقل من ٥٠.٠٠٠ أجنبى مقيم في مصر قد غادروا البلاد. وبعد ذلك انخفضت حمى الخروج. لقد بدأت الحياة تعود سيرتها الطبيعية الأولى. وانتهت الأزمة، ولم يعد ثمة حاجة تدعو الدولة إلى اتخاذ تدابير أمن استثنائية.

ومع ذلك فإن الجاليات الأجنبية القديمة قد بدأت تضمحل. إن كثيراً من الأجانب المسنين سوف يبقون في مصر حتى يأتيهم الأجل. ولكنهم يرسلون أولادهم إلى خارجها، أولاً لكي يتلقوا دروسهم، وبعد ذلك لكي يستوطنوا هناك. إنهم لا يلحون عليهم في العودة إلى مصر. وعندما يمضي هذا الجيل إلى سبيله يكون احتلال أصحاب الجوازات الأجنبية لمصر قد أصبح مجرد ذكرى قديمة.

إن حرب السويس قد عجلت في إنجاز عملية كانت قد بدأت منذ بضع سنوات. كان حامل الجواز الأجنبي قد بدأ يشعر أن مصر لم تعد مرتعاً خصباً بالنسبة إلى الأجانب. إنه لم يعد قادراً على التمتع ببعض الامتيازات الخاصة لمجرد كونه واحداً من حملة جوازات السفر الأجنبية. إنه قد يكون أقدر، من الناحية الفنية، من زملائه المصريين، ولكن كان يقابل ذلك عزم المصريين على أن يكونوا هم سادة بلادهم.

واليوم تهاتف فى القاهرة إلى ذلك الأرمنى الذى اعتاد أن يصلح لك البيانو، ولكن بدلاً من أن يفد للقيام بهذه المهمة رجل أرمانى يفد رجل مصري. ذلك أن الأرماني قد رحل إلى جنوبي أفريقيا، فحل محله عامل مصري جديد.

والشىء نفسه يصح فى محلات الخياطة، وفى المطاعم.

إن نوادي الرياضة، وشواطئ السياحة، وملاعب السباق فى الإسكندرية والقاهرة وبورسعيد لم تعد تضج بفرنسية الأجانب الأغنياء المتبطلين الموقعة توقيعاً موسيقياً..... إن اللغة هى إليوم اللغة العربية.

وخلال فصل الشتاء الذى عَقِبَ حرب السويس، شهدت حفلة من حفلات البالية التى أقامتها إحدى الفرق الروسية فى دار الأوبرا الشهيرة فى القاهرة. وتلك كانت هى الدار التى شيدها الخديوى إسماعيل للامبراطورة أوجينى عند افتتاح قناة السويس. وفي عهد ما قبل الثروة كانت تشهد تلك الدار موسماً حافلاً كل شتاء، وكانت الأوبرات تقدم فيها باللغتين الفرنسية والإيطالية على التناوب. وفي تلك الأيام كانت دار الأوبرا تتلألأ، بالمعنى الحرفي لا بالمعنى المجازي، بالجواهر التي تتحلى بها الطبقة الأرستقراطية المصرية وبالملابس البهية التي ترتديها. إن كلمة واحدة لم تكن تنطلق هناك إلا بأكثر اللهجات الفرنسية رقة ونعومة...

أما في تلك الليلة، من ليالى ما بعد حرب السويس، فقد دخلتُ دار الأوبرا في بدلة عادية، ومن حولي، كانت جماعات من المصريين أبناء الطبقة الوسطى، يتحدثون بلسانهم العربي المألوف. وحين اتخذت مقعدي نظرت إلى الأرائك المصنوعة من المخمل الأحمر في المقصورة الملكية السابقة، هناك كانت قد جلست الامبراطورة أوجيني نفسها بوصفها ضيفة على الخديوي إسماعيل، وهناك كان فاروق وشقيقاته يجلسون في حفلات الافتتاح.

ولكني حين نظرت إلى المقصورة في تلك الليلة من ليإلى ما بعد حرب السويس، رأيت خادماً مصرياً مدنياً في بدله بنية، وكانت تصحبه زوجته البدينة في ثوب حريري أسود، وإلى جانبها كان أولادهما الثلاثة، صبي وبنتان، وكلهم يأكلون الفول السوداني، ويتجرعون بعض أشربة الصودا الباردة.

وفي الشتاء الماضي أنفقت فترة من الزمن في أحد الفنادق بأسوان، وكان يُعني بتنظيف غرفتي غلام أسود، جيء به من إحدى القرى النوبية. وأبديت ملاحظة ما عن الخدم، فقال لي الغلام في لطف وكياسة ولكن في عزم:

"عفواً، يا سيدي، إننا هنا لم نعد نقول "خادم"، لقد أصبحنا نقول "عامل" بدلاً من ذلك".

إن كثيراً من المتارف التي سبق لها أن جعلت مصر محببه إلى نفوس الأجانب قد زالت الآن. ولكن مجرد كون الحياة قد أصبحت أقل متعة بالنسبة إلى الأجانب، لا يعنى أنها قد ساءت بالنسبة إلى جماهير المصريين. فالواقع إن الكثرة من المصريين قد أتيحت لهم إليوم فرصٌ حقيقية للنجاح، وذلك للمرة الأولى في حياتهم. إن المصريين قد أصبحوا - بعد جهاد طويل - يسيطرون على بلادهم. إنهم قد لا يتقنون صنع بعض الأشياء، ولكنهم يصنعونها بأنفسهم وهم بذلك مرتاحون سعداء. وعلى أية حال، فالمصريون لن يتمكنوا من أن يصبحوا طهاة بارعين، أو خياطين بارعين، أو خبراء في الراديو بارعين، أو أطباء بارعين ما لم يُمنحوا الفرصة لممارسة هذه الفنون بأنفسهم والتمرس بها.

ولا ريب في أن خروج إليهود الأخير من مصر قد زاد من حقد الغرب على عبد الناصر. وهذا ما جعل كثيراً من الغربيين يهاجمون عبد الناصر زاعمين أنه "هتلر الصغير".

ولكن الإنصاف للحقيقة يقتضي أن ندرك وجود الحقائق التالية في الجانب الآخر:

فعلى الرغم من الانطباعة السائدة فيما وراء البحار، فإن إليهود المصريين لم يتعرضوا قط للقتل أو الأذى. كل ما في الأمر أن الدولة اتخذت بعض إجراءات الأمن المألوفة ضد عدد صغير نسبياً من أولئك إليهود. وهذه الإجراءات إنما اتخذت لأسباب سياسية، وليس لأسباب عرقية أودينية. وفي حقل الدعاية لم يهاجم عبد الناصر يهود مصر قط.

إنه لم يحاول أن يستثير شعبه على اليهود كيهود. والواقع إن معظم اليهود المصريين كانوا قد وفدوا على مصر فراراً بأنفسهم من اضطهاد دول أوروبا النصرانية لهم: إسبانيا، وبولندا، وألمانيا، وروسيا. وقبل الحرب الفلسطينية عام ١٩٤٨ كان عدد اليهود في مصر يُقدر بسبعين ألف يهودي. وقد هاجر من هؤلاء إلى إسرائيل نحوٌ من عشرين ألفاً. أما الخمسون ألفاً الباقون فقد عاشوا في أمن ورفاهية في مصر، إلى أن وقع الهجوم الغادر على شبه جزيرة سيناء عام ١٩٥٦. ولعله لا يزال في مصر اليوم عدد من اليهود يتراوح ما بين خمسه وعشرين ألفاً وثلاثين ألفاً، ولكن معظم هؤلاء سوف يرحلون، في أغلب الظن في العشرة سنوات القادمة أو نحوها. وهذه الحقائق تدل بشكل واضح على أن عبد الناصر لم يقم بحمله نظامية "معادية للسامية".

وبعد حرب السويس أصدر عبد الناصر سلسلة من القوانين عجلت أكثر فأكثر في "تمصير" مصر. ففي حقل التربية أجبرت جميع المدارس الأجنبية على اتباع مناهج التدريس في دقة. ومعنى ذلك أن جميع الطلاب في مصر سيتلقون دروسهم، لأول مرة، باللغة العربية، لغة البلاد. ولقد فُرضت العربية الآن لغة للتدريس في جميع المدارس الابتدائية والثانوية. والعربية تستعمل اليوم أكثر فأكثر لغة للتدريس في الجامعات المصرية، بعد أن تكاثرت المؤلفات العلمية والتقنية الموضوعية باللغة العربية، وبعد أن تكاثر عدد الأساتذة المصريين في الجامعات. وقد فرضت الحكومة، الآن، على جميع المدارس الأجنبية أن تسند منصب المدير إلى رجل مصري، ولقد استولت على جميع المدارس البريطانية والفرنسية و "مصرتها" تمصيراً كاملاً.

وكان "تمصير" المدارس هذا حبة مريرة تعيَّن ابتلاعها على بعض المصريين "المتفرنجين" الذين لا يزالون يعتبرون أن من "الظريف" أن يتكلم أولادهم الفرنسية أو الإنكليزية كلغةٍ أولى. ولكن هذه الحبة المريرة سوف تعني أن مصريي المستقبل سوف يُنشأون على حب ثقافتهم القومية ويوحي منها. إنهم لن ينغمسوا في جو لويس الرابع

عشر، في حين يستخفون بصلاح الدين. إن الشباب المصري سوف يكون شباباً مصرياً، لا مجرد ظلال لثقافة أجنبية ما.

لقد حرر عبد الناصر حياة مصر الثقافية من أيدي الأجانب. فبعد حرب السويس بقليل سُنت قوانين تقضي بتمصير جميع المصارف، وشركات التأمين، ومؤسسات الاستيراد في مصر. لقد أصبح من الحتم على هذه البيوت كلها أن تكون ملكاً خالصاً للمصريين، لا يشاركهم في حمل أسهمها أجنبي واحد. لقد نفذ هذا القانون في الحال في نطاق المؤسسات العدوة، أي بريطانيا وفرنسا، ولسوف يطبق على سائر المؤسسات من مختلف الجنسيات في مدى خمس سنوات. وكجزء من قانون التمصير، أنشأت الحكومة "منظمة اقتصادية" رسمية، وهذه المنظمة مستعدة لأن تشتري المؤسسات الأجنبية إذا ما عجز رأس المال المصري الأهلي عن شرائها.

ومن أعظم مشروعات المنظمة الاقتصادية إنشاؤها شركة للبترول تمتاز بأنها مصرية مئة بالمئة. وهذه أول مرة في تاريخ العالم العربي تنصرف فيها للتنقيب عن البترول شركة عربية خالصة يملكها العرب بأنفسهم. ولقد نالت هذه الشركة امتيازاً كان قد منح من قبل لبعض الأجانب وما إن انقضت على نيلها الامتياز أسابيع معدودات، حتى أعلن أنها عثرت على البترول. وقبل أن يصبح بالإمكان تقدير قيمة الآبار التي عُثر عليها، راحت الصحف المصرية تسهب في الكلام عن نجاح المصريين في الاهتداء إلى البترول "حيث سبق للأجانب أن أخفقوا". وهذا يظهر لنا بكل وضوح توق المصريين إلى أن يثبتوا أنهم يضاهون الغربيين في الشؤون التقنية (التكنيكية) العصرية.

أما تمصير مؤسسات الاستيراد فقد أطلق عليها بعضهم اسم "الثروة الحقيقية في مصر". ولقد عنى هذا القانون نهاية معظم حاملي الجوازات الأجنبية في مصر. وكانت كثرة هؤلاء قد جنت ثروات ضخمة، وفي كثير من السهولة، عن طريق الاتصال بأوروبا.

لقد كانوا هم الوسطاء بين المصانع الأوروبية والمستهلك المصـــري. أمـا الآن فقـد أزيـح الوسطاء من الطريق واستغنى عنهم...

لقد أصبحت مصر مصرية. لقد خطت البلاد خطوات واسعة إلى الأمـام منـذ أن كان جمال عبد الناصـر طفلاً في "بني مر"، حيث كانت أسـرته تستشعر أنهـا دون غيرهـا لمجرد أنها تتكلم باللغة العربية. إن قوانين التمصير وهجرة الأجانب من مصـر قد تركت في أثرها مشكلات معقدة، ولكن المصـريين يستطيعون أن يفخروا الآن في بلادهم، بأنهم مصـريون.

بعد سنة انقضت على حرب السويس، قابلتْ مجموعة من محرري الصحف الأجنبيـة - وكانوا في زيارة للقاهرة - جمال عبد الناصـر، فسأله أحد هؤلاء المحررين:

- "سيدي الرئيس، ما هو في نظرك أعظم عمل قمت به نحو مصـر؟"

فقال فتى "بني مر":

- "إعادتي الكرامة إلى الشعب المصـري"

(١٢)

الناصرية والمستقبل



لقد احتل عبد الناصر من حقول الصحف وعناوينها البارزة حيزاً ضخماً إلى أبعد الحدود، حتى لقد أصبحت لفظة "الناصرية" تطلق، عموماً، على ذلك الشكل من القومية الذي يدعوه العرب أنفسهم الحركة العربية المتحررة.

وإذ كنا نحن الصحافيون يعوزنا تعبير أفضل، فإننا نجد تعبير "الناصرية" ملائماً جداً، خاصة ونحن مضطرون في كتاباتنا الصحافية إلى أن نضغط الكلمات ونختصرها إلى أبعد حدود الضغط والاختصار.

واستعمال هذا التعبير صحيح إذا أردنا منه أن عبد الناصر يمثل أو يرمز إلى الحركة القومية في العالم العربي. ولكن استعماله يكون غير صحيح إذا فهمنا منه أن عبد الناصر هو الذي أوجد تلك الحركة، أو أن تلك الحركة مرهونة به أو متوقفة عليه.

ففي ثنايا هذا الكتاب كله حاولت أن أؤكد أن ما يدعى الناصرية كان قائماً في الشرق الأوسط، قبل أن يظهر عبد الناصر على المسرح السياسي بزمن طويل جداً. ففي عام ١٨٨٢، أي قبل أن يولد عبد الناصر، أرسل البريطانيون قوة عسكرية إلى مصر لكي يسحقوا ثورة عرابي، وهي حركة "ناصرية" إلى حد بعيد.....

وعندما كان عبد الناصر لا يزال طفلاً في "بني مر" تعين على البريطانيين أن يسحقوا عدداً من الثورات العنيفة في مصر والعراق، اللتين كانتا تندفعان في طريق الثورة تلك تحت تأثير القوة التي ندعوها إليوم "الناصرية". وحوإلى الوقت نفسه، تعين على فرنسا وإسبانيا أن تقذفا بقوات ضخمة إلى شمإلى أفريقيا لتقمعا ثورة بربرية قادها زعيم الريف، الأمير عبد الكريم الخطابي، الذي كان يعمل بتأثير الحافز نفسه الذي يعمل عبد الناصر إليوم بتأثيره.

وفي عام ١٩٤١ - أي قبل أن يطل عبد الناصر على الحياة السياسية بعشر سنوات - حاول رئيس الوزارء العراقي رشيد عإلى الكيلاني أن يحرز للعرب استقلالاً ومكاناً عن طريق مغازلة ألمانيا، ولكن حملة عسكرية بريطانية هجمت عليه فتمكنت من إنزال الهزيمة به، وحالت بينه وبين القيام بالدور الذي نهض به عبد الناصر فيما بعد. حتى إذا وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، كانت سوريا ولبنان تمتشقان الحسام ضد فرنسا.

ووراء حدود العالم العربي الشرقية، عرفت إيران لوناً خاصاً من "الناصرية" عندما أمم دكتور محمد مصدق شركة النفط الإنكليزية الإيرانية في مطلع عام ١٩٥٢، وذلك قبل عبد الناصر أيضاً بفترة من الزمن غير يسيرة، ولقد كان مسلك دكتور مصدق من الناحية الجوهرية هو نفس مسلك عبد الناصر، على الرغم من أنه كان أكثر تطرفاً. ففي خلال حكم رضا شاه بهلوي لإيران، عارض مصدق في قوة بالغة مد خط حديدي يخترق إيران.

لقد صرح مصدق آنذاك في "المجلس الإيراني" بقوله:

- "أنا لا أريد أن أرى سكة حديد في هذه البلاد قبل أن تصبح المعامل الإيرانية قادرة على صنع القاطرات، والخطوط الحديدية، وعربات السكة. وإلا فإن هذه السكة الحديدية سوف تعني التسرب الأجنبي إلى إيران".

كذلك يكون استعمال تعبير "الناصرية" خطأً أيضاً، إذا فهم منه أن عبد الناصر مسؤول عن جميع القلاقل التي تسود إليوم بلدان الشرق الأوسط. صحيح أن الشرق الأوسط لم يعرف الهدوء منذ أن تولى عبد الناصر السلطة في مصر، ولكن حوادث الشغب، والمظاهرات والاغتيالات، والانقلابات العسكرية والأزمات الدولية، لم تبدأ مع عبد الناصر. إن الأسباب الجذرية لهذه القلاقل كلها تقريباً ترقى إلى ما قبل عهد عبد الناصر.

فالزعيم العربي الأكثر موالاة للغرب في العصر الحديث، الملك عبد الله ملك الأردن، اغتاله شعبه نفسه في عام ١٩٥١. ولم يكن ثمة آنذاك محطة تدعى صوت العرب

تحرض على قتل الملك عبد الله. وإلغاء المعاهدة المصرية البريطانية، وإحراق القاهرة، ومصرع رئيس وزراء لبنان السابق رياض الصلح، ومصرع الجنرال رازمارا في إيران - كل هذه وكثير غيرها من الأحداث المثيرة وقعت قبل أيام عبد الناصر.

ورئيس الوزراء العراقي، صالح جبر، طرد من العراق طرداً كاملاً في عام ١٩٤٨، عندما حاول أن يوقع المعاهدة التي يطلق عليها اسم "معاهدة بورتسماوث" مع بريطانيا. ولم يكن ثمة محطة تدعى صوت العرب لكي تثير جماهير الشعب العراقي في تلك الأيام.....

وقبل أن يبلغ عبد الناصر العاشرة من عمره، كان العرب في فلسطين يضربون ويتظاهرون احتجاجاً على الهجرة اليهودية إلى الأراضي المقدسة. وعندما كان عبد الناصر تلميذاً يتلقى العلم على مقاعد الدراسة شن العرب في فلسطين ثورات استمرت من عام ١٩٣٦ إلى عام ١٩٤٩، حاولوا بها أن يمنعوا اليهود من بسط سيطرتهم على فلسطين. ولقد كان حكام العالم العربي في الأيام التي سبقت عبد الناصر هم الذين أنشأوا جيش التحرير العربي الفلسطيني عام ١٩٤٨، وهم الذين أرسلوا جيوشهم إلى فلسطين كي يحُوْلوا دون خلق دولة إسرائيل.

وقبل عبد الناصر بزمن طويل، قاطع العرب كل شيء صهيوني وأغلقوا خليج العقبة وقناة السويس في وجه الملاحة الإسرائيلية. وقبل عبد الناصر أيضاً كان العرب والإسرائيليون يخوضون غمار معارك عنيفة على الحدود.

إن الدرس الذي يتعين علينا أن نتعلمه من هذا كله هو أن "الناصرية" ليست من صنع رجل فرد، ولكنها تعبير عن أماني أربعين مليوناً من العرب في الشرق الأوسط.

وهذه الحركة يصعب تعريفها. وفي هذا الكتاب، حاولت أن أفسر الدوافع التي تحدو بعبد الناصر إلى العمل. إنه يمثل في ذات نفسه العرب المتحررين جميعاً، وفي الإمكان

تعريف حركتهم وفقاً لذلك. وأنا أعتقد أن هذا هو ما عناه عبد الناصر، في أواخر عام ١٩٥٤، عندما نجا بمعجزة من رصاص أحد السفاحين، وصاح في الحشد:

- "إذا ما أصابني أذى ما، فإن الثورة سوف تستمر، لأن كل واحد منكم هو جمال عبد الناصر!".

ولعل في إمكاننا أن نعرّف الناصرية تعريفاً عاماً، فنقول إنها توق العرب إلى الاستقلال والكرامة. وفي هذه المرحلة من مراحل تطورهم يوضع التوكيد على الكلمة الثانية - الكرامة -. إن الاستقلال قد تمنحه لهم الدول الكبرى، ولقد فاز به حتى الآن معظم بلاد العرب. أما الكرامة فشيء يجب أن يكتسب، وهم يناضلون لكي يكتسبه.

ومن الأمثلة على توق العرب الشديد إلى اكتساب الكرامة في جميع مراسلي الصحف كُلفوا، بعد الثورة العراقية في تموز ١٩٥٨، أن يترجموا برقياتهم الصحافية إلى العربية لكي تطلع عليها الرقابة. وكان هذا الأمر عسكرياً يحتاج تطبيقه إلى أكثر من الجهد والمال والوقت، أمراً بدا للمراسلين غير ضروري بالمرة ما دام ثمة عدد لا يحصى من الموظفين العراقيين متضلعين في اللغة الإنكليزية.

وحين نوقش العراقيين في ذلك:

- "لو تحتم علينا أن نقدم برقية صحافية إلى الرقابة العسكرية الأميركية، فهل تقبلونها إذا قدمناها إليكم باللغة العربية ؟"

والشيء نفسه يصح في جميع الدول العربية. إن العرب يصرون على أن يكونوا سادات بلادهم. وهم يصرون على أن يعاملوا في الشؤون الدولية معاملة الند بالند. وهذا يعنى - في الميدان الداخلي - أنهم يصرون على أن تكون لثقافتهم ولشعبهم السيطرة على البلاد، تماماً كما تسيطر الثقافة الفرنسية ويسيطر الشعب الفرنسي على فرنسا. وهو يعنى - في الميدان الخارجي - أنهم لن يقبلوا قط أن يعاملوا وكأنهم شركاء

صغار للدول الكبرى، ولن يرضوا بأن يكونوا "قاصرين" تحت وصاية "الدول الكبرى"، يحرم عليهم حمل المسؤوليات أو اتخاذ القرارات في مصائرهم بالذات.

إن الشيء الذى يكرهه العرب أكثر ما يكون، إنما لخصته إحدى شخصيات سومرست موم فى مسرحية له قديمة. لقد تحدثت هذه الشخصية (التى تمثل سياسياً بريطانيا) إلى طبيب مصرى، فقالت:

- "إننا نمنحك الحرية، الآن. نمنحك حرية الإصابة، لا حرية الخطأ".

لقد أصبح جمال عبد الناصر زعيم العالم العربي، لأنه يمثل في ذات نفسه أماني العرب ومشاعرهم الحاضرة أكمل تمثيل. ولقد أقام الدليل على أنه ليس في استطاعة أيما زعيم عربي أن ينجح كزعيم، إذا ما عارض هذه المشاعر أو ناقضها. وأولئك الذين يناقضون هذه المشاعر لابد أن ينتهوا إلى مثل نهاية الملك عبد الله، أو نوري السعيد، أو الملك فاروق. وكثيراً ما وقع الزعماء الغربيون في تلك الحماقة التي ما بعدها حماقة، والتي تقول إن الناصرية سوف تنتهى إذا ما أزيح شخص عبد الناصر من الطريق. لقد سقط إيدن وموليه في هذا الشرك. كان قد قبلا الصورة التشبيهية الزاعمة بأن عبد الناصر هو "هتلر الصغير". أقول إنهما كانا قد قبلا تلك الصورة قبولاً كاملاً، حتى لقد توهما أن القضاء على عبد الناصر سوف يعني نهاية الناصرية، كما عنى القضاء على هتلر نهاية النازية ...

إن الناصرية مستقلة عن عبد الناصر. ولسوف تستمر، سواء بقي عبد الناصر على قيد الحياة، أو لم يبق.

وعلى ضوء هذا كله، ما هو الموقف الذي يجدر بالغرب أن يقفه من الناصرية؟

في رأيي أن ثمه سبيلين لا ثالث لهما: إما أن يعمد الغرب إلى احتلال الشرق الأوسط احتلالاً عسكرياً دائماً وعلى نطاق واسع، وإما أن يسارع إلى التفاهم مع الناصرية.

فخلال سنواتي العديدة التي قضيتها في الشرق الأوسط شهدت عدداً لا حصر له من الجهود الغربية لإبقاء العرب في منزلة الشريك الصغير. ولقد وُجِّهت تلك الجهود

في معظم الأحيان، نحو كبح جماح الناصرية – على اختلاف أشكالها – وعرقلة سبيلها. ولقد أثبتت لي أحداث صيف ١٩٥٨ المثيرة أن هذه الجهود الغربية قد مُنيت بإخفاق يدعو إلى الرثاء. ونظرة إلى الخريطة تُظهر أن الحكومات الموالية للغرب في أيما بقعة من بقاع العالم العربي، لا تستطيع الاستمرار في كراسي الحكم إلا بقوة الحرب الغربية.

فقد وجد الملك حسين، ملك الأردن، نفسه مضطراً إلى الاستنجاد بالجيوش البريطانية لكي تنقذه من ثورة تنشب في بلاده على طراز الثورة العراقية. وفيما أنا أكتب هذه الكلمات تستمر تلك الجيوش في المرابطة بالأردن، تدعيماً لعرش الملك حسين، ولسياسته المعاديه لعبد الناصر. ومن ذلك، ففي انتخابات عام ١٩٥٦ الحرة، انتخب الشعب الأردني، على نحو كاسح، برلماناً موالياً لعبد الناصر. ويجب أن يكون واضحاً لدى كل إنسان أن الشعب الأردني سوف يقود بلاده إلى معسكر الدول العربية المتحررة حالما يُسحب التأييد الخارجي.

وفي عام ١٩٥٧، دعت الجيوش البريطانية حكم سلطان مسقط، الموالي للغرب، والقوة العسكرية البريطانية تناصر عدداً لا يحصى من الحكام الدمى في أطراف الجزيرة العربية. والملك إدريس، ملك ليبيا، الموالي للغرب، لا يثبت دعائم عرشه المتزعزع غير وجود القوات البريطانية.

والوضع أقل وضوحاً في لبنان. وحتى هناك، اضطر كميل شمعون إلى استدعاء القوات الأميركية لكي تنقذه من الثورة التي نشبت ضده بعد أن انتهج سياسة مضادة لعبد الناصر إلى حد بعيد.

وهكذا عملت القوة العسكرية الغربية على دعم مركز الحكام العرب الموالين للغرب. ولكن القضاء على الناصرية في مصر، وسوريا والعراق واليمن يحتاج إلى قوة أعظم بكثير من تلك التي يملكها الغرب في تلك المنطقة. ومثل هذه السياسة سوف تفرض

عليها أن يحتل الشرق الأوسط احتلالاً سرمدياً. وبالاختصار، فإن هذه السياسة سوف تعني العودة إلى الاستعمار بأبشع معانيه.

إن سياسة كهذه سوف تكلف غالياً، وأخطارها واضحة من غير ريب. أولاً، إنها قد تقود حرب عالمية ثالثة، ولسوف تقضي على ما تبقى للدول الأنكلوساكسونية من سمعة حسنة عند دول العالم غير المتعاقدة معها.

وفيما عدا السعي إلى التفاهم مع عبد الناصر، أي السبل يستطيع أن يسلكها الغرب كبديل عن الاحتلال العسكري؟

هناك أولاً العلاج التقليدي الذي يدعونه "المساعدة الاقتصادية"، وهناك أيضاً وسيلة أخرى أصبحت الآن بغيضة مفضوحة، وهي الأحلاف الدفاعية على اختلاف صورها. وهناك، كذالك، المساعدة العسكرية التي تقدم إلى الحكومات الصديقة بموجب برنامج الأمن المتبادل. وهناك المساعدة الفنية، والتعاون الثقافي. وهناك أخيراً وليس آخراً "مجهود الدعاية المعزز" الذي لا يستغنى عنه .

ولكن حوادث العراق تعطي أروع مثال على اخفاق هذه الحلول كلها .

فقد كان العراق يتلقى قدراً غير يسير من المساعدة الغربية، سواء بموجب برنامج الأمن المتبادل أم بموجب حلف بغداد. وكان المقصود بهذا، نظرياً، مساعدة العراق على المشاركة في الدفاع عن الشرق الأوسط ضد العدوان السوفييتي. وبتعبير عملي أكثر، فإن هذه المساعدة العسكرية كان يراد بها تقوية النظام العراقي الموالي للغرب وتمكينه من مكافحة خصومه الداخليين. وكان من المفروض في المساعدة العسكرية الغربية أن تكفل بقاء العراق في ظل نظام صديق مستعد للتعامل مع الغرب في حال نشوب الحرب.

وعلى الرغم من ذلك كان النظام العراقي أقل الأنظمة شعبية في العالم الغربي. وفي ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨ صرع الملك فيصل وولي بعده الامير عبد الإله، وأعلنت الجمهورية.

وقتل رئيس الوزراء العجوز، نوري السعيد، وسُحبت جثته في الشوارع، بينما كانت الجماهير تهتف وتهزج. كان هؤلاء الرجال قد ارتكبوا الخطيئة العظمي: خطيئة الرضا بأن يكونوا شركاء صغاراً للغرب.

إن المساعدة الاقتصادية لم تثبت في يوم من الأيام أنها عنصر حاسم في علاقاتنا مع العرب. فمنذ شهر نيسان (ابريل) ١٩٥٧ أغدقت الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من ثمانيين مليوناً على الأردن، لكي تدعم الملك حسين في نزاعه مع الناصريين. وفي النهاية، احتاج إلى استدعاء القوات البريطانية لحمايته.

ومن عام ١٩٥٣ إلى عام ١٩٥٥ حاول الرئيس أيزنهاور، بواسطة موفده إيريك جونستون أن يحل المشكله الفلسطينية من طريق وضع مشروع إنماء خاص بوادى الأردن. ولكن العرب رفضوا المشروع، على الرغم من أن قبولهم كان معناه الفوز بجزء من هبة مباشرة تقدمها الولايات المتحدة، وتبلغ قيمتها مئتي مليون دولار.

ولجأ الغرب إلى سياسة أخرى، فحاول أن يتعامل مع "عالم الصحراء" العربي، تمييزاً له عن عالم المدن. والبدو، بسبب محافظتهم الشديدة، أقل نزوعاً إلى الناصرية من العرب المثقفين النازلين في المدن. وبدوى الصحراء مستعداً للانضمام إلى صف الغرب إذا ما ضمن له الغرب مركزه. والواقع أن الملك حسين ونوري السعيد، والملك إدريس ملك ليبيا، والملك سعود وجدوا كلهم أعظم تأييد عرفوه عند أبناء "دنيا الصحراء". إنهم يُبقون الزعماء العشائريين في مراكز السلطة المحلية، ويتكلون على ولاء القبائل لهم.

ولقد لعب البريطانيون هذه اللعبة في شبه جزيرة العرب. ولعبتها الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٥٧ عندما دعمت الملك حسين في مناوءته لعبد الناصر. ولكن نتائج هذه السياسة لا تشجع أبداً. وكلما تقلص ظل الأمية، وكلما نمت المدن استطاع العربي المدني أن يسيطر على عالمه أكثر فأكثر. إن نفوذ البدوى هو إليوم في دور الاحتضار.

ولما كانت هذه السبل كلها قد أخفقت، فلم يبق أمام الغرب غير سبيل واحد هو: أن يتفاهم مع الناصرية.

وما الذي يعنيه هذا باللغة العملية؟

هذا يعني أن يعترف الغرب بأن عبد الناصر وأصدقاءه يمثلون أماني الكثرة العظمى من الشعب العربي. إنه يعني أن على الغرب أن يكف عن محاولة دعم الحكام غير الشعبيين الذين تتعارض سياستهم مع آمال شعبهم، الحكام الذين هم من طراز نوري السعيد والملك حسين.

إنه يعني الاعتراف، اعترافاً واقعياً ونظرياً على حد سواء، بأن الدول العربية دول مستقلة وذات سيادة. إنه يعني الاعتراف بحقها في أن تلزم جانب الحياد في الحرب الباردة إن شاءت أن تقف هذا الموقف.

إنه يعني أن على الغرب ألا يتوقع أن يفوز بأية امتيازات خاصة في العالم العربي، أو أي "خضوع لشروط" بعد إليوم، وألا يتوقع أن يتخذ من العالم العربي قاعدة يشن منها حروبه.

وفي الحقل الاقتصادي، قد يعني التفاهم مع الناصرية تأميم شركات البترول الغربية آخر الأمر. إن هذا لن يحدث في الحال، ولكن العرب المهتدين بهدى الناصرية لن يقبلوا استمرار السيطرة الغربية على ثروتهم الاقتصادية الأولى إلى ما شاء الله.

وقد يبدو هذا وكأنه مستقبل كئيب للمصالح الغربية في الشرق الأوسط. ولكن ثمة وجهاً آخر للمسألة. إن الوطنيين العرب العامرة صدورهم بالعاطفة القومية يريدون أن يكونوا مستقلين عن كل من المعسكرين العالميين الكبيرين، ومن هنا فإنهم يتحدثون كثيراً عن الحياد. إنهم في الوقت الحاضر يفتحون أبواباً كثيرة في وجه الروس كوسيلة لموازنة النفوذ الغربي. فإذا اعترف الغرب بالناصرية وأقام الدليل على أنه لا يبيت خططاً

لانتهاب العالم العربي وسلبه، فقد نجد العرب يعاودون فتح الأبواب في وجه الغرب لموازنة النفوذ السوفييتي.

إن تجربة حلف بغداد ومبدأ أيزنهاور، قد أظهرا أن الناصريين يمدون يد التعاون إلى الروس ويفتحون الأبواب في وجههم بنسبة تتعادل مع نسبة ضغط الغرب لربط بلادهم بعجلته تعادلاً كاملاً. وأنا أعتقد أن التخفيف من ذلك الضغط سوف يؤدي إلى إيصاد الأبواب في وجه الروس.

وحادثة قناة السويس تشير إلى السبيل الذي يتعين على الغرب أن يسلكه، في الحقل الاقتصادي. لقد سلك البريطانيون والفرنسيون – وكذلك سلك الأمريكيون إلى حد أقل – سبيلاً وكأنهم كانوا ينكرون على عبد الناصر حقه في تأميم قناة السويس، وكان هذا في الواقع يعني إنكار هذه الدول على عبد الناصر حقاً من حقوق السيادة تمارسه بريطانيا وفرنسا نفسيهما.

هذا الموقف الغربي أدى إلى نشوب حرب باهظة النفقات، كان من الجائز جداً أن تنقلب إلى حرب أكبر. وفي النهاية توصلت شركة القناة القديمة إلى تسوية مع عبد الناصر قامت في الأعم الأغلب على نفس القواعد التي سبق لعبد الناصر أن عرضها في ٢٦ تموز (يوليو) عام ١٩٥٦. ولو أن الغرب احترم السيادة المصرية منذ البدء، لكان في الإمكان اجتناب حرب السويس كلها.

لقد أممت قناة السويس، ولكنها لا تزال في خدمة دول العالم كلها وفي خدمة ملاحتها، باستثناء إسرائيل. إن أرقاماً قياسية من السفن لتمر كل يوم بها في سهولة ويسر، وفي أمن وسلام. وقد وضعت إدارة قناة السويس المصرية برنامجاً ضخماً لتوسيع القناة وتعميقها لكي تمكن عدداً أكبر من السفن، وكذلك لكي تمكن سفناً أعظم ضخامة من أن تجتاز القناة.

وبكلمة أخرى، فإن تأميم القناة لم يقض على التعاون بين مصر والغرب في استعمال هذا المجرى المائي الهام. ولكن التعاون أمسى إليوم قائماً على مصالح متبادلة واضحة، وأصبحت مصر تقوم في هذا التعاون بدور الشريك المساوي لغيره، لا بدور الشريك الخاضع لغيره.

والشيء نفسه سوف يحدث في أغلب الظن لشركات البترول في الشرق الأوسط. إنها، بطريقة أو بأخرى، سوف تُخضع للسيطرة العربية المباشرة إخضاعاً أقوى وأوضح. ولكن هذا لن يحرم الغرب من البترول، فأوروبا الغربية سوف تكون السوق المنطقية للبترول العربي سواء أمم هذا البترول أم لم يؤمم. وإذا ما اعترف الغرب بالسيادة العربية، فأغلب الظن أن يتم كل شيء في هدوء، وأن يجري في مجرى حسن. أما إذا أنكر الغربيون على العرب هذا الحق فعندئذ لابد أن يتعرض الشرق الأوسط لانفجار رئيسي لا يستطيع أحد أن يتكهن بنتائجه.

إن عائدات البترول العربي سوف تبلغ في وقت قريب نحواً من مليار دولار في العام. وكلما نما النفوذ الناصري تعاظمت الاستفادة من هذه العائدات في الإنفاق على مشاريع الإنماء في العالم العربي. إن الناصريين يريدون أن يرفعوا أبناء شعبهم على ظهور الجمال، وأن يضعوهم وراء مقاود التراكتورات. ولا ريب في أن الجيل القادم سوف يشهد حقبة من التطور الاقتصادي لم تعرف المنطقة نظيراً له في تاريخها كله.

ومن الثابت أن زعماء التجارة الغربيين قادرون على أن يجدوا في ذلك فرصاً للتعاون. إن العالم العربي سوف يقدم إليهم سوقاً هائلة للسلع الرئيسية على اختلافها، لمضخات الري، للتوربينات، وللقاطرات، وللمصانع على تعدد ضروبها وتباينها.

إن حقبة التعاون هذه لا يمكن أن تجيء إلا إذا أصبح الغرب واقعياً إلى درجة تجعله ينحني لإرادة الجماهير العربية، ويسعى إلى التفاهم مع الناصرية، ولن يكون ذلك سهلاً.

إن العواطف سوف تلعب دوراً رئيسياً لإبعاد الغرب عن السير في هذا الاتجاه. وقد ينشأ عن ذلك منازعات وانفجارات غضب. ولكن هذه هي السبيل العاقلة الوحيدة التي يستطيع سلوكها.

أو كما قال واحد من رؤساء تحرير الصحف الأمريكية، بعد رحلة قام بها إلى العالم العربي:

- "لست أدري ما إذا كان عبد الناصر مصيباً أو مخطئاً. ولكن الذي أدريه هو أنه لابد منه".

انتهى

الفهـــرس



عبد الناصر..
قصة البحث عن الكرامة

لقد احتل عبد الناصر من حقول الصحف وعناوينها البارزة حيزاً ضخماً إلى أبعد الحدود حتى لقد أصبحت لفظة الناصرية تطلق، عموما، على ذلك الشكل من القومية الذى يدعوه العرب أنفسهم الحركة العربية المتحررة.

وإذ كنا نحن الصحافيين يعوزنا تعبير أفضل، فإننا نجد تعبير الناصرية ملائما جدا، خاصة ونحن مضطرون فى كتاباتنا الصحافية إلى أن نضغط الكلمات ونختصرها إلى أبعد حدود الضغط والاختصار.

واستعمال هذا التعبير صحيح إذا أردنا منه أن عبد الناصر يمثل أو يرمز إلى الحركة القومية فى العالم العربى. ولكن استعماله يكون غير صحيح إذا فهمنا منه أن عبد الناصر هو الذى أوجد تلك الحركة، أو أن تلك الحركة مرهونة به أو متوقفة عليه.

ففى ثنايا هذا الكتاب كله حاولت أن أوكد أن ما يدعى بالناصرية كان قائما فى الشرق الأوسط، قبل أن يظهر عبد الناصر على المسرح السياسى بزمن طويل جدا. ففى عام ١٨٨٢، أى قبل أن يولد عبد الناصر، أرسل البريطانيون قوة عسكرية إلى مصر لكى يسحقوا ثورة عرابى، وهى حركة ناصرية إلى حد بعيد.

وعندما كان عبد الناصر لا يزال طفلاً فى بنى مر تعين على البريطانيين أن يسحقوا عددا من الثورات العنيفة فى مصر والعراق، اللتين كانتا تندفعان فى طريق الثورة تلك تحت تأثير القوة التى ندعوها اليوم الناصرية، وحوالى الوقت نفسه، تعين على فرنسا وإسبانيا أن تقذفا بقوات ضخمة إلى شمالى أفريقيا لتقمعا ثورة بربرية قادها زعيم الريف، الأمير عبد الكريم الخطابى، الذى كان يعمل بتأثير الحافز نفسه الذي يعمل عبد الناصر بتأثيره.

الناشـــر

مكتبة مدبولى

MADBOULY BOOKSHOP

٦ ميدان طلعت حرب – القاهرة – ت : ٢٥٧٥٦٤٢١

6 Talat Harb SQ. Tel.: 25756421

www.madboulybooks.com - info@madboulybooks.com